

استخلاف أهل القرآن والصلاة
دراسة في سورة بني إسرائيل "الإسراء"

د / أحمد نصير

تمهيد : -

نزلت سورة الإسراء في السنة الحادية عشرة من البعثة المحمدية، أي قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بسنة وشهرين ، فهي مكية باتفاق المفسرين ، وسميت بسورة (الإسراء)؛ لأنه ذُكر في فاتحتها حادثة إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، كما تسمى سورة (بني إسرائيل)؛ لأنها تحدثت عن إفسادهم في الأرض وعتوهم فيها ، كما تسمى سورة (سبحان)؛ لأنها افتتحت بتسبيح الله سبحانه، وذكر التسبيح فيها في أكثر من آية.

ويلاحظ أن سورة الإسراء هي أكثر سورة ذكر فيها القرآن والكتاب، وفي ذلك دلالة على استشعار قيمة القرآن ، وحادثة الإسراء هي الحادثة الممثلة لانتقال الكتاب إلى أمة محمد ﷺ ، وكأنها تقول لنا: أنتم يا أمة محمد مسؤولون عن هذا الكتاب، عن القرآن ، فاستشعروا قيمته، وإياكم أن تفرطوا فيه كما فعلت الأمم السابقة فيستبدلكم الله كما استبدلهم¹ ، ولذلك قال ابن مسعود في هذه السورة أنها من (العنق الأول ، وهن من تلادي)²، (فالعربُ يَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ بَلَعُ الغَايَةِ فِي الجُودَةِ عَتِيْقًا)³ ، والمقصود أنها من قديم ما نزل من القرآن، ومن قديم ما حفظه وتعلمه من أول الإسلام ، قال الشيبهني (مِنْ تِلَادِي: حفطي قديما)⁴ ، و(التَّالِد) : (المال القديم الذي وُلِدَ عندك ، ونقيضه الطارف)⁵ ، قال ابن الجوزي (فالتلید القديم والطريف المستحدث)⁶ ، يقول بدر الدين الحنفي (وأراد بقوله من تلادي أي من محفوظاتي القديمة)⁷ ، شبهة بالتراث والأثر والمال المحفوظ من قديم الزمان لما فيها من فوائد جمة لا يجوز إهمالها ، مثل المال القديم الذي يتوارث زمنا لا يتركه صاحبه ولا خلفه لغلو ثمنه وندرة وجود مثيله ، قال السبتي (ولا وجه لتكرره)⁸.

قال السيوطي (وقد ظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل: أنه سبحانه لما قال في آخر النحل: (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فسّر في هذه شريعة أهل السبت وشأنهم، فذكر فيها جميع ما شرع لهم في التوراة، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: (التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل)⁹ وذكر عصيانهم وفسادهم، وتخريب مسجدهم، ثم ذكر استفزازهم للنبي ﷺ ، وإرادتهم إخراجهم من المدينة ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون: وأخبر أن استفزازهم للنبي ﷺ ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم، ووقع ذلك أيضاً ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أسرى بالمصطفى إليه ، تشريفاً له بحلول ركابه الشريف ، فله الحمد على ما ألهم¹⁰.

¹ (الكلم الطيب : 8960/item/safahat/kalemtayeb.com

² رواه البخاري ج14 ص 313 رقم 4339

³ (الدرر السنية : المشرق العام علي بن عبد القادر السقاف

<https://dorar.net/hadith/sharh/14240>

⁴ (الفجر الساطع على الصحيح الجامع ج6 ص 1

⁵ (النهية في غريب الأثر ج1 ص 526

- ومنه حديث العباس [فهي لهم ثالدة بالذة] يعني الخلافة . والبالذ للثأل

- ومنه حديث عائشة رضي الله عنها [أنها أغتثت عن أخيها عبد الرحمن ثلاداً من ثلادها] فإنه مات في منابه . وفي نسخة ثلاداً من أثلاده

⁶ كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 208

⁷ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج27 ص 425

⁸ مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج2 ص 66

⁹ تفسير الطبري ج 17 ص 590

¹⁰ (أسرار ترتيب القرآن ج1 ص 12

مقدمة السورة : تسبيح الله بشأن رحلة الإسراء من الحرام للأقصى

الافتتاحية : علو بني إسرائيل في الأرض مرتين

المحور الأول : القرآن يهدي للتي هي أقوم

المحور الثاني : الوصايا الربانية للأمة المحمدية

المحور الثالث : منهج القرآن في شرح عقيدة التوحيد

المحور الرابع : الخوف من لوازم الإيمان

المحور الخامس : الثبات على الإيمان

المحور السادس : مجادلة الرسول بالباطل

الخاتمة : تسع آيات لبني إسرائيل

(القرآن ، الدعاء ، الصلاة ، التوحيد ، التكبير)

مقدمة سورة الإسراء وافتتاحيتها

قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عَدُنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

الإسراء رحلة انتقل فيها النبي محمد ﷺ مكانيا بجسده وروحه من مكة (المسجد الحرام تحديدا) إلى المسجد الأقصى في فلسطين بقدرة إلهية في لمح البصر ، مختصرا الزمان ، وتلتها رحلة أخرى وهي العروج به إلى سبع سموات ثم نزل ، ورجع إلى مكة مرة أخرى ، ولم تستغرق الرحلتين وقتا يذكر حتى أن سريره ﷺ كان لا يزال دافئا حتى عاد إليه ، إشارة إلى أن الرحلة لم تستغرق تقريبا عشرة دقائق .

وهذه الحادثة كان لها وقع على الصحابة ونفوس قريش بين مصدق ومكذب ، فعن بن عباس قال قال رسول الله ﷺ لما كان ليلة أسرى بي وأصبحت بمكة فظعت بأمرى وعرفت ان الناس مكذبي فقعده معتزلا حزينا قال فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ هل كان من شيء فقال رسول الله ﷺ نعم قال ما هو قال انه أسرى به الليلة قال إلى أين قال إلى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرائنا قال نعم قال فلم ير انه يكذبه مخافة ان يحجده الحديث إذا دعا قومه إليه قال أرايت ان دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني فقال رسول الله ﷺ نعم فقال هيا معشر بني كعب بن لؤي حتى قال فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال حدث قومك بما حدثتني فقال رسول الله ﷺ إني أسري بي الليلة قالوا إلى أين قلت إلى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين ظهرائنا قال نعم قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب زعم قالوا وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال رسول الله ﷺ فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت قال فجاء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقال أو عقيل فنعته وأنا أنظر إليه قال وكان مع هذا نعت لم أحفظه قال فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب¹.

وجاءت الإشارة إلى البركة حول المسجد الأقصى الذي أسري بالنبي محمد ﷺ إليه ، باعتبارها إشارة إلى دماء الشهداء الزكية الذين لا يزالون يقاتلون في سبيل الله وهم ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ،

¹ رواه أحمد بن حنبل ج1 ص 309 رقم 2820 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج8 ص 28 ، المجلدات ج7 ص22 ، ج20 ص22 ، الإسراء والمعراج تأليف الألباني ج1 ص 81 ، 82

فتلك البقعة التي تميزت بالبركة كما في قوله (الذي باركنا حوله) ، هي مربوط الشهداء ، ينبت فيها شجر الزيتون الذي سقي بدماء المرابطين علي أرضها حتى قيام الساعة .

فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوَّهُمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأَوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ قَالَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ¹



وقد جاء ذكر موسى مع الكتاب الذي هو التوراة وبيان وظيفته بأنه أنزل لنبي إسرائيل ليكون لهم هدى بمناسبة نهيهم عن أن يتخذوا من دون الله وكليلاً ، أي ناهيا لهم عن الشرك بعد استشعار زهو النصر ، وقد ذكرهم بأصل آبائهم ، فقد كانوا أنبياء (إبراهيم واسحق ويعقوب) وكان أسلافهم كذلك مؤمنين ، تلك الطائفة التي نجت مع نوح من الطوفان ، فحري بهم أن يكونوا خير خلف لخير سلف ، ولكن حالهم لم يكن على هذا النحو ، فقد علم الله أنهم سوف يفسدون مرتين ، وفي هاتين المرتين يعلون علوا ظاهرا على الناس جميعا لكن الله كتب أن يضع كل شيء رفعه ، فتكون الكرة عليهم ويمكن الله المؤمنين من دخول المسجد الأقصى منتصرين مثلما دخل نبي الله محمد ﷺ مكة فاتحا ، وقد وعد ، ووعدته حق ، وعدهم بالنصر وأن يهدموا أصنام الشرك ولتعلوا كلمة التوحيد ويكبروا الله ، وما النصر إلا من عند الله .

قوله (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (1) جاء تسبيح الله بمناسبة رحلة الإسراء ، يقول الشعراوي (كأنه سبحانه يقول: نَرَاهُ اللهُ عن مشابجة البشر ، وعن قوانين البشر في هذه المسألة ، لا تستبعد أن يذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود في ليلة واحدة ، فلو قست هذه المسألة على قانون البشر فإنه يتعذر فهم ذلك ، وهذا ما

¹ رواه أحمد ج 45 ص 281 رقم 21286 وصححه الألباني : قال الألباني : الحديث بلفظ مطلق دون ذكر الشام ، فهو متواتر ، تجد كثيراً من طرقها وألفاظها مخرجة في الكتاب الآخر : "الصححة" في مواطن عديدة ، فانظر "صحيح الجامع" (7164 - 7173) .

وقال الألباني في السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج 4 ص 456 رقم 1957 لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك . قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" 4 / 599 : أخرجه مسلم (52 / 6 - 53) و أبو داود (202 / 2) و الترمذي (36 / 2) و ابن ماجه (464 / 2 - 465) و أحمد (278 / 5 - 279) و الحاكم أيضا (4 / 449 - 450) من حديث ثوبان مرفوعا . و روى الحديث بزيادة فيه بلفظ : " لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ، لعنهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك ، قالوا : و أين هم ؟ قال : ببيت المقدس و أكفاف بيت المقدس " . رواه عبد الله بن الإمام أحمد في "المسنند

" (5 / 269) فقال : وجدت في كتاب أبي بخط يده : حدثني مهدي بن جعفر الرملي : حدثنا ضمرة عن الشيباني - و اسمه يحيى بن أبي عمرو - عن عمرو بن عبد الله الحضرمي عن أبي أمامة مرفوعا . و رواه الطبراني في "الكبير" (7643) من طريق أخرى عن ضمرة بن ربيعة به . و هذا سند ضعيف لجهالة عمرو بن عبد الله الحضرمي ، قال الذهبي في "الميزان" : " ما علمت روى عنه سوى يحيى بن أبي عمرو الشيباني " . و ذكره ابن حبان في "الثقات" على قاعدته التي لم يأخذ بها جمهور العلماء و لذلك لم يوثقه الحافظ في "التقريب" و إنما قال : " مقبول " أي لين الحديث . و بقية رجال الإسناد ثقات ، و في "المجمع" (7 / 288) : " رواه عبد الله و جادة عن خط أبيه ، و الطبراني ، و رجاله ثقات " . كذا قال و فيه و ما علمت عن حال الحضرمي .

(تنبيه) الشيباني كذا في "المسنند" و "الميزان" بالشين المعجمة و الصواب : الشيباني بالمهملة المفتوحة و سكنون التختانية بعدها موحدة كما في "التقريب" ، و هكذا وقع في "الطبراني" . و لحديث أبي أمامة شاهد بنحوه رواه الطبراني (20 / 317 / 754) عن مرة البهزي ، قال الهيثمي (7 / 289) : " و فيه جماعة لمأعرفهم " . كذا قال ، و من لم يعرفهم مترجمون في "تاريخ البخاري" و "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم كما حققه صاحبنا الشيخ حمدي السلفي في تعليقه على "المعجم" ، فالصواب أن يقال : " و فيه من لم يوثق ، إلا من ابن حبان ، فإنه وثق أحدهم " . و الله أعلم .

فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدّعي أنك أتيتها في ليلة؟ فقاوسا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذّبوه¹ .



المسجد الأقصى

المسجد الحرام

ومن جهة أخرى لم تكن رحلة الإسراء مجرد رحلة ترفيهية للنبي محمد ﷺ ، ولا رحلة استكشافية يرى فيها بلادا أخرى ، ولا رحلة تثقيفية يلتقي فيها مع الأنبياء ويصلون معا في المسجد الأقصى يسلمون على بعض ويتعارفون ، وإنما هي رحلة تبصيرية ليريه الله من آياته إنه هو السميع البصير ، هذه الآيات أراد الله تعالى أن يريها لنبيه بعينه رؤيا حقيقية ليصل بمذه الرؤية إلى مرحلة عين اليقين ، فيكون مبلغا عن ربه بما رآه عينيه ، وليس بما أيقنه قلبه وحسب ، فيكون البلاغ أكثر مصداقية .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لَمَّا كَذَّبْتَنِي فُرَيْشٌ - لَمَّا كَذَّبْتَنِي فُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ - قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ²، وهكذا أشار النبي ﷺ في العهد المكي إلى أهمية المسجد الأقصى للمسلمين ، ولم يأمرهم بعد بالصلاة إليه باعتباره أولى القبلتين ، ولكنه سلط الضوء عليه ، ليعلموا أن الله رب العالمين لا يأمرهم بعبادات يأتونها مجردة من مصالح البلاد والعباد ، فهذه البقعة المباركة هي التي سوف تدور عليها أحداث وملاحم كثيرة إلى يوم الدين ، تؤكد أن الإسلام منهج عملي حركي وليس عقائد وعبادات تمارس في الصوامع وحسب ولا شعارات مجردة من حياة الناس ومصالحهم ، قال رسول الله ﷺ (لَا يَزَالُ أَهْلُ الْعَرَبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)³، أي غرب الجزيرة العربية حيث ينتشر الإسلام ، ولذلك قيل (هم أهل بيت المقدس)⁴.

وسبحان الله أن من جملة الآيات التي رآها النبي ﷺ هو الرشد في الاختيار ، فقد اختار اللبن الذي له دلالة على الفطرة ، ولم يختار الخمر الذي له دلالة على متاع الدنيا عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ شَرِبَ الْخُمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرُهَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ)⁵ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أُنِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِإِبِلِيَاءَ بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَ اللَّبَنَ قَالَ جِبْرِيلُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَذَاكَ لِلْفِطْرَةِ لَوْ أَخَذْتَ الْخُمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ⁶

¹ (تفسير الشعراوي ج1 ص 7104)

² (رواه البخاري ج 14 ص 317 رقم 4341)

³ (رواه مسلم ج 10 ص 43 رقم 3551)

⁴ (شرح السيوطي على مسلم ج 4 ص 514)

⁵ (رواه ابن ماجه ج 10 ص 144 رقم 3364 ومسلم ج 10 ص 264 رقم 3738)

⁶ (رواه البخاري ج 14 ص 316 رقم 4340)

كما أنه لما قارب على الموت حَيَّرَ مرة أخرى بين أن يعيش ملكاً في الدنيا خالداً ، وبين أن يلقي ربه ، فاختار لقاء الله ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ حَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنْ اللَّهُ حَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدُ¹ .

وسبحان الله أن النبي ﷺ رأى في رحلته **جموع الأنبياء** ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٍ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَتُبَّهَا فَكُرِهْتُ كُرْبَةً مَا كُرِهْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرَبَ جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرُوهُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّحَفِيُّ وَإِذَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشَبَّهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ يَغْنِي نَفْسَهُ فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمْتَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالتَّقْتُ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ² .

قوله (وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً) (2) الإشارة إلى نبي بني إسرائيل في معرض الحديث عن الإسراء لبيت المقدس له دلالة على أن ثمة ملحمة عظيمة سوف تدور أحداثها في هذا المكان بين المسلمين واليهود ، فالنبي ﷺ لما أسري به إلى المسجد الأقصى صعد الله به إلى السماوات ، فرأى في كل سماء نبيا من الأنبياء ، ورأى نبي الله موسى رسول بني إسرائيل في السماء السادسة ، ثم رأى البيت المعمور فوق السماء السابعة ، حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، ورأى أثمار الجنة ، حتى إذا وصل إلى هذا المقام فرضت عليه الصلوات الخمس ، ليتلقى هذا الأمر من السماء ولم ينزل له إلى الأرض ، ليعلم الناس جميعاً أهمية الصلاة ومقامها عند الله تعالى ، فلا سبيل لنصر المسلمين على أعدائهم وأشدهم اليهود والذي أشركوا إلا بالتمسك بحبل الله المتين ، لاسيما وأن الصلاة هي الصلة المباشرة بين العبد وربّه .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ وَذَكَرَ يَغْنِي رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ فَأَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَشَقُّوا مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِ الْبُطْنِ ثُمَّ غَسَلُوا الْبُطْنَ بِمَاءٍ زَمْزَمَ ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا وَأَتَيْتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبُغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ الْبُرَاقُ فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَنِيِّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَنِيِّ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخِي وَنِيِّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ قَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخِي وَنِيِّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قِيلَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخِي

¹ رواه البخاري ج 2 ص 268 رقم 446
² رواه مسلم ج 1 ص 403 رقم 251

وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْنَا عَلَى هَارُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ قِيلَ مَنْ هَذَا قِيلَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْنَا عَلَى مُوسَى فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى فَقِيلَ مَا أَبْكََاكَ قَالَ يَا رَبِّ هَذَا الْعُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قِيلَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنٍ وَنَبِيٍّ فَرَفَعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ وَرَفَعْتُ لِي سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبْهَهَا كَأَنَّهُ قِلَالٌ هَجَرَ وَوَرَفَهَا كَأَنَّهُ أَذَانُ الْقُيُولِ فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَهْأَارٍ هَرَارٍ بَاطِنَانِ وَهَرَارٍ ظَاهِرَانِ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النَّيْلُ وَالْفَرَثُ ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى فَقَالَ مَا صَنَعْتَ قُلْتُ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً قَالَ أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ عَاجَلْتُ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ وَإِنْ أَمَتَكَ لَا تُطِيقُ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلِّمْ فَارْجِعْتُ فَسَأَلْتُهُ فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ ثُمَّ ثَلَاثِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَجَعَلَهَا خَمْسًا فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مَا صَنَعْتَ قُلْتُ جَعَلَهَا خَمْسًا فَقَالَ مِثْلَهُ قُلْتُ سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ فَنُودِيَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجْزَيْتُ الْحَسَنَةَ عَشْرًا¹.

ففي قوله (ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) (3) فهؤلاء جميعا الذين يحملون راية هذه الدعوة المباركة هم ذرية المؤمنين الذين حملتهم سفينة نوح عليه السلام ، قال الشنقيطي في هذا تحييج على طاعة الله ، أي (أي يا ذرية من حملنا مع نوح، فنجيناهم من الغرق، تشبهوا بأبيكم، فاشكروا نعمنا)² ، وأشار إلى هذا المعنى في قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) [مريم/ 58] .

فمن الذي كان يصدق أن سفينة في الصحراء سوف يأت طوفان عظيم يحملها ويغرق من حولها ، ثم ينزل المؤمنين من على ظهرها إلى اليابسة وترث ذريتهم الإسلام ، وتلك هي نهاية الملحمة في عهد نبي الله نوح ، وهي بداية الملحمة التي سوف تبدأ أحداثها منذ عهد النبي محمد ﷺ حتى قيام الساعة .



ويشير وصف نبي الله نوح بأنه كان عبدا شكورا إلى فرضية الصلاة ، إذ كيف تتحقق العبودية والشكر لله إلا بالصلاة ، إذ (لا خير في دين ليس فيه صلاة) ، وهكذا ذكر العبودية والشكر مع فرض الصلوات الخمس في رحلة المعراج بعد رحلة الإسراء ، ليتحقق الركن الثاني من أركان هذا الدين ، قال ابن جزري (هذا تعليل لما تقدم أي كونوا شاكرين كما كان أبوكم نوح)³ .

¹ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 13
² التسهيل لعلوم التنزيل ج 1 ص 878
³

قوله (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) (4) هنا تبدأ الملحمة ، وتدور أحداث القصة ، ليتحقق التنظير التاريخي للحركة الإسلامية ، فمعلوم أن الجهاد في سبيل الله لم يكتب على الناس إلا في العهد الموسوي ، فأمة موسى عليه السلام أول أمة فرض عليها القتال كما في قوله (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) (21) ، وقبل ذلك كان الله يهلك أعداءه بمعجزة كونية كغرق أو خسف أو مسخ .. الخ .

أما الإفساد المقترن بعلو بني إسرائيل علوا كبيرا فقد اختلف العلماء فيه وقت وقوعه ، هل ذلك مما جرى وكان؟ أم مما سوف يحصل آخر الزمان؟¹ ، لكن القرائن تؤكد أنه مما أخبر عنه القرآن بأنه سوف يحصل في ظل حياة الأمة المحمدية² ، بدليل قوله تعالى (وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) وليس هناك خبر عن النبي ﷺ عن متى يكون هذا الإفساد في الأرض³.

الشواهد والقرائن تؤكد أنه حصل أول مرة ، وقيل أنه حصل في المرتين ، وقد اتفق المفسرون القدامى على أن هاتين المرتين من الإفساد قد وقعتا من بني إسرائيل، ونقل شيخ المفسرين ابن جرير الطبري الإجماع على أن المرة الثانية هي فسادهم الذي وقع فيه قتل النبي يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام؛ وقال ابن تيمية: "كانت الأولى بعد سليمان، وكانت الثانية بعد زكريا ويحيى والمسيح لما قتلوا يحيى بن زكريا الذي يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمدان ، .. والمتواتر أن بخت نصر هو الذي قدم في المرة الأولى"⁴ ، "كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما"⁵ ، وصحيح ما قال فليس ثمة إفساد في الأرض أشد من تغيير كتاب الله وتحريف الكلم عن موضعه ، وتبديل الدين .

وقيل أنه حصل مرة وسوف يحصل في زمننا ، وقد ذهب بعض المفسرين المعاصرين إلى أن المرة الثانية لم تقع بعد ، ويدل عليه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ (الإسراء 8) ، ففيه إشارة إلى أن اليهود ستعود لهم دولة، ويتكرر منهم الإفساد في الأرض، فيعذبهم الله ويهلكهم في الدنيا بأيدي أعدائهم، وإنما ذكر الله تلك المرتين في الكتاب لكونهما إفسادين عظيمين واقعين من بني إسرائيل .

قال الشيخ محمد المنجد (ولو كان في ذكر حادثي الإفساد فائدة لعينيهما رب العالمين ، وإنما القصد الاعتبار ، وما يدل على عدم اعتبار التعيين ما قاله الله تعالى مهدداً لهم بقوله (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) ، ويمكن هنا جعل ما حصل لليهود على يد " هتلر " داخلاً تحت هذا التهديد والوعيد

¹ برنامج يستفتونك : الحلقة مذاعة بتاريخ 10 جمادى الأولى 1438 هـ أ د خالد بن عبد الله المصلح ، قناة الرسالة

<https://www.youtube.com/watch?v=SHCE5WQfkFE>

² تفسير الشعراوي لتفسدن في الأرض مرتين ، منشور على اليوتيوب بتاريخ 2017/7/31

<https://www.youtube.com/watch?v=dbvnwW7XXSg>

³ الشيخ مصطفى العدوي : يوتيوب 2020/7/9 مسجد التوحيد بشبرا mostafaaladwy.com

⁴ الجواب الصحيح ج6 ص 343

⁵ الجواب الصحيح ج6 ص 416

فالعبرة في ذكر ما حصل من بني إسرائيل وما عاقبهم الله تعالى به : تقرير أن الإفساد في الأرض والتكبر على الحق والتجبر على الناس وقهرهم : ستكون عواقبه وخيمة على أصحابه وعلى بلادهم ، وأن التزام شرع الله تعالى وإقامة العدل سيكون له أثره

قال الشيخ صاحب الفوزان (هذا وعيد من الله ، كما أنه عاقبهم على المرتين الأوليين ، فهو كذلك سيعاقبهم كلما أفسدوا في الأرض ، إلى آخر الدنيا ، وهذا واقع ومشاهد : أن اليهود ما زالوا يسلط عليهم الجباية ويسلط عليهم عدوهم كلما حصل منهم علو في الأرض وإفساد في الأرض ، وهذه عقوبة من الله سبحانه وتعالى لهذا الشعب الذي يفسد في الأرض وينشر الفساد فيها ويتكبر على العباد)¹.

ويؤكد هذا القول كذلك ما أخبر عنه النبي ﷺ بأن ثمة قتال سوف يحصل مرة أخرى بين المسلمين واليهود عند اقتراب الساعة كما وعد الله فقال (فإذا جاء وعد الآخرة) حينها تحدث الملحمة الكبرى وينتصر المسلمون ثم يتبع اليهود المسيح الدجال ويقتله عيسى بن مريم ، فينشب قتال بين أهل الحق وأهل الشر الذي عليهم تقوم الساعة .

(ويرى البعض أن الإفساد العظيم الحاصل من اليهود في عصرنا الحاضر، ليس حاصلاً من بني إسرائيل، فأكثر اليهود المعاصرين - في ظنه - ليسوا من نسل النبي يعقوب (إسرائيل) بالضرورة ، فكثير منهم أصلهم من الخزر أو الأرمين أو الروس أو الأوربيين وغير ذلك من الأمم، - ولم يجر تحقيق دقيق في هذا الأمر-) ².

وعند التحقيق نجد أن ثمة يهود أصولهم ترجع لبني إسرائيل (مثل يهود السفارديم والأشكناز) يعود جزء من أصولهم الجينية والتاريخية إلى بني إسرائيل القدماء بحسب الدراسات والأنساب ، وهذا لا يمنع كذلك حصول امتزاج بينهم وغيرهم ، إذ دخلت في الديانة اليهودية عبر العصور جماعات وأعراق مختلفة بالاعتناق والتزاوج، مثل " الخزر " وهم مملكة قديماً في آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية اعتنق ملكها وأفرادها اليهودية ، وكذلك الجماعات الإفريقية والآسيوية مثل يهود "الفلاشا" في إثيوبيا وغيرهم من الجاليات التي تمازجت مع السكان المحليين في بلدان الشتات)³

ويرى البعض كذلك أن كثيراً من اليهود المعاصرين ملاحدة لا يؤمنون أصلاً بالله ولا باليوم الآخر، ولا بالأنبياء، ولا حتى بموسى عليه الصلاة والسلام، وكثير منهم يُصَرِّحون بأنهم علمانيون، وهم في نظر اليهود المتمسكين بدينهم المحرّف مرتدون)⁴ وهذا القول وبفرض صحته تماماً فهو لا يمنع القول بأن يهود الماضي كيهود الحاضر⁵ يحرفون الكلم عن موضعه ، وهم هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، بدليل أنهم نسبوا لله النقص ، وظنوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولم يؤمنوا باليوم الآخر بدليل أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، فالإله الذي يؤمنون به غير الإله الذي يؤمن به المسلمون ، واليوم الآخر في تعريفهم غير اليوم الآخر في مفهوم المسلمين ، وكذلك الأنبياء فلم يتركوا نبيا إلا واتهموه بالفاحشة ، فلا فرق بين يهود اليوم ويهود الماضي ، يقول الشيخ عبد الرشيد صوفي (بعض الموجودين في إسرائيل ربما ينحدرون من بني إسرائيل المذكورين في القرآن، ولكنهم ليسوا بأكثرهم) .

(1) "مجموع فتاوى الشيخ صالح الفوزان " (1 / 156) 9

(2) د محمد بن علي بن جميل المطري : الخلاصة في تفسير آيات إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين

<https://www.alukah.net/sharia/166024/0/>

(3) يراجع في ذلك مقال د عاصم أحمد دسوقي بعنوان اليهودية : بوزارة الأوقاف المصرية

<https://awkaonline.gov.eg/content-sections/108>

(4) د محمد بن علي بن جميل المطري : الخلاصة في تفسير آيات إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين

<https://www.alukah.net/sharia/166024/0/>

(5) يوجد تحقيق صحفي على قناة الجزيرة مباشرة بعنوان هل اليهود المعاصرون هم أنفسهم "بنو إسرائيل" المذكورون في القرآن

وقد ذكر ابن كثير وغيره من المفسرين مثل الجزائري (أن الخطاب القرآني لبني إسرائيل يشمل ذريتهم في أي زمان، بما في ذلك الموجودون منهم في زمن النبي ﷺ ومن أتوا بعده ومن سيأتون، ما داموا ينسبون أنفسهم إلى هذه السلالة) ، كما أوضح الإمام محمد بن عبد الوهاب أن (الله خاطب اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بأفعال آبائهم، فقال لهم (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأُتِجَيْنَاكُمُ)، رغم أنهم لم يكونوا هم الذين نجوا من فرعون، بل آبائهم. فالعبرة بالنسب والانتماء التاريخي، وليس في الحضور الفعلي للأحداث) ¹، فالعبرة في الانتساب بالإدعاء ولو زورا ، أي بالانحراط بينهم ونصرتهم والتحزب لهم ، وليست العبرة بالانتساب البيولوجي كما نفهم ، وهو المعيار الذي اعتمده القرآن لتمييزهم عن غيرهم بقوله (وجعلناكم أكثر نفيرا) ولم يقل أكثر عددا ، بل هم ينفرون من كل شعوب الأرض أناس يشترؤهم بالمال ويغروهم بالسلطان ليقدموا العون لهم ماديا وعسكريا ، فيأخذون حكمهم في المعاملة متى ناصروهم تماما بتمام.

قوله (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) (5) هذا في المرة الأولى ، وقال ابن عطية : "بعثنا" يحتمل أن يكون الله أرسل إلى ملك تلك الأمة رسولا بأمره بغزو بني إسرائيل فتكون البعثة بأمر ، ويحتمل أن يكون عبر بالبعث عما ألقى في نفس الملك أي غزاهم).

واختلف المفسرون في هيئة القوم المبعوثون هل كانوا كفارا بدليل تسليط الله بختنصر عليهم ، وكذلك تسليط جالوت عليهم ، فقليل أن المرتين حصل فيهما التسليط من قوم كافرين

الإفساد الأول (جالوت) : (ذهب طائفة من المفسرين (ومنهم ابن عباس) إلى أن العباد الذين سُلِّطوا عليهم في المرة الأولى هم جالوت وجنوده، والذين هزمهم لاحقا جيش طالوت وداود عليه السلام.

الإفساد الثاني (بختنصر) : (يرى كثير من المفسرين أن بختنصر وجنوده هم الذين سُلِّطوا عليهم في المرة الأخرى، فقام بتخريب بيت المقدس وسبي اليهود إلى بابل (السي البابلي) ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في بيت المقدس إلا بعد احتلال فلسطين 1948 .

وجه المقارنة	جالوت (Goliath)	بختنصر (Nebuchadnezzar)
العصر الزمني	عاش في زمن النبي صموئيل (أو أشمويل) والملك طالوت، وقُتل على يد الفتى داود عليه السلام قبل أن يصبح ملكاً (حوالي القرن 11 قبل الميلاد).	عاش في زمن لاحق بكثير (القرن 6 قبل الميلاد)، أي بعد عهد داود وسليمان عليهما السلام بقرون طويلة.
الهوية والقومية	كان قائداً عسكرياً وملكاً ل العمالة (الكنعانيين) في أرض فلسطين.	كان إمبراطوراً ل الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية) في العراق.
نهاية خطره	انتهى أمره بالهزيمة والموت قتلاً	نجح في اجتياح أورشليم وتدمير

هل-اليهود-المعاصرون-هم-أنفسهم-بنو/ <https://www.aljazeera.com/news/miscellaneous/7/7/2025/> (1

بالمقلاع على يد النبي داود. هيكّل سليمان، وانتهت سلالة ملوك داود هناك في عهده.

وقيل أنه جائز كذلك أنهم كانوا قوماً مؤمنين بدليل تسليط الله نبيه محمد ﷺ عليهم كما في قوله (يسلط رسله على من يشاء من عباده)، قال أبو حيان (قيل: كان المبعوثون قوماً مؤمنين بعثهم الله وأمرهم بغزو بني إسرائيل والبعث هنا الإرسال والتسليط)¹.

وعند بعض العلماء أن الأمرين حاصلين، بمعنى تسليط الكافر وتسليط المؤمن عليهم، وذلك حصل في زمن طالوت وجالوت، كما ورد في سورة البقرة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "بعث الله عليهما في الأول جالوت، فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهما الخراج والذل، فسألوا الله إن يبعث إليهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت"².

وحصل - مرة ثانية - في زمن النبي ﷺ حيث استطاعوا أن يؤلبوا جميع القبائل العربية على النبي ﷺ وقبل بعثته كانوا يستفتحون على العرب بالنبي الذي سوف يأتي آخر الزمان، وكانت لهم الريادة العلمية بين الأمم باعتبارهم أهل كتاب، ولكنهم حاربوا النبي ﷺ ولم يتعاونوا معه، فهزمهم الله تعالى في المدينة المنورة وأجلى يهود بني نضير وقينقاع وقريظة وخيبر، وظل النبي ﷺ منتصراً عليهم حتى مات، ولم تكن لهم قائمة بعد ذلك زمناً طويلاً.

وعند التحقيق يتبين أنه لم يظهر منهم الإفساد المقترن بالعلو في المرتين الأولين (زمن مختصر)، و(زمن جالوت) عندما سلب الله عليهم أعداءهم، فقد حصل منهم الإفساد كتحرير التوراة دون حصول العلو لهم، وإنما ظهر الإفساد والعلو منهم أيام رسول الله ﷺ حينما استطاعوا تأليف الأحزاب عليه، فأجلاهم من المدينة، وظهر مرة ثانية علوهم وإفسادهم بعد احتلال فلسطين 1948، والله أعلم.

قوله (...بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا...) قال الشعراوي (وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون أن كلمة عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى: (أَأَنْتُمْ أَضَلُّنَّكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) [الفرقان: 17] نقول: إنكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب في الآخرة، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار، ثم يصبح الإنسان بعد ذلك مقهوراً. فنحن جميعاً في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط³.

¹ البحر المحيط ج7 ص 325

² تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 142

³ تفسير الشعراوي ج1 ص 94

ولا يزال المفسرون وأصحاب الرأي مختلفين في شأن تعيين هؤلاء العباد دون طائل أو فائدة عملية¹، فلو أراد الله تعيينهم لعينهم ولم يضع السياق مبهما ليفيد العموم والشمول، وهو ما ألح إليه الشيخ محمد المنجد كما ذكرنا قوله سلفاً

ففي الآية إيهام وعدم تعيين المقصود بقوله (عِبَادًا لَنَا) ولذلك فائدة البلاغية والبيانية تكمن في عدة أسرار لغوية وبلاغية، أبرزها :-

التحويل والتفخيم : إيهام الهوية وتنكير كلمة "عباداً" يُقصد به تحويل أمر هؤلاء العباد وتفخيم قوتهم وبأسهم، وكأنهم خلق لا يُعرف كنه قوتهم ولا يُقدر قدرهم لشدة بطشهم.

العموم والشمول : ترك التعيين يفتح الباب ليشمل اللفظ كل من اتصف بهذه الصفة من القوة والبأس الشديد في أي زمان ومكان، دون حصر القصة في جماعة تاريخية بعينها (مثل مختنصر أو الآشوريين أو غيرهم)، مما يجعل الآية صالحة كقاعدة عامة وسنة إلهية جارية.

(1) يقول د. نصر فحجان - غزة - ولا نسايره فيما يرى - كلُّ المفسرين الذين قالوا بأن زوال الإفساد الأول لبني إسرائيل كان على يد ملك بابل وجنوده لم يفهموا من قوله تعالى: (عبادًا لنا) أنهم أهل إيمان وإسلام وصلاح، بل على العكس، فقد فهموا أنهم كفارٌ وثنيون. ويقول السَّعدي في تفسيره: (واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المُسلَّطين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار) ويقول الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: (والمقصود بعباد الله هنا الآشوريون، ومعلوم أنَّ الآشوريين كانوا من أهل الشرك. وقوله تعالى: (لنا): هو عبارة عن الضمير (نا) المتصل بحرف الجر (لنا)، وهو تركيب لا يفيد التزكية والامتداد والتقريب، بل يفيد الملكية، فقوله تعالى: (عبادًا لنا) أي: إتهم مملوكون لنا، ويتصَّرفون وفق مشيئتنا، ومن صفاتهم أنهم عبادٌ أولو بأس شديد، أما التزكية والامتداد والتقريب، فنجد في الضمائر المتصلة بالأسماء في بعض الأحيان مثل: (بعيده) في قوله تعالى مقرَّبًا نبيِّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً)، ومثل: (عبدنا) في قوله تعالى عن النبي داود عليه السلام ممتدِّحًا وشاكراً: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب)، وكما في قوله تعالى عن عباده المتوكِّلين على الله تعالى فلا يجعلون للشيطان سلطانًا عليهم: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين). وإنَّ قوله تعالى: (عبادًا لنا) لا يعني أنهم مؤمنون بالضرورة، للأسباب التالية: أولاً: وردت كلمة (عباد) في سياقات عديدة في القرآن الكريم، ومنها ما يدلُّ على فسق هؤلاء العباد أو كفرهم، كما في الآيات التالية: أ- (أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل)، وواضح من الآية أنهم عباد ضالُّون، ولا يقول أحدٌ بأنهم مؤمنون أو مهتدون. ب- (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فهم مُسرفون على أنفسهم بالمعاصي. ت- (نهدي به من نشاء من عبادنا)، فهناك عبادٌ لم تحدث لهم الهداية، فهم ليسوا مؤمنين، ولفظ العباد في الآية يشمل غير المهتدين. ث- (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)، فالذين سبَّحون الشيطان هم عبادٌ أيضًا ولكنهم غاوين، ولا يقول أحدٌ بصلاحتهم أو تقواهم، وذلك باعتبار الاستثناء متَّصلاً غير منقطع، أي أنَّ ما بعد (إلا) من جنس ما قبلها. ثانيًا: جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه النَّوَّاس بن سميَّان رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم: (...) إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عَبْدًا لِي، لَا يَدَانِ لَأَخِي يَقْتَالُهُمْ، فَخَرَّزَ عِبَادِي إِلَى الظُّورِ (...)، صحيح مسلم 3937، أي أنَّ الله تعالى قد أخرج ياجوج ومأجوج الذين لا يَفْقَون أحدٌ من البشر على قتالهم ومواجهتهم، لكنَّهم وقَّوَّتْهم، ومعلومٌ لكلِّ المسلمين أنَّ ياجوج ومأجوج ليسوا مسلمين أو مؤمنين، ولكنَّهم عبادٌ لله كما في الحديث.

ثالثًا: جاءت صفة البأس الشديد في غير سورة الإسراء لغير المؤمنين، كما في قول الله تعالى: (قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين)، فلا تقتصر صفة البأس الشديد على المؤمنين، فقد أُلصق بهذه الصفة جنود ملكة سبأ الكافرون الذي كانوا يسجدون للشمس كما في الآية السابقة، وهو ما نجده أيضًا في قول الله تعالى في حق جنود نبوخذ نصر الوثنيين: (بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد).

رابعًا: ذكر ابن عبد ربِّه في العقد الفريد، أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد: (واعلموا أنَّ عليكم في مسيركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منه، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إنَّ عدونا شرٌّ ممَّا فلنَّ يُسلِّط علينا وإنَّ أسانا، فزب قوم سلَّط عليهم شرٌّ منهم، كما سلَّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفارٌ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً).

إنَّ استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالآية من سورة الإسراء يشير إلى أمرين: أ. يعلم عمر رضي الله عنه أنَّ الله تعالى قد سمَّى المبعوثين على بني إسرائيل لإزالة إفسادهم عبادًا له، كما في قوله عزَّ وجلَّ: (عبادًا لنا)، ولكنَّه في الوقت نفسه يقول عنهم: (كفرة المجوس).

ب. يعلم عمر رضي الله عنه أنَّ الإفساد الأول لبني إسرائيل كان قبل الإسلام، ولذا فهو يستشهد بما حدث لبني إسرائيل لما أتوا مساخت الله.

وممَّا سبق يتضح لنا أنَّ المقصودين بقوله تعالى: (عبادًا لنا) لم يكونوا مؤمنين، بل كانوا أهل وثنية وكفر وشرك، وهذا يؤكد القول بأنَّ الإفساد الأول لبني إسرائيل في فلسطين قد حدث قبل الإسلام، ولم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو في عهد عمر الخطاب رضي الله عنه، أو بعد ذلك.

إنَّ قوله تعالى: (عبادًا لنا)، يدلُّ على أنهم خاضعون لإرادة الله تعالى فيهم، ليكونوا آلة تأديب وتهذيب لمن يخرجون عن الهداية، ويقعون في الفساد والإفساد، ولذا كانوا من أهل البأس الشديد، والقوة، والشجاعة، والجرأة، وهو ما يُستأنس به في ترجيح القول بأنَّ هؤلاء العباد هم البابليون والآشوريون، وأنَّ العامل المشترك بينهم وبين العباد الذين يسعون وجوه بني إسرائيل في وعد الآخرة هو أنهم عبادٌ أولو بأس شديد، ولا يمتنع أنَّ يكونوا في الوقت نفسه عبادًا مؤمنين، وهو ما نراه بأعيننا، ونشهده بأنفسنا في الأرض المباركة.

التركيز على الفعل لا الفاعل : فالعبرة في الآية ليست بـ "من" هم هؤلاء العباد، بل بـ "الفعل" نفسه وهو وقوع العقاب الإلهي وسنة الله في تسليط القوي على من أفسد في الأرض.

التعظيم بالإضافة : رغم التنكير والإيهام، جاءت إضافة العباد (عباداً) إلى ضمير المتكلم العظيم (لنا) لتدل على أنهم مملكون لله وتحت طوعه ومشئته، وتسيرهم إرادته سبحانه لإنفاذ وعده، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فهم عباد قهر وتسخير.

قوله (..أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ) (5) فعلى الرأي الذي يجعل العباد المسطين عليهم هم المؤمنون ، ويجوز غيرهم من غير المؤمنين ، لكن في وصف المؤمنين - عند التعيين - بأنهم عباد لله أولوا بأس شديد ، يصف بدقة حال المجاهد في سبيل الله ، وهكذا لا بد أن يكون ، فهو ذو بأس شديد ، وليس يكتفى بمجرد القوة والصلابة والإباء ، بل لا بد من الشدة لتحقيق مزيد من القوة والصلابة والإباء .

ولذلك فإن عباد الله الموصوفون في الآية هم الذين يسلطهم الله على بني إسرائيل - الذين طالما أشعلوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا - وهم صحابة رسول الله ﷺ من قبل ، وهم الفئة المرباطة على الحق بعدهم ، حيث سلط الله النبي وأصحابه عليهم وأعطاهم قوة شديدة تكفي لهزيمة بني إسرائيل وتنزيلهم من علوهم الكبير .

والدليل على أنهم أولى بأس شديد أنهم يجاهدون في حال الصحة والمرض ، الغنى والفقر ، وهذا لا يكون إلا لمن له بأس شديد ، ففي الحديث عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ كَانَ عَلِيٌّ قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا فَقَالَ - مُسْتَكْرًا- أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَحَرَجَ عَلَيَّ فَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا كَانَ مَسَاءَ اللَّيْلَةِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ فِي صَبَاحِهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأُعْطِيَ الرَّايَةَ أَوْ لَيَأْخُذَنَّ بِالرَّايَةِ عَدَا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْ قَالَ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذَا نَحْنُ بِعَلِيِّ وَمَا نَرْجُوهُ فَقَالُوا هَذَا عَلِيٌّ فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّايَةَ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ¹.



كما روي أن عمرو بن الجموح كان أعرج شديد العرج وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا فلما أراد رسول الله ﷺ يتوجه إلى أحد قال له بنوه إن الله عز و جل قد جعل لك رخصة فلو قعدت فنحن نكفيك فقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعون أن أخرج معك والله إني لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة فقال له رسول الله ﷺ أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد وقال لبنيه وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا².

¹ رواه مسلم ج12 ص 133 رقم 4424

² رواه البيهقي في سننه الكبرى ج9 ص 24 رقم 17599 وصححه الألباني : فقه السيرة ج1 ص 260 وقال سننه حسن إن لم يكن مرسلًا وقد روى بعضه أحمد بسند صحيح

قوله (..فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ..) (5) قال الشنقيطي (هؤلاء العباد هم المسلمون) ، بدليل قوله سبحانه (جاسوا خلال الديار) ، فعن ابن عباس في قوله: (فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ) أي فَمَشُوا¹ ، ولم يقل (خلال البيوت) ، أي يمشون مطمئنين في الطرقات والشوارع بعدما هزموا بني إسرائيل ، ودون أن ينتهكوا حرمة ساكنيها ، وتلك هي أخلاق الإسلام² ، أي من دخل بيته كان آمناً ، أما من يخرج من بيته شاهراً سيفه وقت الحرب فهو محارب ، ويجب قتله ، قال الزجاج فجاسوا خلال الديار أي (فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه) ، وفي الصحاح (جاسوا خلال الديار أي تخللوا فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها)³.

وقد حصل ذلك ومضى بعدما نزلت السورة في العهد المدني كما ذكرت كتب السيرة، فإذا كانت هذه هي سنة الأولين فإنها كذلك لا بد أن تكون أخلاق الآخرين المتبعين لسنن من قبلهم من الصالحين .

فيهود المدينة كانوا على أربعة فرق (بنو قينقاع ونضير وقريظة وخيبر) وجميعهم أجلاهم النبي ﷺ من المدينة لخير ثم اقتحم عليهم خير وصالح أهلها

أولاً : حصار بني قينقاع : حاصرهم المسلمون 15 ليلة حتى استسلموا، ودخل المسلمون ديارهم وحازوا أسلحتهم وقاموا بإجلائهم.

ثانياً بنو النضير : حاصرهم النبي ﷺ وأمر بقطع نخلم وتحيق لتوهين عزيمتهم، فجاس المسلمون ديارهم ونزلوا على حكم الجلاء، فصالحوا النبي ﷺ على أن يخرجوا بنفوسهم ونسائهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح، فجعلوا يترددون في بيوتهم يخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين.

ثالثاً : دخول ديار بني قريظة : بعد غزوة الخندق ونقض بني قريظة للعهد، ضرب المسلمون عليهم حصاراً شديداً دام 25 ليلة.

وتخلل المسلمون حصونهم ودخلوا ديارهم بعد أن نزل اليهود على حكم سعد بن معاذ، وتمت السيطرة الكاملة على أموالهم، وديارهم، وسلاحهم.

رابعا : فتح حصون خيبر : كانت خيبر عبارة عن مجامع لليهود ، وقد ارتحل إليهم يهود بنو قينقاع وبنو نضير ومن بقي من قريظة ، وكانت كثيرة الحصون ،(حصن ناعم، وحصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلام) ، فكانت محصنة للغاية ، فلما توجه إليهم النبي ﷺ انتقل من حصن إلى حصن، وواقتمحها حصنا حصنا الواحد تلو الآخر بعد معارك ضارية وحصار مستمر، حتى تخللوا جميع ديارهم ومزارعهم، وصالحوهم في النهاية على البقاء لشطر الثمر قبل أن يُجْلُوا عنها نهائياً في عهد عمر بن الخطاب ، وذلك لما خانوا العهد وعدوا على ابنه عبد الله .

والعادة شاهدة على أن الملوك إذا دخلوا أهل قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، ولكن أهل الدين والإيمان إذا دخلوا قرية فاتحين لها اقتدوا بنبيهم محمد ﷺ فبدخلوها على هيئته ﷺ كما دخل مكة فاتحاً ، فعن أنس قال (دخل

¹ تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص143 رقم 13565 / تفسير الطبري ج17 ص366
² المحات رابعة في تفسير سورة الإسراء : الشيخ المختار أحمد بن سالم الشنقيطي 2016/1/30
³ لسان العرب ج6 ص43

رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعا¹، وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ (أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ أُمْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ)².

قوله (... وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) (5) فالتصديق بهذا الوعد من الإيمان بالله ، قال الرازي ذلك أن (قضاء الله بذلك قضاء جزماً حتماً لا يقبل النقض والنسخ)³.

فالله قد يسلط عليهم وعلى غيرهم عباده المؤمنين ، وقد يضرب الظالمين بعضهم ببعض ويسلطهم على بعض ، وتلك هي سنة الله الكونية

فقد ثبت في التاريخ القديم تسليط الله عليهم جالوت وجنوده ، وكذلك يختصر البابلي...الفرس والرومان... ، جاء في مجلة الجامعة الإسلامية: "فسلط الله عليهم الآشوريين والفراعنة المصريين والبابليين واليونانيين والبطالسة المصريين الوثنيين ثم الرومان الوثنيين والنصرانيين قديماً وحديثاً لقرون عديدة.

وفي التاريخ الحديث كان اليهود يُسامون سوء العذاب في الدول الأوروبية النصرانية وغيرها فمثلاً اضطهدوا في بريطانيا سنة 1298م حينما أمر الملك ادوارد الأول بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية، وفتك البريطانيون باليهود فتكاً ذريعاً.

، وفي فرنسا اضطهدهم الملك لويس التاسع، وفي عهد الملك فيليب الجميل سنة 1306م، وفي سنة 1321م نكل بهم الفرنسيون وطردوهم، وأيضاً في سنة 1582م طردوا مرة أخرى.

وفي إيطاليا حاربهم بابوات الكنيسة الكاثوليكية حرباً شعواء، وفي سنة 1540م ثار عليهم الإيطاليون فقتلوه وطردوهم.

وفي روسيا حدثت مذابح لهم في عهد الحكم القيصري النصراني خاصة في سنة 1881م، وسنة 1882م، وسنة 1902م حيث قتل اليهود بالآلاف.

وفي ألمانيا ظل القتل والطرد باليهود قائماً في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد هتلر النازي إبتداء من توليه الحكم في ألمانيا 1933م إلى 1945م .

قوله (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) (6) وكذلك عادت الكرة لبني إسرائيل في زمننا مرة أخرى حيث أمدهم الله بالأموال والبنين ، فجاءهم مدد من كثير من بلدان العالم وجنسيات مختلفة من روسيا وأمريكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا... الخ ، وكانت البداية عندما هاجروا إلى دولة فلسطين في عهد الخليفة عبد الحميد الثاني آخر خلفاء الدولة الإسلامية ، رغم أن السلطان أصدر عدة فرمانات (قرارات سلطانية) سنة 1887 تمنع منعاً باتاً هجرة اليهود الأجانب إلى فلسطين واستيطانهم فيها، وشدد على إبعادهم أو توجيههم لأقاليم أخرى لكنهم استطاعوا التسلل لأرض فلسطين والتحايل والهجرة إليها واستيطانها ، حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى

(1) رواه الحاكم في المستدرک ج3 ص 49 رقم 4365 ، البداية والنهاية ج4 ص 335
(2) رواه ابن ماجه ج10 ص 48 رقم 3303 ورواه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 496 رقم 1876
(3) تفسير الرازي ج10 ص 3



وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ

فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟

قَالَ (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)¹.

قوله (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) هذه الآية تفتح باباً للتوبة لبني إسرائيل ، لعلمهم بعد تمكينهم هذا أن يرشدوا ويحسنوا العمل ويؤمنوا بالله ، ولعلها تفتح بوجه خاص باباً لتوبة من ارتدع منهم عن الإساءة وحسن إسلامه وعمله وإن ظل قومه في ضلال .

يقول ابن جرير الطبري (يقول تعالى ذكره لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة (إِنْ أَحْسَنْتُمْ) يا بني إسرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم، ولزمتهم أمره ونهيه (أَحْسَنْتُمْ) وفعلتم ما فعلتم من ذلك (لَأَنْفُسِكُمْ) لأنكم إنما تنفعون بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم من بغاكم سوء، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قوتكم قوة ، وأما في الآخرة فإن الله تعالى يثيبكم به جنانه (وَإِنْ أَسَأْتُمْ) يقول: وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذ، فألى أنفسكم تسيئون، لأنكم تسخطون بذلك على أنفسكم ربكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوكم، ويمكن منكم من بغاكم سوءاً، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين)².

والان المسجد الأقصى ليس في حوزة المسلمين ، وهي إشارة إلى علو اليهود وضعف المسلمين ، فهل أحسن اليهود أم أساؤوا ؟ حتى نعلم اقتراب وعد الآخرة ، أي أن الله تعالى يجري قدره في هذه المرحلة بحسب الإحسان والإساءة ، ليعلم الناس جميعاً أن ما كُتب على بني إسرائيل وقُضي هو قضاء كوني قدرتي ، لعلم الله تعالى السابق أن الإساءة سوف تحصل منهم ، وليس الإحسان ، ومع ذلك فهم مخبرون - كأفراد - بين الإساءة والإحسان ، فلم يكتب الله عليه الإساءة ليكونوا مجبرين على الإساءة ، ولكنه سبحانه جعل في استطاعتهم الإحسان كأفراد ، ولكنهم اختاروا - ككيان - الإساءة.

¹ (رواه أبو داود ج 11 ص 371 رقم 3745 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج 1 ص 1415 رقم 14143)
² (تفسير الطبري ج 17 ص 371)

قوله (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتَبِيرًا) (7) هذا وعد من الله تعالى أن يعلو المسلمون على اليهود قبيل اقتراب يوم القيامة ، يقول الشعراوي (إذا عدنا عبادا لله فسندخل المسجد ونتبر ما علوا تتيبيرا)¹.

(فالضمير في قراءة الجماعة (لِيَسُوءُوا) (واو الجماعة) يعود على العباد أولي البأس الذين جعلهم الله أداة لعقاب بني إسرائيل وإذلالهم، فنسب فعل "المساءة" إليهم مباشرة لأنهم هم المباشرون للعذاب والفتح ، فهم الذين استعملهم الله ليديقوا المسيئين جزاء إساءتهم ، قال تعالى (يُجْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) (الحشر 2) ، وقال (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحشر 6) ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ فِي الْجَنَّةِ)².

وتلك الإساءة لن تحدث لهم دون قتال يدور بين المسلمين واليهود ، فعن رسول الله ﷺ يَقُولُ (تُقَاتِلُكُمُ الْيَهُودُ فَتُسَلِّطُونَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَأَيْتُكَ فَاقْتُلْهُ)³، وهذا القتال لن يحدث إلا بعدما تنكشف كل خدع اليهود ، ولا يجدون ستارا يتوارون وراءه ، وقد خذلتهم الأمم وبطلت تحالفاتهم معهم ، هنا لا يجدون غير الشجر والحجر يتوارون وراءه من المسلمين ، ولكن الله ينطقه يوم القيامة ، ليخبر بمن وراءه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْعَرَقَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ)⁴.

وأما عن وقت انقلاب الكفة عليهم ، فذلك يرجع إلى الوقت الذي يفقدون فيه سر قوتهم الذي سلف التنويه عنها من أنهم له قدرة على تأليب الناس وحشدتهم لنصرتهم ، ومن جهة أخرى يحصل ذلك بالتزامن من إفاقة المسلمين من غفلتهم واستعدادهم لهذا اليوم واكتمال الإعداد لذلك بإذن الله .

(إذ لم تعد الحروب تتخذ صور الشرف بين الجيشين كما كان في الماضي، بحيث يتلاقيان بسيفيهما في أرض المعركة وتكون الغلبة لمن يغلب، وإنما تغير أسلوبها، فأضحى العدو يتخفى بعدة ستائر، فإذا سقط ستار تبعه سقوط ستار آخر، حتى يحين وقت المواجهة؛ فساد ورشوة، ثم بلطجة وإجرام، ثم بلطجة مدنية، ثم بلطجة عسكرية، ثم بلطجة دولية، ثم اليهود؛ (أشدُّ الناس عداوةً للذين آمنوا)، كما أخبرنا بذلك القرآن، لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، ويختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر... فالمواجهة إذاً لا بد منها، وسوف تكون، ولا شك في ذلك، يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزُدَّوَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: 217) ؛ أي إنهم سوف يبدلون كل ما في استطاعتهم حتى يزُدُّونا عن ديننا؛ ولذلك فإن المواجهة مع العدو الحقيقي أمرٌ محتتم، وإن كنا لا نرغب فيه اليوم ولا الغد، إلا أنه سيكون، يقول - سبحانه - : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا

¹ تفسير الشعراوي ص 2113

² رواه أبو داود ج 12 ص 312 رقم 4081 وصححه الألباني : صحيح وضعيف أبي داود ج 10 ص 203

³ رواه البخاري ج 11 ص 427 رقم 3326

⁴ رواه مسلم ج 14 ص 140 رقم 5203

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾ (البقرة: 216)، الفكرة ليست في وقت هذه المواجهة، الفكرة ماذا أعددت لها؟ أو بمعنى آخر: هل أعدت الأمة لهذه المواجهة اثني عشر ألف مؤمن حق، يقول النبي ﷺ (خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة)¹، وإذا وُجد هؤلاء، فهل أنت منهم أم من غيرهم؟ ويوم أن تعد الأمة لهذه المواجهة اثني عشر ألف مؤمن حق، فاعلم يقيناً أن كل الأفعنة والستائر التي تسرّ بها العدو قد سقطت)².

وعندئذ - أي عند حصول المواجهة - فسوف يحصل ثلاثة أمور : (يبدو الخزي في وجوههم - تقام شعائر الله في المسجد الأقصى - تدمر أوثانهم ومذابحهم للشيطان) على النحو التالي :-

الأمر الأول : ظهور خزي بني إسرائيل على وجوههم

قوله (..لَيْسُوهُوا وَجُوهَكُمْ) أي: تَحْزَنُ وَجُوهُكُمْ ، وَسُوءُ الْوَجْهِ بِإِدْخَالِ الْعَمِّ وَالْحُزْنِ ، وهذا نتيجة فقدهم قوتهم وخسران تحالفاتهم ، ومنه قوله (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) (الملك 27) ، وذلك دليل على القهر والإهانة ، كما قال سبحانه (لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي كَانُوا يَعْتَدُونَ) (آل عمران/112)

الأمر الثاني : إقامة شعائر الإسلام في المسجد الأقصى

قوله (وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ..) يرى بعض العلماء أن دخول عباد الله المؤمنين إلى المسجد (الأقصى) منتصرين كما دخلوه أول مرة كان (في عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب)³، قال ابن عاشور (ولم تخرج أورشليم - القدس - من حكم الرومان إلا حين فتحتها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة 16 صلحا مع أهلها وهي تسمى يومئذ "أيلياء")⁴.

¹ رواه الترمذي ج6 ص 50 رقم 1476 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الترمذي ج4 ص 55 رقم 1555

² مقال للكاتب بعنوان سقوط الأفعنة ، ويتخذ منكم شهداء <https://www.alukah.net/culture/0/57405/>

³ نافي بن علي الشحود : موسوعة الراد على المذاهب الفكرية المعاصرة ج67 ص 292 ، تفسير الشعراوي ج1 ص 170 ، م. عبد الله بن علي صغير : الصراع الإسلامي الصهيوني بنو إسرائيل في القرآن الكريم ص 48

⁴ بعد أن عاد اليهود إلى أورشليم وجدوا ملكهم ومسجدهم في زمن " داربوس " وأطلق لهم التصرف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس فمكثوا على ذلك مائتي سنة من سنة 530 إلى سنة 330 قبل المسيح ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة 166 قبل المسيح إذ قام قائد من إسرائيل اسمه " ميثيا " وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولى الأمر عليهم وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن مليء بالفتن إلى سنة أربعين قبل المسيح . دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم " هيرودس " ثم تمردوا للخروج على الرومانيين فأرسل قيصر رومية القائد " سيبتيانوس " مع ابنه القائد " طيطوس " بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح فخربت أورشليم واحترق المسجد وأسر " طيطوس " نيفا وتسعين ألفا من اليهود وقتل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف ثم استعادوا المدينة وبقي منهم شريحة قليلة بها إلى أن وافاهم الإمبراطور الروماني " أدريانو " فهدمها وخرّبها ورمى قناطر الملح على أرضها كيلا تعود صالحة للزراعة وذلك سنة 135 للمسيح ، وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض وتفرقوا في الأرض (التحرير والتنوير ج1 ص2432)

جاء في سيرة ابن حبان (خرج عمر بن الخطاب وخلف عثمان بن عفان على المدينة فلما قدم الشام نزل بالجابية فقام فيها خطيباً لهم ثم أراد عمر الرجوع إلى الحجاز فقال له رجل من اليهود : يا أمير المؤمنين ! لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء ، فبينما عمر كذلك إذ نظر إلى كردوس خيل مقبل فلما دنوا من المسلمين سلوا السيوف فقال عمر : هم قوم يستأمنون فأمنوهم فأقبلوا وإذا هم أهل إيلياء فصالحوه على الجزية وفتحوها له وكتب إلى عمر كتاب عهد بذلك ، ورجم بالجابية امرأة أقرت على نفسها بالزنا ثم رجع إلى المدينة¹ ، وفي ذلك دليل على أنه أقام شرع الله قبل أن يعود إلى المدينة المنورة .

الأمر الثالث : هدم وثنية بني إسرائيل

قوله (وَلْيَتَذَكَّرُوا مَا عَلَّمُوا تَتْبِيرًا) أي ليتبروا عظمة بني إسرائيل وعلوهم في الأرض ، وفي هذه الآية قد تعلقت كلمة التتبير بما علوا- وفيها دلالة على أنّ التتبير يتعلق بما يعلون به ، فيتكسر مقامهم ويزول اعتلاؤهم وسعة عيشهم²، ومنه قوله (وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأُمْتَالَ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَتْبِيرًا) [الفرقان : 39] أي أوضاعناهم وكسرنا حدّهم وصولتهم وأهلكناهم- من عاد وثمود وأصحاب الرسّ ، ومنه قوله (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف : 139] أي إنّ ما فيه عبدة الأصنام من العقيدة والقول يتكسر ويزول وليس بحقّ.

وفي ذلك دلالة على وجوب هدم أصنام الشرك ومعالم الكفار التي هي مقر لعبادة الشيطان وتقديم القرابين له



محاولاتهم لبناء هيكل سليمان المزعوم



محاولات جماعات الهيكل ذبح القرابين داخل القدس

وهذا هو أول ما فعله النبي ﷺ حين دخل مكة حيث هدم الأصنام التي حول الكعبة ، فعن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها "العزى"-صنم يعبد المشركون- فأثامها خالد وكانت على ثلاث سمرة ، فقطع السمرة وهدم البيت الذي كان عليها ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال "ارجع فإنك لم تصنع شيئاً" فرجع خالد فلما أبصرت به "السدنة" وهم حجبته -خدام الصنم- أمعنوا في الجبل -هربوا- وهم يقولون يا

وهكذا كان عام 135م نهاية للوجود اليهودي في أرض بيت المقدس. وانتهت علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً أي أنه كان الخروج الأخير. وبقيت محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامي أي خمسة قرون، إلا ما مُنحته أجيال اليهود من القدوم إلى آثارهم كي يقوموا بالبكاء والنواح على مجدهم الزائل عند حائط البراق (المبكى).

(1) السيرة لابن حبان ج1 ص 452

(2) الشيخ حسن المصطفى : التحقيق في كلمات القرآن الكريم ج1 ص 405-407 ، المرجع الالكتروني للمعلوماتية : <https://mail.almerja.net/more.php?idm=34775>

عزى ، فأثاها خالد فإذا هي امرأة عريانة ناشرة شعرها تحتفن التراب على رأسها -ظهر له الجني المختبئ في الصنم على هذه الصورة -فعممها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال تلك العزى¹ .



قال العلماء في الشرح (المقصود : أن العزى اسم لشجرة كانت في ذلك الموضع ، وكان تعلق الناس في الحقيقة بتلك الشجرة ، وبالمراة التي كانت تخدم ذلك الشرك ، فلو قطعت الأشجار وبقيت المراة ، فإن المراة ستغري الناس مرة أخرى بما ستذكره لهم ، أو ما تحكيه لهم ، أو ما تجيب به مطالبهم عن طريق الجن ، فلا يكون الشرك قد انقطع ؛ ولهذا قال النبي ﷺ « تلك العزى » يعني : أن حقيقة العزى هي تلك المراة التي تغري الناس بذلك الشرك ، وإلا فهي شجرة)².

يقول الشيخ محمد عبد الكريم (كان المسجد الأقصى معبداً وثنياً أسموه (جوييتار)، وذلك حين اعتنق الرومان النصرانية المخرقة في عهد الامبراطور (قسطنطين) فهُدم المعبد الوثني وبقي مكان المسجد خالياً من بناء مقام فيه بقية عهد الرومان النصراني ، وامتهن النصراني المسجد الأقصى واتخذوا مكانه كنيسة: فلم يكن للرومان النصراني اهتمام بالمسجد الأقصى، بل اتخذوا مكانه مزبلة، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة، وهو المكان الذي صُلب فيه شبيه المسيح ابن مريم، فظننت اليهود والنصارى أنه المسيح عليه السلام (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) ، فاتخذ اليهود مكان الصليب قمامة حتى إذا ظهر نصراني الرومان اتخذوه كنيسة هائلة بنتها أم الملك قسطنطين، واتخذوا مكان قبلة اليهود مزبلة، فلما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بيت المقدس، وتحقق موضع الصخرة، أمر بإزالة ما عليها من الكنيسة حتى قيل إنه كنسها بردائه)³.

¹ رواه النسائي ج 6 ص 474 رقم 11547

² صالح بن عبد العزيز آل شيخ : التمهيد لشرح كتاب التوحيد ص 171

³ (المسجد الأقصى.. وفقات وعبرات الشيخ محمد عبد الكريم*تقديم فضيلة الشيخ الدكتور عبد الحي يوسف- موسوعة البحوث والمقالات العلمية ص8

قوله (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ... (8) لفظ (عسي) يؤكد على أن إرادة الله الشرعية هي وقوع الرحمة بكلا الفريقين ، لأن يهتديا للإسلام ، يقول سبحانه (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) ، وفي ذلك كذلك تأكيد على أن الصراع بين المسلمين واليهود قائم على محض إرادة الطرفين ، وليس هو محض إجبار قدري ، ولا شك أن الله يعلم ذلك ، وأن قدره الكوني يعني أنه عليم بما سيحصل ، لكن الطرفين لهما مطلق الحرية في أن يحسنا أو يسيئا .

قوله (..وَإِنْ عُذْتُمْ عُذْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) فمن أحسن جزى بالإحسان إحسانا ، ومن أساء عادت الكرة عليه مرة أخرى وسلط الله عليه من يسيء وجهه ، أي (وإن عدتم إلي المعصية عدنا إلى العقوبة)¹ بمعنى (وإن عدتم إلى الإساءة عاد الله لتسليط عباده المؤمنين عليهم مرة أخرى ، هذا في الدنيا ثم تكون جهنم عاقبتهم في الآخرة لتحصرهم حصرا ، لتكون هلاكهم جميعا) ، وفي ذلك دليل على رهبتهم من المسلمين ، وأنهم يكونوا على هذا الحال من الترقب والخوف ، متى ظلت الخيانة متجذرة فيهم .

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهَا لَيْلًا وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَوْمًا بَلِيلٍ لَا يُغَيِّرُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ يَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ - يعني الجيش - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبتُ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ (فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)² ، (فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَتَلَ الْمُقَاتِلَةَ وَسَيَّى الدَّرَارِي)³ .

والارتباط بين العودة للخيانة والعودة للعقوبة دليل على أن العقوبة في الإسلام لا تتجاوز المماثلة ، كما في قوله سبحانه (وَالْحُرْمَاتُ فِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة/194) ، وقوله (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (النحل/126)

1 (مجبر الدين الحنبلي العلمي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ص 169

2 (رواه البخاري ج10 ص 96 رقم 2726

3 (رواه البخاري ج4 ص 1 رقم 895

المحور الأول

القرآن يهدي إلى الأقوم

قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُتَا آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا (13) أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْالَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا (21)

يتحدث هذا المقطع من السورة عن القرآن الكريم وكيف أنه الطريق للآخرة ، وفي المقابل تحدث عن حياة الترف عند بعض الناس ، وكيف أفسد هذا الترف معاشهم وكان سببا لهلاكهم ، وذلك عندما يستعجل الإنسان نصيبه من الدنيا ، فيصبح هذا الاستعجال شرا له ، لأن كل أمر قدره الله له سوف يناله دون حاجة للعجلة مثلما قدر الله له الليل والنهار بنظام محكم ودقيق ، كذلك الإنسان يعيش في ظري الليل والنهار حتى ينقضيان ، يتعاقبان عليه ، ولا يملك أن يطيل ليله أو يقصر نهاره ، ولا العكس ، فهو يعيش في ظروف كونية خلقها الله ، ولا يستطيع الفكك من ذلك كما لا يستطيع الأسير أن يفك طوق عنقه ، فعليه ألا يشغل نفسه بهم الدنيا ، وعليه أن يسعى لعمل الآخرة ، لأنه محاسب على عمله ، بل سوف يدين نفسه حين يقرأ كتاب عمله .

فبالقرآن الذي هو رسالة الله للمكلفين، وبالرسول الذي هو المنهج التطبيقي للقرآن، تكتمل حجة الله على البشر ، ولا عذر لأحد ، وهنا يحق الله الحق فيهدم القرى الفاسقة ، وقيم القيامة ليحاسب كل واحد بما عمل.

فإذا قامت الحجة ، فعلام لا يبتغي المكلفون طريقا واحد لله تعالى ، فيقصرون همهم على هم واحد ألا وهو هم الآخرة ، وعندئذ يكفيهم الله هم الدنيا بما فيها ، فالدنيا هينة يسيرة يعطيها الله لمن أحب ومن لا يحب ، بينما الآخرة هي التي يجب أن يسعى إليها المؤمن سعيا حثيثا حتى ينال الدرجات العلى ، فمقياس المفاضلة بين البشر ليس منحصر أبدا في درجات الدنيا ، بل الآخرة هي أكبر درجات وأكبر تفضيلا .

المسألة الأولى : القرآن يقوم الحياة بوجه عام

قوله (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...) (9) فعن قتادة في هذه الآية قال (إن القرآن يدلکم على دائمكم ودوائکم ، فأما دوائکم فالذنوب والخطايا ، وأما دوائکم فالاستغفار) ¹.

قال ابن عاشور والمعنى: (أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: (وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) [الإسراء:2] ، ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم ، لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل ، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً أو تحذيراً ، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنائه ، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة) ².

قال الشنقيطي (وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها) ³.

قال ابن تيمية (أَحْسَنَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كِتَابَهُ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) فَأَقْوَمُ الطَّرِيقُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَطَالِبِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ) ⁴.

ولفظ (أقوم) فيه شيء من الإبهام ، وفي ذلك غرض بلاغي بديع ، فالإبهام في القرآن لا يستعمل إلا لضرب من المبالغة ولتفخيم أمر المبهم وإعظامه لأنه هو الذي يطرق السمع أولاً فيذهب بالسامع كل مذهب ، فقوله أقوم (أي للطريقة أو الحالة أو الملة .. الخ) ⁵.

قال الرافعي (وحسبه معجزة ما تقول فيه من صفة الجنسية العربية التي جعل الأمم أحجاراً في بنائها ، والدهر على تقادمه كأنه أحد أبنائها، وأقام منها معضلة سياسية ، في الأرض وضعها ونقدها، وفي السماء حلها وعقدتها، وشد بها المسلمين فهم إذا ائتلفوا انضموا كالبنیان المرصوص، وإذا تفرقوا سطعوا في تيجان الممالك كالفصوص، وما إن يزالوا في التاريخ مرة أصوله، ومرة فصوله، وإن لم يقوموا أحياناً بالدين، قام بهم هذا الدين إلى حين، وكيف وقد جمعهم الكتاب الذي أنزل من السماء فكان مثال آدابها، وانتشر في الأرض فكان خلعة شبابها، ودعا إليه الناس على اختلافهم فكانما كل أمة تدعى إلى كتابها) ⁶.

فالرافعي في هذه الفقرة يريد أن يبين لنا أثر القرآن الكريم العظيم في إيجاد "الجنسية العربية" التي وحدت المسلمين وجعلت منهم أمة متماسكة كالبنیان، وخلدت ذكرهم في التاريخ ، فالقرآن جمع القرآن الكريم المسلمين برابطة روحية قوية؛ فإذا اتحدوا صاروا كالبنیان المرصوص، وإذا تفرقوا ظلوا عناصر بارزة ومهمة في الأمم كفصوص اللؤلؤ المتفرقة

(1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 145

(2) التحرير والتنوير ج14 ص 33

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 17

(4) مجموع الفتاوى ج9 ص 153

(5) أبو الفتح ضياء الدين نصر الله الموصلی المعروف بابن الأثير / المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج2 ص 26

(6) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ الأدب العربي ص 160

في التيجان ، كما القرآن هو مصدر الآداب والسمو الذي جذب مختلف الأمم إليه ، فلا بقاء للأمم إلا بالدين ، والعزة والعلا مرتبطان بهذا الدين ، فإن قصر المسلمون في التمسك به قام الدعوة لهذا الدين بواجبها في إحيائهم وإبقائهم وأعدت ارتباطهم به .

قال السعدي (على الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة . كانوا يعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم ، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه رضي الله عنهم ، فكانوا إذا قرأوا عشر آيات أو أقل أو أكثر لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويبطقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوفائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بما أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيجتهدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه)¹ .

قوله (...وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (9) أي مما يدل على تفضيل القرآن في القوامه للهداية عن سائر الكتب تبشيره المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة ، فهي أكبر أجر ينتظرونه من الله ، فالذي يهتدي بهدي القرآن همه واحد لا يتغي سواه ، يرجو من كل أعماله الصالحة الأجر والثوبة من الله ، وخير أجر له في الدنيا أن يبشر برضوان الله .

فما من عمل صالح إلا ودل عليه القرآن ، وبشر بفضله ، كما في قوله تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يُخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَزِدُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (النور/38) ، ودلت السنة كذلك على أجر الأعمال الصالحة ، كما في قوله ﷺ (مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ)² .

قوله (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (10) فمن مظاهر هداية القرآن أنه ينذر بالآخرة ، ينذر بعذابها حتى يستعد الناس لذلك ، يقول رسول الله ﷺ (يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)³ .

المسألة الثانية : القرآن يقوم حياة المسلم معنويا بالرضا بالقدر وعدم العجلة

¹ القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 3 مع إعادة ترتيب الكلام

² رواه البخاري ج3 ص 54 رقم 622

³ رواه البخاري ج4 ص 159 رقم 986

قوله (وَيَذُغُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (11) فمن مظاهر هداية القرآن أنه يُعَلِّم الإنسان الرضا بالقضاء والقدر ، فعلى المكلف ألا يتعجل الخير ، فالعجلة من الشيطان ، وبسبب العجلة قد لا يرى الصواب أحيانا ، فيظن أن في حرمان الله له شر ، ولكنه خير وهو لا يعلم ، لأنه عجول .

ففي حكم ابن عطاء الله السكندري “ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك” ، أي ربنا تكون العطية سبب وبال عليك ، وربنا يكون المنع من العطية سبب خير لك ، يقول ابن عطاء الله “متى فتح لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء ، أي (إذا أتاك اليقين وعرفت حكمة الله ولطفه، فلن تحزن على ما فاتك ولن تغتر بما أُعطيت ، ستدرك أن اختيار الله لك في الحالتين هو الأفضل، ليتحرر قلبك من القلق وتمازج الطمأنينة والرضا ، وقال (متى أطاعك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرّف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك” أفلا يكفيك فخراً أنّ ربك لم يعاملك بذنوبك وعاملك بفضله فمنعك لتصحو من سكرة الغفلة وهزك لتعود إليه ولتعرفه في الشدة كما في الرخاء؟! أولا يكفيك أنه لم يتركك عابثاً دون اشارات منه تدعوك للإياب؟!¹

قال بعض السلف: يا بن آدم، نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تُحب، قال تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216)، وقال آخر: ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك.

قال ابن القيم (لا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطى لما منع، ولا يمنع عبده حقاً هو للعبد، فيكون بمنعه ظالماً له، بل إنما منعه ليتوسّل إليه بمحبته ليعبده، وليتضرّع إليه، ويتذلّل بين يديه، ويتملّقه، ويُعطى فقره إليه حقّه، بحيث يشهد في كل ذرّة من ذرّاته الباطنة والظاهرة فاقة تامةً إليه على تعائب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، وإن لم يشهده العبد فلم يمنع الرب عبده ما العبد محتاج إليه بخلاً منه، ولا نقصاً من خزائنه، ولا استثنائاً عليه بما هو حقٌّ للعبد، بل منعه ليردّه إليه، وليعزّه بالتدليل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبرّه بالانكسار بين يديه، وليديقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذّة الفقر إليه، وليلبسه خلعة العبودية، ويولّيه بعز له أشرف الولايات، وليشّهدّه حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبرّه ولطفه في قهره، وأنّ منعه عطاءً، وعزله تولية، وعقوبته تأديب، وامتحنانه محبةً وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه به إليه)².

وهناك معنى آخر للدعاء بالشر قال ابن جزري المعنى ذم وعتاب لما يفعله الناس عند الغضب ، وذلك مثل الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ففي الحديث لعن رجل بعيره فقال رسول الله ﷺ مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرُهُ قَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ انْزِلْ عَنْهُ فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تُؤَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ)³.

وأحيانا يحصل ذلك منهم حين الابتلاء بمصيبة فيدعو الإنسان على نفسه جهلا ، ولذلك حذر النبي ﷺ من الدعاء على النفس عند وفاة محبوب ، فعن أم سلمة قالت دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقّ بصره فأغمضه

¹ (صيد الفوائد : المنع عين العطاء : سحر المصري ، <http://www.saaaid.net/daeyat/sahar/99.htm>)

² (زاد المعاد في هدي خير العباد ج2 ص 360)

³ (رواه مسلم ج14 ص 295 رقم 5328)

ثُمَّ قَالَ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُضِيَ تَبَعُهُ الْبَصَرُ ، فَضَحَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فَقَالَ ﷺ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَيِّ سَلَمَةٍ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُقْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْعَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ¹.

وفي قوله (..وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (11) قال الشيخ الجزائري أي (كثير العجلة يستعجل في الأمور كلها هذا طبعه ما لم يتأدب بآداب القرآن ويتخلق بأخلاقه فإن هو استقام على منهج القرآن تبدل طبعه وأصبح ذا تورة وحلم وصبر وأناة)².

يقول الشعراوي (قد يتعلق قلب الإنسان بأمانٍ تضربه؛ فلا تتعجل بالدعاء طلباً لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق عليم بحالها ويدبر أمرنا ، وإياك أن تيابس حين لا تحاب دعوتك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده وفي الوقت الذي يختاره لك ويناسبك)³.

فعلى سبيل المثال " نبي الله أيوب حينما بَثَّ شكواه إلى ربه، لم يكن شاكياً سخطاً، بل كان مستشفياً متضرعاً؛ فجاءت مناجاته بـ (أَيُّ مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فترجمت عباراته ما فيه من لوعة الألم ، بأبلغ كلمات الرجاء والدعاء بالشفاء ، فجاءه الفرج (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ) (الأنبياء/83-84) .

فلو علم هذا النبي ما أعطاه الله من أجر في الآخرة علي ما صبر من بلاء حتى شفاه الله تعالى ، فلعله حين يعلم ذلك الأجر لتمنى أن يطول مرضه ، ولكنه عالج الأمر بالدعاء ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرْصَتٍ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِضِ⁴، وقس على ذلك سائر الأمور ، وعلى ذلك يمكن القول بأن عجلة الإنسان لم يستثن منها أحد .

قوله (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُهَا آيَةُ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَبَتَّعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) (12) الليل والنهار كناية عن دوران الزمان ،ومرور الأيام والسنين حتى يأتي الأجل ، وكناية عن قضاء الله النافذ خلال عمر الإنسان ، فقد ضرب الله مثلا بالليل والنهار ليفهم المكلف أن قضاء الله وقدره بحكمة ، ومهما بلغ الإنسان من العلم فإنه لن يدرك الحكمة الكاملة ، وإن ظل طويلا يتأمل آيتي الليل والنهار ، فإن جاز أن يدرك طرفا منها ، وشيئا من حكمتها التي تتمثل في جعل الليل سكنا والنهار معاشا ، بالسعي لطلب الرزق ، وقد أدرك بعلمه أن الله جعل تعاقب الليل والنهار آلة لحساب الأيام والشهور والسنوات ، فإن كل ذلك طرفا يسيرا من حكمة الله في خلق الليل والنهار .

قال ابن عاشور (الأجل محدود في علم الله تعالى لا يحدوه، فلا يقربه استعجال ولا يؤخره استبطاء لأن الله قد جعل لكل شيء قدرا لا إهمام فيه ولا شك عنده)⁵، لكن الإنسان عجول ، فبالرغم من أنه يتفكر في هذه الآية

¹ (رواه مسلم ج4 ص 480 رقم 1528

(أيسر التفاسير لأبو بكر الجزائري ج2 ص 336

³ (تفسير الشعراوي ج1 ص 2905

⁴ (رواه الترمذي ج8 ص 422 رقم 2326 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 402

⁵ (التحرير والتنوير ج14 ص 37

لكنه عندما يطول عليه النهار قد يتمنى أن يقصر ، وعندما يقصر عليه النهار قد يتمنى أن يطول ، فهو لا يعلم ما هو الأقوم له ، فقد يدعو الله بشيء فيجد ضده ، والمطلوب الشرعي منه أن يكمل الأمر كله لله تعالى ، فهو خالق كل شيء وكل شيء فصله الله تفصيلاً وقدره تقديراً .

قال أبو حفص (ما يحتاج إليه من شرح دلائل التوحيد ، والتبوة ، والمعاد ، فقد صار مذكوراً وأن كل ما يحتاج إليه من شرح أحوال الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فقد صار مذكوراً ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد أزيلت الأعذار ، وأزيلت العلل ، فلا جرم : كل من ورد عرصة القيامة ، ألزمناه طائره في عنقه)¹

قوله (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) (13) طائره أي قدره ، فهو ملازمه كعنقه أي أن عمله سوف يطابق قدره لا يختلف عنه ، قال ابن عباس أي : "سعادته وشقاوته ، وما قدره الله له وعليه ، فهو لازمه أينما كان"² ، فالمعنى أن كل إنسان مرتبط عمله بقدره ، فهو كالطوق في عنقه لا يملك منه خلاصاً ولا فكاً ، يلازمه حتى الجزاء ، يقول أبو الفضائل أي (عمله وما قدر عليه من الخير والشر يلازمه ولا يفارقه)³



فعن جابر بن عبد الله أن نبي الله ﷺ قال "لا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ"⁴ ، قال أهل المعاني (أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله وهو صائر إليه من سعادة أو شقاوة وخص العنق لأنه موضع القلادة والأطواق قلت وهو كناية عن الذمة فكأن هذه الأشياء في ذمته أن يفعلها ولا يقدر أن ينفك عنها)⁵ قال الألوسي «ألزمناه طائره» أي عمله الصادر منه باختياره حسبما قدر له خيراً كان أو شراً ، كأنه طار إليه من عش الغيب ووكر القدر)⁶ ، فهذا تشبيه بليغ بأن القدر محيط بالإنسان من جميع جوانبه مثل طوق العبودية يقيد العبد فلا يستطيع أن يتحرر منه ، فالإنسان عبد لله ، والله سبحانه هو الذي يقدر له عمله والظروف التي يعيش فيها ، ليستسلم العبد لقضاء الله وقدره دون اعتراض .

فعن أبي بن كعب قال (وَلَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ أُخْدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ)⁷ ، بهذا تستبين عقيدة القضاء والقدر ، فلس للناس إلا ما كتب لهم أو عليهم .

يقول ابن جرير (يقول تعالى ذكره: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه ، وإنما قوله (ألزمناه طائره) مثل لما كانت العرب تتفاهل به أو تتشائم من سوانح الطير

¹ (اللباب في علوم الكتاب ج 10 ص 250)

² (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 146)

³ (أحمد بن محمد الرازي : حجج القرآن ج 1 ص 26)

⁴ (رواه الطبري في تفسيره ج 17 ص 397 ، وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج 4 ص 304 رقم 1907 وهو عند أحمد والبيهقي وابن أبي شيبة وغيرهم)

⁵ (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج 1 ص 352)

⁶ (تفسير الألوسي : ج 10 - ص 391 روح المعاني ج 15 ص 31)

⁷ (رواه أبو داود ج 12 ص 308 رقم 4077 وصححه الألباني صحيح ابن ماجه ج 1 ص 19 رقم 62)

وبوارحها، فأعلمهم جلّ ثناؤه أن كلّ إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه نحسا كان ذلك الذي ألزمه من الطائر، وشقاء يورده سعيرا أو كان سعدا يورده جنات عدن)¹.

فالمعنى المراد سوقه أنه إذا أراد الإنسان أن يتكهن بمستقبله فعليه أن يحسن الظن بالله ، فعن أبي هريرة قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُحِبُّ الْفَأَالَ الْحَسَنَ وَيَكْرَهُ الطَّيْرَةَ)² ، وعن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَالَ اللَّهُ (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)³، وعن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَالَ اللَّهُ (إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ وَإِذَا كَرِهَ لِقَائِي كَرِهْتُ لِقَاءَهُ)⁴.

قوله (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) (14) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عَمَلِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)⁵، ففي الأثر (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُّوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخْفُ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا)⁶، وقيل (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل)⁷.

وقوله (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) بليغ في الدلالة على أن الله لا يظلم أحدا ، ففي الأثر (لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم)⁸

وفيه أن العبد يحكم على نفسه يوم القيامة بما يستحق قبل أن يحكم الله عليه ، قال ابن الجوزي (ما أعدل الملك الوهاب إذ جعل الإنسان حسيب نفسه في قراءة الكتاب)⁹.

قوله (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) (15) هذه الآية توضح أن المسؤولية فردية ، وليست جماعية ، فبني إسرائيل لم يضلوا لأنهم ينتمون إلى تلك الطائفة ، وإنما لأنهم ضلوا كأفراد ، دون أن يحمل أحدهم وزر أخيه أو أبيه .

قال ابن عاشور (هذه الجملة بيان أو بدل اشتغال من جملة (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) مع توابعها ، وفيه تبين اختلاف الطائر بين نافع وضار ، فطائر الهداية نفع لصاحبه وطائر الضلال ضر لصاحبه ، وجملة (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) واقعة موقع التعليق لمضمون جملة (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)¹⁰.

¹ (تفسير الطبري ج 17 ص 397

² (رواد أحمد ج 14 ص 122 رقم 8393

³ (رواد البخاري ج 23 ص 24 رقم 6951

⁴ (رواد البخاري ج 23 ص 23 رقم 6950

⁵ (رواد الترمذي ج 8 ص 443 رقم 2341 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج 5 ص 417 رقم 2417

⁶ (مسند الصحابة في الكتب التسعة ج 46 ص 176 ، سنن الترمذي ج 8 ص 499

⁷ (رواد الحاكم ج 4 ص 280 رقم 7639

⁸ (رواد أبو داود مرفوعا ج 12 ص 308 رقم 4077 وصححه الألباني : صحيح سنن أبي داود ج 10 ص 199 رقم 4699

⁹ (بستان الواعظين ورياض السامعين ج 1 ص 97

¹⁰ (التحرير والتنوير ج 14 ص 41

وفي ذلك إيماءة إلى أن بني إسرائيل لا يحملون أوزار آباءهم ، ومن هذا المنطلق يجب أن ينتبهوا إلى أنفسهم ، ليحملوها على الإيمان دون تقليد لما بدر من آبائهم من كفر ، فكل امرئ منهم حسيب نفسه ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

قوله (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا) (15) هذه الآية حجة على من زعموا أن الإنسان مجبول على المعصية ، ومؤدى قولهم هذا أن العذاب غير مستحق على المجرم ، ولكن الله تعالى نفى -هنا- أنه لا يعذب عباده إلا بعد أن يرسل لهم رسولا يبلغهم رسالة ربه وينذرهم عذابه ، فإن هم أطاعوه فقد نجوا ، وإن عصوه فقد حق عليهم العذاب عدلا .

وكذلك قال الله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة : 286] ، قال العلماء هاتان الآيتان تدلان على أن حصول التكليف يكون بالقدرة والعلم معاً ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فمن استقرأ ما جاء به الكتاب والسنة تبين له أن التكليف مشروط بالقدرة على العلم والعمل ، فمن كان عاجزاً عن أحدهما سقط عنه ما يعجزه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها)¹ .

المسألة الثالثة : القرآن يقوم الحياة المادية للإنسان

قوله (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَسُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا كَمَا نَدْمِيرُ) (16) بينت هذه الآية سبب هلاك الأمم ، وأنها تهلك بسبب ترف أمرائها ، حيث يؤدي ترفهم في العيش - دون أن ينكر عليهم أحد - إلى الفسق ولا بد ، وليس المقصود بالترف - في هذا السياق - الذي به يشكر صاحب النعمة ربه ، كما شكر نبي الله سليمان نعمة ربه لما سخر له الجن ، فاستخدمه للعمل العام ، والخدمة العامة ، ولم يستخدمهم لخدمته الشخصية ومنفعته الذاتية ، وإنما المقصود أن يكون الترف مبتغى المرء وهدفه ويسعى لأجل تحقيقه ، فالمشروع هو القصد والاعتدال ، لا الترف ولا التقتير ، فقد وصف القرآن عباد الرحمن (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان) .

فالإسلام يحض على الاعتدال ، أي التوسط بين الترف الذي يكاد يقترب من معنى السرف ، والتقتير الذي هو البخل والشح أو منع الحقوق لأهلها حتى حق نفسه ، فيكلف العبد أن يأخذ قسطه من النوم كما يأمره بالاستيقاظ من نومه لصلاة الفجر ويحثه على قيام الليل ، ويأمره بالصوم ، كما يأمره بالأكل والإفطار ، ويأمره بالعفة ويندبه للزواج ويحبب له زوجته ،.. وهكذا دون مجاوزة إلى حد الإسراف في أي مما تقدم .

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن (الشراء لا يستلزم الترف دائما ولا غالبا ، فالذين جمعوا ثرواتهم بجدهم وكدهم وعرق جبينهم فإنهم لا يعرفون الترف الرخو ولا يطبقونه ولا يعتمدون على غيرهم في تسيير أعمالهم بل يباشرون

العمل بأنفسهم ويجدون في ذلك سعادتهم ، **فهؤلاء منتجون مصلحون** لأن العمل قيمة مضافة مهما كسب كصاحبه من ثروة بالطرق الشريفة)¹

ولذلك تجد الذين يمارسون الرياضة ويرعون فيها لديهم طاقات عظيمة لفعل أمور أخرى غير الرياضة ، وبفضلها يصلحون حياتهم وحياة غيرهم ولا يجدون غضاظة في بذل مجهود زائد من المشي لأجل مصالح الناس أو رفع محتويات البيت أو توصيل أولادهم للمدرسة بأنفسهم ويجدون لذة في ذلك الخ .

كذلك الذين يعرقون في العمل ، ويستشعرون لذة ذلك ، فإنهم لا يتوقفون عن العمل حتى لو كسبوا مالا كثيرا ، فقد تعودوا على العمل وأحسوا بحلاوة الحركة ، فليس المال هو الدافع لحركتهم وحسب... وهكذا نفهم التفرقة بين الثراء والترف .

أما المترف فهو الذي لديه طاقات وقدرات عظيمة لكنه لا يبذل شيئا من طاقته ، ويدخر قدرته بلا فائدة ، ولذلك حذرنا النبي ﷺ من الترف ، وقد أكد القرآن على أنه سبب لهلاك الأمة فقال ﷺ «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»²

وقد أشار ابن خلدون لهذا المعنى ، بأن المترفين يسرفون في نفقاتهم ويندفعون مع شهواتهم ويرفعون عن مباشرة أعمالهم فيعتمدون على غيرهم ، فتفسد أخلاقهم فرداً فرداً وتمتد أيديهم إلى المال الحرام بكل الوسائل المتاحة لاشباع ترفهم ونهمهم إلى الشهوات التي تعودوا عليه ، ويزيد الطين بلة أنهم يستخدمون قطاعا كبيرا من الشعب لخدمتهم ، فتفسد هم كذلك أخلاقهم لإشرافهم على أعمالهم فيفسدون في انفسهم وأولادهم ، فقال مينا سبب غلاء الأسعار (كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم، وإلى استعمال الصناعات في مهنتهم، فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف، وتغلو أعمالهم، وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك)³.

وقال في مقدمته (الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل ، فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه ، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ، ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول، منطرحين في الغمار، منتحلين للحرف الدنية في معاشهم بما فسد من أخلاقهم ، وما تلونوا به من صبغة الشر والفسفسفة ، وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى: " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً " ووجهه أن مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم، لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص، واحداً واحداً، اختل نظام المدينة وخربت)⁴

1 (عبد الله الجعثن : الترف يختلف عن الثراء – مجلة العربية و مجلة الرياض : /2016/05/13/ <https://www.alarabiya.net/aswaq>

2 رواه مسلم 2274/4

3 مقدمة ابن خلدون ج 1 ص 204

4 مقدمة ابن خلدون ج 1 ص 209

ولأجل ما تقدم ، ولأن دوام الحال من المحال ، فقد حث الإسلام على التقشف باعتباره من صفات كمال الإيمان ، يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ) قَالَ (الْبَذَاذَةُ الْقَشَافَةُ يَغْنِي التَّقَشُّفُ)¹ ، فمن الحكم المعروفة (اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم) ، والمعنى المقصود طلب التعود على الخشن من الحياة والبعد عن الترف ، وذلك حتى إذا أصاب الإنسان يوما فاقة تحمل ذلك ولم يكن ضعفه سببا في عدم الرضا عن القضاء والقدر ، فيكون الصبر أسهل عليه في البلاء والمرض والفقر... الخ ، من هنا نفهم أن التقشف هو عادة الصالحين استعدادا للبلاء القادم عليهم بقدر إيمانهم ، حيث يتلى المرء على قدر دينه ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ أُودِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَا لِي وَلِلَّائِلِ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ دُو كَبِدٍ إِلَّا مَا وَارَى إِبْطُ بِلَالٍ)².

والصحابية رضوان الله عليهم فهموا البشرى في التقشف وذم الترف ، فعن عبد الله بن عمرو قال : بينا أنا قاعد في المسجد وحلقة من فقراء المهاجرين فعود إذ دخل النبي ﷺ فقعد إليهم فقامت إليهم فقال النبي ﷺ لهم ليبشر فقراء المهاجرين بما يسر وجوههم فإنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاما قال فلقد رأيت ألوانهم أسفرت قال عبد الله بن عمرو حتى تمتيت ان أكون معهم أو منهم)³ ، وفي رواية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ اشْتَكَيْ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ أَغْنِيَاءَهُمْ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَلَا أُبَشِّرُكُمْ أَنَّ فَقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ ثُمَّ تَلَا مُوسَى هَذِهِ آيَةُ (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)⁴

بذلك حض الإسلام المؤمن على أن يتخفف من الدنيا ، وليعطي غيره منها قبل أن يزداد بها عن فضل حاجته ، فيتأخر حسابه لأجل ذلك ، فإن كل ما زاد عن فضل حاجته هو من الترف ، وقد روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ تَرَكَ اللَّيَّاسَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيْ حُلِّي الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا)⁵ .

من ذلك نفهم منهج الإسلام وهو يحدد للمسلم طريقته في الاقتنيات من الدنيا ، ليكون ذلك بقدر حاجته دون تباهي أو تعالي على الناس ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ (لَا يُصِيبُ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيمًا)⁶ .

فإذا كان ذلك كذلك وقد علمنا أن ما يفتح الله تعالى به على العبد من الدنيا يؤثر بلا شك في نصيبه من الآخرة علمنا من أين يأتي التشاؤم ؟ وأين مكنم الحذر ؟ ولماذا سمى الله تعالى الأزواج أعداء في القرآن ، فقال إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، يقول النبي ﷺ (لَا عَدُوَّ وَلَا طِيْرَةَ إِلَّا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ فِي الْفَرَسِ وَالْمَرْأَةِ وَالْدَّارِ)⁷ ، لأن هذه الثلاثة من متاع الدنيا وأشد مطالبها ، وأقواها أسرا للقلب ، وحبها يؤثر بلا شك على عمل الآخرة ، ولذلك قال الله لا تنس نصيبك من الدنيا ، أي أن هذه الثلاثة لا بد وألا تكون مبتغى العبد وغايته وإنما

¹ (رواه ابن ماجه ج 12 ص 143 رقم 4108، وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 2 ص 395 رقم 3324

² (رواه ابن ماجه ج 1 ص 174 رقم 148 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 1 ص 30 رقم 123

³ (رواه الدارمي في سننه ج 2 ص 437 رقم 2844 و"النسائي" في "الكبرى" 5846 و"ابن حبان" 677

⁴ (رواه ابن ماجه ج 12 ص 151 رقم 4114 وصححه الألباني : صحيح الجامع الصغير ج 1 ص 1394 رقم 13936

⁵ (رواه الترمذي ج 9 ص 21 رقم 2405 / صححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج 5 ص 481 رقم 2481

⁶ مصنف ابن أبي شيبة ج 13 ص 323

⁷ (رواه البخاري ج 18 ص 68 رقم 5329

يكفي أن تكون بقدر حاجته للعيش دون إهمال العبادة التي هي الغاية التي خلق من أجلها ، ولذلك روي عن إبراهيم النخعي قَالَ الْبِنَاءُ كُلُّهُ وَبَالَ قُلْتُ أَرَأَيْتَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ قَالَ لَا أَجْرَ وَلَا وَزَرَ.

ولذلك أمرنا النبي ﷺ بأن نأكل دون حد الشبع ، فقال مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لَقِيمَاتٌ يَقْمَنُ صَلْبُهُ فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَكُلْتُ لِلطَّعَامِ وَكُلْتُ لِلشَّرَابِ وَكُلْتُ لِلنَّفْسِ¹ ، وما شبع النبي ﷺ يوم إلا وتلاه اليوم الآخر دون أن يشبع ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزٍ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ² ، ذلك أن حد الشبع يعني الاقتراب من الترف ، وهذا يعني أن المسلم لا ينظر لحال غيره من الجائعين ، ولو أنه نظر لحالهم لحمله إيمانه على أن يشبعهم قبل أن يشبع نفسه ، لقول النبي ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ولذلك ذم النبي ﷺ الشبع فعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ بَحْشًا رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْلُوهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ³.

ولكي نفهم حد الترف الذي ذمه القرآن لابد وأن نستقرئ حياة النبي ﷺ وأصحابه ، وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (إِنْ كُنَّا يُتَوَلَّى مُحَمَّدٌ نَمَكْتُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْفِدُ بِنَارٍ إِنْ هُوَ إِلَّا الْمَاءُ وَالتَّمْرُ)⁴ ، وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (كَانَ وَسَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي يَتَكَبَّرُ عَلَيْهَا مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لَيْفٌ)⁵ ، ولعل ذلك لأنه شغل بالدعوة عن الكسب والعمل ، وشغل بالإنفاق عن الادخار والاكتمار ، وشغل بالطاعة وقيام الليل عن السعي وراء سعة من الرزق ، فاكتمى بالكفاف ، ولذلك يقول النبي ﷺ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ)⁶ ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ "ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" قَالَ الزُّبَيْرُ وَأَيُّ نَعِيمٍ تُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُوَ الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ قَالَ أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ⁷.

وقد ورد في بعض كتب الآثار⁸ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى في يد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما درهما ، فلما علم أنه يريد شراء لحم لأهله لأنهم اشتبهوه ، ترك لمن يأتي بعده قولته البليغة : أَكَلِمَا اشْتَهَيْتُمْ اشْتَرَيْتُمْ ؟ ما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لابن عمه وجاره ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : " أَذْهَبْتُمْ طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا " ⁹ (الأحقاف/ 19) ¹⁰

قال الشيخ سليمان العمري (هذه الحادثة تحيل على ما هو أعمق من مجرد الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك ، إذ هي في حقيقتها استحضار للبعد الإنساني في الإنفاق حتى لو تعلق الأمر بقطعة لحم ! وموقف عمر رضي الله عنه إنما هو امتداد للهدى النبوي الشريف في تحييه عن السرف ومجاوزة الحد في التمتع .

¹ (رواه ابن ماجه ج 10 ص 105 رقم 3340 وصححه الألباني ج 10 ص 105 رقم 3340)

² متفق عليه

³ (رواه الترمذي ج 9 ص 18 رقم 2402 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج 5 ص 478)

⁴ (رواه الترمذي ج 9 ص 11 رقم 2395)

⁵ (رواه مسلم ج 10 ص 442 رقم 3882)

⁶ (رواه مسلم ج 5 ص 276 رقم 1746)

⁷ (رواه ابن ماجه ج 12 ص 191 رقم 4148 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 2 ص 402 رقم 3354)

⁸ (رواه الحاكم ومالك عن يحيى بن سعيد)

⁹ (رواه البيهقي في شعب الإيمان والطبراني في الأوسط والكبير)

¹⁰ (ذكره المنذري في الترغيب والترهيب)

وفي المقابل نجد الأمة اليوم تعيش ما يصفه جان ماري بيلت بـ "دُوار الاستهلاك"¹، تلك الرغبة المحمومة في الامتلاك والاستمتاع والحصول على كل شيء ، بذلك تحول المجتمع إلى أسواق رائجة لبضائع غيرنا ، والزج به في نسق حضاري يقوم على الأنانية والمنفعة المادية وشهوة التملك!².

لكن **الزهد في الدنيا** لا يعني الامتناع عن أكل اللحم أو التمتع بالنساء وخيرات الدنيا ، بل يكون ذلك بحسب الحاجة ، لأن الله **جعل الخيرية في المؤمن القوي عن المؤمن الضعيف** ، فإذا كان المؤمن بحاجة للحم ليحمي ثغور الإسلام ، فلا شك أن حاجته الزائدة للحم عن غيره عبادة من هذا الوجه ، وقس على هذا سائر الأمور .

قوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ...) (17) كم للكثرة ، فبعد الطوفان كان الناس مؤمنين ، فكون أنهم هالكون يعني أنهم بدلوا دينهم ، واستحقوا الهلاك لتحقيق أسبابه فيهم ، يعني انشغلوا بترف الحياة ، ولم يستخششوا لنشر الدعوة والحركة بها والجهاد في سبيل الله .

يقول سيد قطب (الآية تقرر سنة الله ، فإذا قُدِّرَ لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثرت فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين) .

قوله (...وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (17) يعني أن الله تعالى عالم بذنوبهم قادر على أخذهم ومجازاتهم ، (ففيه تحديد لهذه الأمة لكي يطيعوا الله ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم)³.

كذلك لابد وأن يعلم المكلفون أن العباد ليسوا موكولون -في مقام الدعوة- لحساب الناس على ذنوبهم ، وليسوا مسلطون لعذابهم وإهلاكهم -في هذا المقام- ، فهم أداة للدعوة والبلاغ وحسب⁴ ، والله وحده هو الذي يعذب من يشاء ويهلك من يشاء ، وهو وحده الذي يعلم ذنوبهم علانيتهم وسرهم ، كبيرها وصغيرها ، ويجازي علي ذلك أو يغفر لصاحب الذنب بما علم منه ، فعن النبي ﷺ قال (بَيْنَمَا كُلُّبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَزَعَّتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَعُفِّرَ لَهَا بِهِ)⁵.

ويترتب على ذلك كذلك أنه يجب على العبد ألا يلجأ لأحد إلا الله تعالى ليغفر له الذنب ، فهو وحده الخبير والبصير به ، وكلنا هذا العبد ، نفتقر إلى الله ونتضرع إليه ، ونسأله العفو والمغفرة ، ونعوذ به من عذابه .

(1) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ، لجان ماري بيلت ص 32 ترجمة السيد محمد عثمان ، عالم المعرفة

(2) الشيخ ناصر بن سليمان العمر حلقات وليدبروا آياته : تدبر سورة الفرقة الاثنتين 4 محرم 1444 هـ <https://almoslim.net/node/166668>

(3) أبو الليث السمرقندي : بحر العلوم ج2 ص 305

(4) قريب من هذا المعنى أقوال العديد من المفسرين منهم السعدي ج 1 ص 585

(5) رواه البخاري ج 11 ص 286 رقم 3208

قوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا) (18) ذلك أن الدنيا لم تكن يوما مراد من كانت الآخرة هم ، فهما لا يجمعان ، يقول النبي ﷺ "من أحب دنياه أضر بآخريته ومن أحب آخريته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى"¹، وفي رواية (فأضروا بالفاني للباقي)²

وليس معنى ذلك أن العبد مطالب شرعا برفض النعمة ، بل على العكس من ذلك ، فالإسلام يحض على شكر النعمة ، بأن يؤدي حق الله فيها ، وذلك باستعمال النعمة فيها جعلها الله لها ، أما السعي وراء الدنيا وطلبها لذاتها هذا هو محل الذم ، ولذلك توضح الآيات كنه المسألة ، وأن الإشكالية تكمن في تمني العاجلة أي (الخير في الدنيا) ، فإنه بهذا التمني يقع في سلسلة أمان لا تنتهي إلا بأن يبيع الآخرة ليشتري الدنيا .

ووصف الله مريد الدنيا بأنه يصير إلى جهنم مذموما مدحورا ، وهذا الوصف يبين مدى الوحشة التي يستشعرها طالب الدنيا وهو في الآخرة وقد انقطع عنه كل نعيم وصار حاله من الترف إلى أن أضحي مذموما مطرودا من رحمة الله ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ)³

قوله (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) (19) أي أن العكس كذلك صحيح ، فمن يشغل بتمني ما عند الله تعالى في الآخرة ، يكفيه الله هموم الدنيا برمتها ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ)⁴ .

يقول الدكتور مهران : (تأمل قوله "وسعى لها سعيها" ولم يقل : "سعيه" ؛ ليعلمنا ربنا أن للآخرة سعيًا معيّنًا لا يقبل الله ما سواه ، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ)⁵ ، وقد انعكس هذا المعنى على السلف الصالح ، فلا تجد أحدهم يختلف رداؤه عن رداء خادمه ، حيث فتح الله عليهم بالفهم العميق معنى الدنيا والآخرة ، وبذلك الفهم علم كل منهم مراده ، وسعى بعمله له وهو مؤمن بالثواب من عند الله

فعن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت قال : خرجت مع أبي وأنا غلام شاب فلقينا شيخا عليه بردة ومعافري وعلى غلامه بردة ومعافري قلت أي عم ما يمنعك أن تعطي غلامك هذه النمرة ، وتأخذ البردة فتكون عليك بردتان ، وعليه نمرة ، فأقبل على أبي فقال ابنك هذا قال نعم قال فمسح على رأسي ، وقال بارك الله فيك أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول (أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تكتسون) يا بن أخي ذهاب متاع الدنيا أحب إلي من أن يأخذ من متاع الآخرة)⁶

¹ (رواه ابن حبان ج2 ص 486 رقم 709 وصححه الألباني لغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 144 رقم 3247

² (رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 376 رقم 10643

³ (رواه مسلم ج13 ص 411 رقم 5021

⁴ (رواه ابن ماجه ج1 ص 299 رقم 253 صححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج1 ص 48 رقم 207 ، 393/2

⁵ (د مهران ماهر عثمان : الشرح اليسير على مقدمة أصول التفسير ص 81

⁶ (رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 257 رقم 738 وصححه الألباني ج1 ص 267 رقم 276

قوله (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ..) (20) فأمر الدنيا هين ، ولذلك لا يبالي الله بعطاءه منها ، ولذلك يقول النبي ﷺ (إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب)¹ ، بينما أمر الآخرة عظيم ، فلا يعطيه الله إلا لمن أحب .

يقول الشعراوي (فرق بين عطاء الربوبية المتمثل في كل نعمة الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذي يقتضي عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل ، عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمل في هذه النعم التي تُساق إليه دون سعي منه أو مجهود ، هل له قدرة عليها؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التي أجزاها الله تعالى من أجله ، وسخرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى؟ والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عمن كفر)

قوله (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) (20) فهو سبحانه يعطي الكافر والمؤمن ، وهذا العطاء هو اختبار للعبد لي شكر أو يكفر ، ولا يمنعه عن الكافر - في دار الابتلاء - لأنه سبحانه رب العالمين ، يقول النبي ﷺ (ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)² .

قوله (أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) (21) أمر الله بالنظر إلى محل التفضيل في متاع الدنيا ، وكيف أن المفضلين هم أناس فضل الله عليهم غيرهم في بعض الأمور ، فجعلهم مفضولين ومفضلين في ذات الوقت ، ليسخرهم الله بعضهم لبعض ، كما في قوله (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًا) (الزخرف/32) ، فتفضيل الله يسير بحكمة اقتضاها علمه .

يحضرنى في هذا المقام مثال حي حيث ذكر لي أخي وهو جراح مشهور أنه كان في سنة الامتياز يقوم بإجراء خياطة لقطع وجروح غائرة لجرمين مصابين في مشاجرات ومدمني مخدرات ، يأتون للمستشفى للعلاج ، وهو بدوره كطبيب - في مرحلة الامتياز - يقوم بإجراء هذه الخياطة لجروحهم وبدون أجر ، رغم أن المريض يتفوه بألفاظ نابية ولا يحترم أحد ، بل هو في عالمه الخاص بسبب الإدمان ، ورغم ذلك فقد جعل الله هذا العالم في الطب يقوم بخدمة هذا المريض السافل في الأخلاق وبدون أجر كذلك ، فسبحان الله الذي جعل بعضهم لبعض سخريا ، فلو علم هذا المدمن أن الذي يقوم بخياطة جرحه هو في المستقبل جراح قلب مشهور يقوم بإجراء العديد من عمليات القلب المفتوح في مصر وأوروبا لاستشعر فضل الله عليه ورحمته به ، أن سخر له هذا الطبيب ليدأويه ، وكيف أن الله فضله بهذه الخدمة الطبية المتميزة وهو لا يدري (وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف/32) .

قوله (وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (21) أي لا بد للمكلف ألا يهتم بدرجات الدنيا ، ولتكن العبرة بدرجات الآخرة ، يقول سبحانه (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين/26)، فالمفاضلة في دار الدنيا ليست هي منتهى آمال المؤمن ، وإنما لا بد وأن يعمل المسلم للمنافسة على درجات الآخرة لينال فيها الدرجات العلى ، يقول

(1) رواه الحاكم ج1 ص 88 رقم 94 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 213 رقم 2714
(2) رواه الحاكم ج4 ص 341 رقم 7847 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 185 رقم 686

النبي ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفُرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَكْهَارُ الْجَنَّةِ)¹، فلا بد للعمل لأعلى الدرجات والسعي لذلك .

فالدنيا بالنسبة للآخرة لا شيء ، فعن عمر بن الخطاب قال (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى إِلَيْهِ إِرَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلَهَا قَرَطًا فِي نَاحِيَةِ الْعُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرْتُ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرٌ وَكَسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَكْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى)²

وفي رواية عن عمر الخطاب رضي الله عنه قال : استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربه و إنه لمضطجع على خصفة و أن بعضه لعلی التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا وأن فوق رأسه لأهاب عطين وفي ناحيه المشربة قرط فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الحرير والديباج فقال يا عمر إن أولئك قد عجلت لهم طبيائهم و شيكة الانقطاع وإنا قوم قد أخرت لنا طبيائنا في آخرتنا)³.

(1) رواه البخاري ج9 ص 354 رقم 2581

(2) رواه مسلم ج7 ص 441 رقم 2704

(3) رواه الحاكم ج4 ص 117 رقم 7072 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 432 رقم 4317

المحور الثاني الوصايا الربانية

قال تعالى (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) (22) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ تَبَذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِفْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)

قال الشوكاني أجمل سبحانه أعمال البر في قوله (وسعى لها سعيها وهو مؤمن) أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال (لا تجعل مع الله إلهاً آخر)¹ ، واختتم بها (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ).

قوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) (22) صرف العلماء هذه الآية على الدعاء ، بمعنى لا تدعو غير الله ، فيخيب دعاءك لغيره ، قال ابن القيم (المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد والثناء تارة فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه ويحصل له الخذلان والدم)² .

قال ابن تيمية (الدُّعَاءُ نَوْعَانِ: دُعَاءُ عِبَادَةٍ، وَدُعَاءُ مَسْأَلَةٍ ، وَكِلَاهُمَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ، فَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قَعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا، وَالرَّاجِي سَائِلٌ طَالِبٌ فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا يَسْأَلُ غَيْرَهُ)³.

ولهذا نهي النبي ﷺ عن السؤال فقال (فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَإِلَّا فَلَا تُنْبِعُهُ نَفْسُكَ)⁴ فَالْمُشْرِفُ الَّذِي يَسْتَشْرِفُ بِقَلْبِهِ، وَالسَّائِلُ الَّذِي يَسْأَلُ بِلِسَانِهِ

(1) فتح القدير ج3 ص 312

(2) إغاثة اللهيان ج1 ص 40

(3) الفتاوى الكبرى ج5 ص 234

(4) رواه البخاري ج22 ص 84 رقم 6630

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعِنْ يَغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَيِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ¹.

قوله (...فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) مذكومًا اسم مفعول من ذم أي عاب ، فهو معيب أمام الناس الذين استرضاهم بمعصية ربه ، فلم ينل منهم غير الذم ، وكذلك أهل الإيمان يذمونه لشركه .

ومخذولاً أي لا ناصر له ولا معين ، فذلك حال من يسأل غير الله ، ويعتمد على غير الله ، يقول أهل المعرفة (من اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على الناس مل، ومن اعتمد على عقله ضل، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الله لا قل ولا مل ولا ضل ولا ذل)².

قوله (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) اقترن الإيصاء بإخلاص العباداة الله بالإحسان للوالدين ، بهذا يفرق المكلف بين الحقين ، فيعلم أن حق الله هو الطاعة ، وحق الوالدين هو البر والإحسان ، فلا منافاة بين الحقين عند التعارض ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولذلك يقول سبحانه (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) (العنكبوت/8) ، إذن الواجب طاعتها في طاعة الله ، ولا يجوز طاعتها في معصية الله.

روي عن مقاتل قال قال الله عز وجل (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأمه حمزة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) بأن معنى شريكاً (فَلَا تُطِعْهُمَا) في الشرك (إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ) في الآخرة ، (فَأَتَيْنَاكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يعني سعداً رضي الله عنه ، وذلك أنه حين أسلم حلفت أمه لا تأكل طعاماً ، ولا تشرب شراباً ، ولا تدخل حتى يرجع سعد عن الإسلام ، فجعل سعد يترضاها ، فأبت عليه ، وكان بها باراً فأتت سعد رضي الله عنه النبي ﷺ ، فشكى إليه ، فنزلت في سعد رضي الله عنه هذه الآية ، فأمره النبي ﷺ أن يترضاها ويجهد بها على أن تأكل وتشرب ، فأبت حتى يئس منها ، وكان أحب ولدها إليها³.

ومن المعصية طاعتها في التفريق بين الزوجين من غير عذر شرعي ، لقوله ﷺ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا)⁴ ، فقد سئل ابن تيمية عن رجل وَوَالِدَتُهُ تَكَرَّهُ الزَّوْجَةَ وَتُشِيرُ عَلَيْهِ بِطَلَاقِهَا هَلْ يَجُوزُ لَهُ طَلَاقُهَا؟ فأجاب : (لا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا لِقَوْلِ أُمِّهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَبْرَأَ أُمَّهُ وَلَيْسَ تَطْلِيقُ امْرَأَتِهِ مِنْ بَرِّهَا)⁵.

(1) رواه البخاري ج5 ص 318 رقم 1376

(2) قول مأثور عن الإمام علي لم يتحقق منه .

(3) تفسير مقاتل ج3 ص 30

(4) رواه أبو داود ج6 ص 86 رقم 1860 وصححه الألباني : صحيح سنن أبي داود ج6 ص 385 رقم 1890

(5) الفتاوى الكبرى ج3 ص 331

وبالجملة فإن الإحسان لهما لا يتحقق إلا بأمور أساسية ذكرتها السورة وهي (بذل المعروف ومعاونتهما ، وكف الأذى بنوعيه المادي والمعنوي عنهما صغيرا كان أم كبيرا ، وإدخال السرور بالقول الكريم لقلبيهما ، والتواضع معهما ، والدعاء لهما)¹، وفي ذلك تفصيل :-

قوله (.. وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) فالإحسان إليهما مقدم على فروض الكفاية ، وإن كانت جهاد الطلب ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال أحيي والدك؟ قال نعم قال (ففيهما فجهاد)²، والعلماء حملوا هذه الأحاديث على إذا ما كانت الهجرة أو الجهاد غير واجبين ، أي غير متعينين عليه ، وإلا فالواجب تلبية نداء الهجاء والهجرة ، أما إذا كانا فرض كفاية ، فيقدم بر الوالدين على جهاد الكفاية ، طالما في الأمة من يقوم بهذا الواجب غيره ممن ليس مدينا بدين أبويه ، خاصة إذا كبيرا في السن .

والترجمة العملية للإحسان هو القيام بخدمتهما ورعايتهما ، فلا يقدم عليهما أحد في الإحسان ، كما في قصة الرجل الذي حلب اللبن لوالديه ، فوجدهما نائمين ، فلم يطعمه أحد من أولاده ، ووقف على باب والديه حتى إذا استيقظا كان أول من طعما اللبن ، فهذا من حسن خلقه مالم يكن تكلفا ودون أن يشق على من يعول إذا كانوا بحاجة لطعام .

ولا يجوز تأخير الإجابة لندائهما ما لم يكن مشغولا بفرض مضيق غير موسع ، قال رسول الله ﷺ (كَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا غَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُنْتِهِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ فَتَذَاكُرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ إِنَّ شَيْئَكُمْ لَا تَنْتِنُهُ لَكُمْ قَالَ فَتَعَرَّضْتُ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَتْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ فَقَالَ أَيْنَ الصَّبِيِّ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ يَا عَلَامُ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فُلَانُ الرَّاعِي قَالَ فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقْبِلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبِيٌّ لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ فَفَعَلُوا)³

ومن أول صور الإحسان لهما : بذل المعروف لهما ، وذلك بسداد دينهما متى اعسرا عن السداد ، والوفاء بوعودهما إن عجزا عن الوفاء ، عن ابن عباسٍ أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحْجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحْجَّ أَفَأَحْجُّ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتُ قَاضِيَتَهُ قَالَتْ نَعَمْ فَقَالَ اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ)⁴، وبالتصدق لهما ، والحج عنهما إن أمكن ، فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما..

¹ (أد الشيخ سليمان بن سليم الله الرحيلي : استاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي : <https://www.youtube.com/watch?v=u3PBneS7U-k>

² (رواه البخاري ج 10 ص 188 رقم 2782

³ (رواه مسلم ج 12 ص 394 رقم 4626

⁴ (رواه البخاري ج 22 ص 292 رقم 6771

جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ حَشَعَمَ .. فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَذْرَكْتُ أَيْ شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَأَحْجُّ عَنْهُ قَالَ نَعَمْ وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ¹ ، وهكذا يصل لهما الخير من قِبَلِ أبنائهما .

قوله (إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ..) (23) أوصى القرآن ببرهما خصوصا في أهم فترة من حياتهما ، لاسيما عند كبر أحدهما أو كلاهما ، وهي مرحلة "تبادل الأدوار"؛ حيث ينقلب حال الوالدين من القوة إلى الضعف، ويتحول حال الأبناء من الضعف إلى القوة، مما يجعل البر في هذا التوقيت بالذات أوجب وأحرى من أي وقت مضى.

قال ابن حزي (خص حالة الكبر؛ لأتقيا حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما ، لضعفهما ومعنى عندك : أي في بيتك وتحت كنفك)²، وهذا يضع على عاتق الأبناء كفالة الأباء والأمهات ورعايتهما حال الكبر ، فلا يليق بهما أن يتركوا الوالدين في هذا السن وحدهما ، بل عليهم أن يجعلهما في بيته وتحت كنفه ليلبي حاجتهما دون أن يلجئا للغير.

فإذا كانت طاعة الوالدين واجبة على الأبناء وهم في حال الضعف والصغر ، فهي أوجب حينما يكبروا ويقووا ، وفي ذات الوقت يضعف الوالدين ، ولا يملكان القوة لتأديب الأبناء ، فإذا كان فهم الابن لحق الوالدين قبل أن يبلغ الرشد غير كامل ، ففهم الابن الراشد لحق والديه قد اكتمل ، ويُنتظر منه الإحسان في هذا الوقت أكثر مما سبق .

ومن أظهر صور الإحسان لهما -خصوصا في هذه الفترة الحرجة- الانتباه لأي لفظ يخرج من الفم أمامهما ولو كان لا يلقي إليه بالا ، مثل كلمة (أف) فهو نوع من التأفف ، يدل على الضجر والضييق منهما ، كما لا يجوز انتهارهما مهما بدا منهما ، لأن الوالدين في هذا السن قد يتغافلا بسبب ضعفهما عما يصدر عن الابن من إساءة لهما دون أن يدري ، في حين أنهما كانا يسامحان في حقهما عما بدر منه في سن الصغر شفقة منهما عليه.

أما "النهر" فهو منهي عنه مطلقا ، وهو الزجر بصياح وإغلاظ ، فلا يجوز رفع الصوت عليهما مطلقاً ، إلا في حالة استثنائية واحدة وهي وجود علة أو ضعف في سمعهما، فيكون رفع الصوت هنا بقدر الحاجة فقط لإيصال المعنى، لا على سبيل الغضب أو التطاول.

ومناسبة "النهر" غالبا في الفرض عند النهي عن فعل منكر أو معصية ، ففي هذا الفرض -كذلك- لا يسقط واجب التأدب مع الوالدين أي أدب إسداء النصح والإرشاد لهما حال تلبسهما بمعصية ؛ فإذا وقع أحد الوالدين في خطأ شرعي أو معصية -كالغيبة والسخرية من الآخرين مثلاً- فإن واجب النهي عن المنكر يظل قائماً، ولكن بشرط أن يُغلف بالاحترام والتلطف الشديدين مراعاة لمكانتهما التي حتمتها الشريعة .

وفي كل الأحوال ، ومن باب أولى يجب كف الأذى البدني والنفسي عنهما بإطلاق.

¹ رواه البخاري ج5 ص 390 رقم 1417
² تفسير القرطبي ج ص ابن جزى : التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 888

قوله (...وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) (23) وذلك هو الأدب الثالث : بإدخال السرور على قلوبهما بإيصال القول الكريم لمسامعهما ، فلا يسمعان منك إلا القول الكريم بكثرة المدح لهما والثناء عليهما ، والتلطف في خطابهما حتى في مقام النهي ، كما كان إبراهيم عليه السلام يخاطب أبيه وهو ينهاه عن الشرك بقوله (يا أبت ..) وهكذا ، ويكون ذلك كذلك بتخير الألفاظ تأديبا ، والتبسم في وجههما تلطفا ، فلو كان تبسم الأخ في وجه أخيه صدقة فإنه في وجه الوالدين واجب .

وإن عجزت عن ذلك ، فالصمت أولى من الكلام حتى تتمكن من التفوه بالقول الكريم ، وإن اضطر الابن أن يخبرهما بخبر يحزنهما فعليه أن يفرحهما كما أحزنهما ، فعن عبد الله بن عمرو قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة وترك أبي يكيان قال ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما¹، وذلك ليلطف عنهما فراقه لهما ، ومن العلماء من حمله على الهجرة غير الواجبة² ، فهما وإن كانا مشركان ولا يرضيان لابنهما الهجرة لرسول الله ، فإنه وإن اضطر أن يحزنهما طاعة لله ولرسوله ، فعليه أن يبرهما بأن يضحكهما حتى يخفف عنهما شيئا من الحزن لفراقه لأجل الله .

فإن كان الجهاد فرض عين فليخرج الإنسان للجهاد ولو لم يرض الأبوان بخروجه ، فلا طاعة لهما في معصية الله ، أما إن كان فرض كفاية فلا يخرج إلا بإذنهما ، فيكون الجهاد فرض عين إذا استنفره الإمام، وكذلك لو دهم العدو المسلمين في بلادهم ، أما إذا كان الأبوان كافرين فإن له أن يخرج بدون إذنهما ولو لجهاد التطوع ؛ لأن الكافر متهم بأنه لا يريد للإسلام أن ينتصر³، ما لم يكن هو الابن الوحيد الذي يقوم علي مصالحهما ، لأن الفرض العيني مقدم هنا -في هذا المثال- على الفرض الكفائي .

قوله (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ...) (24) وهذا هو الأمر الرابع الواجب لهما : خفض جناح تذلا من الرحمة كناية عن التواضع لهما ، والمقصود بخفض الجناح لهما ، العطف عليهما وإظهار للشفقة والرحمة بهما . وقد استعار التنزيل الحكيم هذه الصورة من عالم الطير؛ فالطائر إذا أراد التحليق والسمو نشر جناحيه ورفعهما كبرياء واعتلاءً، فإذا رغب في الهبوط والنزول خفضهما حتى يلصق بالتراب مستكينًا. فما أبدعها من صورة بيانية تجسد تذلل الابن لوالديه، وانحطاط ترفعه توددًا لهما، وطأطأة رأسه خضوعًا وإجلالًا لمقامهما.



ولا يقف هذا التذلل عند حدود الهيئة، بل ينبع من حنان صادق يترجمه الابن في سلوكه؛ فيُرْهف السمع لحديثهما، ويتأدب بالصمت في حضرتهما فلا يسبقهما بلفظ، ويسابق الريح في قضاء حوائجهما ، كما يتجلى في ذروة نضجه

¹ رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 21 رقم 19 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1 ص 6 رقم 11/13

² شرح الزرقاني ج 3 ص 20

³ (شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج 13 ص 440

بالصبر الجميل على طباعهما وتأديبهما مهما امتد بهما العمر، فإن علت أصواتهما فوق صوته، تلقى ذلك بقلبٍ رحب ونفسٍ مطمئنة، دون أن يلوح على وجهه بادرة انزعاج أو ضيق.

قوله (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (24) وهو الأدب الخامس : الدعاء لهما إذا كانا مسلمين ، فالدعاء لهما يصل لهما لقوله ﷺ (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) ¹.

فإن لم يكونا مسلمين فلا يجوز ذلك ، لقوله ﷺ (اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أُرْوَرَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي) ² ، وعن أنسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَ أَبِي قَالَ فِي النَّارِ فَلَمَّا فَفَى دَعَاهُ فَقَالَ إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ) ³، وفي رواية قال ﷺ (إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْإِسْتِغْفَارِ لَأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنْ النَّارِ) ⁴.

وتقييد الدعاء بقوله (كما رباني صغيرا) بليغ في الدلالة على فضلها على ابنهما ، وهو في حال الصغر والضعف ، فالأبوان يقومان على نفعه ودرء الضر عنه ، يقطعان من راحتها لأجل راحتها ، يتحملان مشقة السهر والرعاية ليرحما بكاءه وهو صغير ، ومشقة العمل والكد ليطعمانه ويكسوانه ، فهما المعلم الأول له اللذان غرسا فيه القيم ومكارم الأخلاق ، وبذور العقيدة الصافية ، فكم صبرا وتحملا بكاءه وعناده بصدر رحب مدفوعان بحب فطري دون مقابل ، باختصار؛ الوالدان هما اللذان صنعا البدايات، وحرسا الطفولة، وبنيا الإنسان.

فكان أقل رد لجميلها الدعاء لهما ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَتَرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَتَى هَذَا فَيَقُولُ بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدَكَ لَكَ) ⁵، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) ⁶.

وهو الأمر الذي يضع عبئا على كاهل الوالدين ليقوما بواجبهما قبل أبنائهما خاصة في مرحلة الصغر ، فيقوموا على تربيتهما بإحسان ، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه " أن رجلاً جاء إليه بابنه ، فقال : إن ابني هذا يعقني . فقال عمر - رضي الله عنه - للابن : أما تخاف الله من عقوق والدك ، فإن من حق الوالد كذا ، ومن حق الوالد كذا . فقال الابن: يا أمير المؤمنين ، أما للابن على والده حق ؟ قال : نعم ، حقه عليه أن يستنجب أمه، يعني لا يتزوج امرأة دنيتة ، لكيلا يكون للابن تعبير بها . قال : ويُحَسِّنُ اسْمَهُ ، ويعلمه الكتاب . فقال الابن : فوالله ما استنجب أمي ، وما هي إلا سِنْدِيَّةٌ اشتراها بأربعمائة درهم ، ولا حَسَنَ اسْمِي ، سماني جُعَلًا - ذكر الخفاش وقيل خنفساء- ولا

¹ (رواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084)

² (رواه مسلم ج5 ص 105 رقم 1621)

³ (رواه مسلم ج1 ص 467 رقم 302)

⁴ (رواه أحمد ج38 ص 111 رقم 23003)

⁵ (رواه ابن ماجه ج11 ص 51 رقم 3650 وصححه الألباني : صحيح سنن ابن ماجه ج2 ص294 رقم 2953 ، صحيح كنز السنة ج1 ص172)

⁶ (رواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084 والبخاري في الأدب المفرد)

علمني من كتاب الله آية واحدة . فالتفت عمر - رضي الله عنه - إلى الأب وقال : تقول : ابني يعقني ، فقد عَقَّقْتُهُ قبل أن يعَقِّكَ ، قم عني " ¹ .

قوله (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) (25) حمل العلماء قوله " رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ" من قصد البر إليهما وانعقاد ما يجب من التوقير لهما ، وهو على ما قيل تحديد على أن يضمرا لهما كراهة واستثقالاً ² ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : (ربكم أعلم بما في نفوسكم) قال : تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله : (إن تكونوا صالحين) أي تكون النية صادقة ببرهما (فإنه كان للأوابين غفوراً) للبادرة التي بدرت منه ³ ، فمسألة الإحسان للوالدين وبرهما في ظل اختلاف الدين قد تكون مستعصية ، ولذلك أخبر الله تعالى بعلمه بما في النفوس من النوايا الصالحة ، فقد يعجز المرء عن فعل ذلك في ظل محاربتهم له في الدين ، قال ابن عاشور في قوله : (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ) يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة ⁴ .

ويشهد لذلك ما حصل مع مصعب بن عمير ، وغيره ، فعن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" ، وقال: كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا أَوْ لَا أَكُلْ وَلَا أَشْرَبْ حَتَّى أَمُوتَ، فَتُعَيَّرَ بِي، فيقال: "يا قاتل أمه". فقلت: لا تفعل يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً [آخر] وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتدت جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي. فأكلت ⁵ .

وفي قوله (إِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ (يُذْنِبُ ثُمَّ يُتُوبُ ثُمَّ يُذْنِبُ ثُمَّ يُتُوبُ) ⁶ ، والمناسبة بين هذه الآية والإحسان للوالدين ، أن حقهما عظيم ، ولعظم حقهما يتهم الابن نفسه دوماً بالتقصير ، روي أن رجلاً يمانياً يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول إني لها بغيرها المذل إن أذعرت ركابها لم أذعر ثم قال يا بن عمر أتراني جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة ⁷ .



1 (السمرقندي ، تنبيه الغافلين ، دار ابن كثير ، دمشق ، الطبعة الثانية ، 1415 هـ ، 1995 م ، ص 130.

2 (تفسير الألوسي ج 10 ص 434

3 (أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج 6 ص 251

4 (التحرير والتنوير ج 14 ص 61

5 (تفسير ابن كثير ج 6 ص 337 أسباب النزول للواحدي ج 1 ص 258

6 (رواه البيهقي ج 7 ص 154 رقم 14242

7 (رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 18 رقم 11 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1 ص 6 رقم 11/9

إن أخرى الناس ببر والديه هو المؤمن الأبواب كثير الرجوع إلى الله، الذي يستغفره كلما أخطأ، فمن يدرك تقصيره في حق خالقه، يستشعر بالتأكيد تقصيره في حق والديه ، وتأني الآية لتفتح باب الأمل والتوبة لكل من قصر في الواجبين، فتحته على المبادرة بالاستغفار ، وإذا لم يستطع المرء بلوغ الكمال في البر، فلا ينبغي له أن يترك العمل بالكلية، فما لا يدرك كله لا يترك كله ، بل عليه أن يقارب ويجتهد مستغفراً، رجاء العفو والمغفرة.

فَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيَمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ قَالَ عَبْدٌ الْأَعْلَى لَا أَذْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ اعْمَلْ مَا شِئْتَ)¹.

قوله (وَأَتِذَا الْقُرْآنَ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) (26) انتقلت الآيات إلى أصحاب الحقوق التالية في الإحسان ، وهو حق ذي القربى بوجه عام والمُسكين بوجه خاص ، وابن السبيل وهو حق طارئ وقي ، وذلك من باب التوسع في ذكر أصحاب الحقوق بعدما ابتدأت بحق الله تعالى ثم حق الوالدين ، لتنتهي بابن السبيل .

وأولى القربات بالإحسان من يعوله المرء ، يقول النبي ﷺ (ابدأ بمن تعول) ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غَنًى وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ تَقُولُ الْمَرْأَةُ إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي وَيَقُولُ الْعَبْدُ أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَطْعِمْنِي إِلَى مَنْ تَدْعُنِي فَقَالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَا هَذَا مِنْ كَيْسِ أَبِي هُرَيْرَةَ)².

والمُسكين ليس الذي ترده اللقمة أو اللقمتين ، قال رسول الله ﷺ (قَالَ لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي يُطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ)³

قال المباركفوري (المُسكين هو الذي يقدر على مال أو كسب يقع موقعاً من حاجته ولا يكفيه .. وهو حينئذ أحسن حالاً من الفقير فإنه الذي لا مال له أصلاً، أو يملك ما لا يقع موقعاً من حاجته ... واحتج لذلك بقوله تعالى: {أما السفينة فكانت لمساكين} [الكهف: 79] فسماهم مساكين مع أن لهم سفينة لكنها لا تقوم بجميع حاجاتهم (ولا يفتن به) بصيغة المجهول مخففاً أي لا يعلم باحتياجه (فيُتصدق عليه) (ولا يقوم فيسأل الناس) يحتمل معناه نفى السؤال أصلاً ، وقد يستدل بقوله (لا يسألون الناس إلحافاً) [البقرة: 273] التأكيد في السؤال المذموم هو الإلحاف ..

¹ رواه ج 13 ص 231 رقم 4953

² رواه البخاري ج 16 ص 432 رقم 4936

³ رواه البخاري ج 5 ص 330 رقم 1385

وفيه إن المسكين هو الجامع بين عدم الغنى وعدم تفتن الناس له لما يظن به لأجل تعففه وتظهره بصورة الغنى من عدم الحاجة، ومع هذا فهو مستعفف عن السؤال¹.

وأبناء السبيل هم من ليسوا من أهل القرية ، ولكن مروا عليها وهم في طريق السفر ، ويحتاجون للزاد ، فعلى أهل البلد المضيف أن يكرموا ابن السبيل حتى يصل إلى مقصده ، وسمي الضيف بابن السبيل حتى لا يسأله أحد عن المكان الذي جاء منه والذي يذهب إليه ، فينال الإكرام من أهل القرية دونما نظر إلى البلدة التي أتى منها ، حتى يصل إليه الإكرام بوصفه ذاك ، دون التباس باعتباريات أخرى ، يقول النبي ﷺ (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)²

قوله (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) (27) النهي عن التبذير جاء تالية لمراعاة حقوق أصحاب الحقوق كالمساكين ، للإشارة إلى وجوب صرف المال إلى مستحقين بحسب الترتيب والأولوية ، وأن الإخلال بالترتيب والأولوية يعد تبذيرا ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (إن المبذرين) قال : (هم الذين ينفقون المال في غير حقه)³

وهنا لابد من وقفة في إدارة المال ، لاسيما حال تعدد أصحاب الحقوق بدء من الوالدين إذا كان بحاجة للمساعدة والزوجة والأولاد وغيرهم من أولي القرى والمساكين حتى أبناء السبيل ، فالمال الذي يُصرف في غير موضعه يعتبر تبذير - في هذا السياق - لأنه ينقص من حقوق أصحاب الحقوق الأولى به ، بمعنى أنه لو كان الوالدين بحاجة لهذا المال فأنفقه الابن على ابن السبيل فإنه يكون مبذرا بمقتضى هذه الآية ، لأنه حرم منه الأولى في الإنفاق عليه ، وهكذا . ولذلك بشعت الآية التبذير في هذا الموضع بالذات ووصفت "المبذر" بأنه من "إخوان الشياطين" ، حتى لا يستخف المرء بالأمر ، وينتبه لبشاعته ، قال العسكري (وليس الاسراف متعلقا بالمال فقط، بل بكل شئ وضع في غير موضعه اللائق به)⁴، ألا ترى أن الله سبحانه وصف قوم لوط بالإسراف لوضعهم البذر في غير المحرث) ، فقال سبحانه (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (الأعراف/81) ، ووصف فرعون بالاسراف فقال (إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ) [الدخان:30-31] ، ومن المأثور أن (مَنْ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اسْتَهَيْتَ)⁵.

لكن لما كان ترتيب المستحقين فيه مشقة ، إذ يتطلب ذلك التحري عن كل حالة على حدة ، فإن صرف المال إلى المسئول عن جمعه وصرفه لمستحقه كاف لأداء هذه الفريضة في مصرفها السليم ، ومن ثم يكون العامل الجامع لأموال الزكاة هو المسئول عن ترتيب الأولويات ، فإن بذر ولم يعط صاحب الحق حقه فهو آثم ، وليس على دافع الصدقة ذنب

فَعَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَحَاضِرَةٍ فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أَنْفِقُ؟ وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ ، فَإِنَّهَا طَهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ

¹ مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج6 ص 225

² رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 49 رقم 102 ، وفي صحيحه ج18 ص 437 رقم 5559

³ الدر المنثور ج6 ص 262 ، تفسير الطبري ج17 ص 429

⁴ معجم الفروق اللغوية للعسكري ج1 ص 79

⁵ رواه ابن ماجه ج10 ص 109 رقم 3343

وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمَسْكِينِ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (أَقْلِلْ لِي) قَالَ (فَاتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) فَقَالَ (حَسْبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا أَدَيْتُ الزَّكَاةَ إِلَى رَسُولِكَ فَقَدْ بَرَّتُ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (نَعَمْ إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرَّتَ مِنْهَا فَلَكَ أَجْرُهَا ، وَإِنَّهَا عَلَى مَنْ بَدَّلَهَا)¹ أي أثم من منع أداء الزكاة لمن يستحقها أو لمن هو أولى بها من غيره .

فمن أراد أن يعطي الحقوق لأهلها فليقتصد في بذل المال والوقت والجهد... الخ ، يقول النبي ﷺ (الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا)² ، ومن أراد أن يتقصر على الزكاة فليفعل إذا أراد أن يستكمل أركان إسلامه ، ومن أراد أن يجتهد في الطاعات والقربات ليكمل إيمانه ، فليعلم أن في المال حق سوى الزكاة ، فعن مجاهد في قوله (فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) ، قَالَ (سِوَى الزَّكَاةِ)³، ذلك أن "الزكاة" ضريبة تفرض على جموع الأمة وتتعين على مؤديها وتجي بقوة السلطان ، وتوزع بمعرفته ، فلا يستقل أداء هذه الفريضة دون عمل أهل السياسة .

وهذه الإشكالية تنور - كذلك - في الفرض حيث يُعلم أن الذين يجبون الزكاة لا يصرفونها في حقها ، ويبذرون المال في غير موضعه ، فعن قَزَعَةَ ، قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عُمرَ : إِنَّ لِي مَالًا ، فَيَأْتِي مَنْ أَدْفَعُ زَكَاتَهُ ؟ قَالَ : اذْفَعْهَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، يَعْنِي الْأَمْوَاءَ ، قُلْتُ : إِذَا يَتَّخِذُونَ بِهَا ثِيَابًا وَطِيبًا ، قَالَ : وَإِنْ اتَّخَذُوا ثِيَابًا وَطِيبًا ، وَلَكِنْ فِي مَالِكَ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ ، يَا قَزَعَةَ)⁴ ، فالحديث دال على أن الزكاة فريضة تدفع لأولياء الأمور حتى وإن لم يصرفوها في حقها ، ولا غرو في ذلك فلن يضيع حق الفقراء طالما أن المال فيه حق سوى الزكاة يصرف بحق لمستحقه ، متى التزم المنفق القاعدة المذكورة وهي عدم التبذير .

ومعنى أن في المال واجب آخر سوى الزكاة ، وذلك في حال إذا لم تنقص حاجة المحتاج بالرغم من أداء الزكاة كاملة ، فإذا كان لا يزال الفقير بحاجة للعون وجب عونه وإن لم يكف مال الزكاة لعهونه ، وهو ما يعني أن ثمة مصرف للصدقات الاختيارية - ولا يجبي إجبارا أو سياسة - وإنما بقدر أداء هذا الواجب لتلبية حاجة الفقير ، يقوم عليه من لديه فضل زاد ، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَجَعَلَ يُصْرِفُهَا بَيْنَنَا وَشِمَالًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ)⁵، فهو فرض على الكفاية وليس فرضا متعينا ، إن قام به البعض لاسيما الأغنياء سقط عن الكل .

قوله (وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ) ابتغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوَهَا فُقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا(28) (وإما تعرضن عنهم) أي عن المذكورين من ذوي القربى والمساكين وابن السبيل فلم تعطهم شيئا⁶ ، وذلك لقلّة يد ، مع الاحتفاظ بالرغبة في إبداء

¹ (رواه أحمد ج19 ص 386 رقم 12394)

² (رواه البخاري ج20 ص 99 رقم 5982)

³ (مصنف ابن أبي شيبة ج3 ص 191)

⁴ (مصنف ابن أبي شيبة ج3 ص 156 وصححه الألباني في إرواء الغليل ج3 ص 380)

⁵ (رواه أبو داود ج4 ص 473 رقم 1416 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 360 رقم 1466)

⁶ (أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 343)

الصدقة ، بل إنهم ليبكون لعجزهم عن الصدقات كما في قوله تعالى (وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) (92)

فقوله (..اِئْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا..) يعني الإعراض هنا ليس بإطلاق ، وإنما هو إعراض مؤقت قال مجاهد (انتظار رزق الله)¹ ، أي ابتغاء الرزق والتوسعة من رحمة الله بهم ، فهو يؤجل صدقته حتى يؤتيه الله من فضله ، فيكون امتناع بسبب .

فلم يخل ضيق ذات اليد بين المسلم ونيته في الإنفاق؛ فالقلب معطاء وإن خلت اليد ، وهو الأمر الذي تمثل في حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، فعن أبي هريرة قال قال أبو ذرٍّ يا رسول الله ذهب أصحاب الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم وهم فضول أموال يتصدقون بها وليس لنا مال نتصدق به فقال رسول الله ﷺ يا أبا ذرٍّ ألا أعلمك كلمات تذكرك من سبقتك ولا يلحقك من خلفك إلا من أخذ بمثل عملك قال بلى يا رسول الله قال تكبير الله عز وجل ذبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وتحمده ثلاثاً وثلاثين وتسبحه ثلاثاً وثلاثين وتختتمها بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر)².

قوله (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا) (28) أي يعتذر لهم بأدب ، ويذكرهم بأن رزق الله واسع ، ومقدر بقدر هو يعلمه ، فيصبرهم بلطف ألا يعجلوا طلب الرزق.

والقول الميسور هو القول اللين الهين السهل الذي يجبر الخاطر ، ويصون كرامة السائل ، فهو اعتذار بأدب مراعاة لحال السائل ، ورفق في الخطاب ، ورد لطيف ؛ فالقرآن يفتح باباً آخر للبر: بكلمة تحفظ الخاطر، واعتذار يصون كرامة، ورجاء يفتح باب الأمل ، فتظل العلاقة بين المسلمين محفوظة في إطار الحب والإيحاء والمودة ، فهؤلاء العاجزون عن أداء الصدقة لقلة اليد عليهم ألا يعجزوا عن إيصال الكلمة الطيبة هؤلاء المستحقين ، وأن يذكروهم دائماً بفضل الله .

وهذا الأدب ينبغي أن يتحلى به ولاة الأمور بوجه خاص ، لاسيما إذا كثرت المسألة أمامهم ، يقول ابن تيمية (ينبغي لولي الأمر في قسمه وحكمه - أن يلين مع الناس³ - فإن الناس دائماً يسألون ولي الأمر ما لا يصلح بدله من الولايات والأموال والمنافع والجدود والشفاعة في الحدود وغير ذلك فيعوضهم من جهة أخرى إن أمكن أو يرددهم بميسور من القول ما لم يحتاج إلى الإغلاظ فإن رد السائل يؤلمه خصوصاً من يحتاج إلى تأليفه)⁴ ، وقد قال الله تعالى (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) (الضحى/10).

قوله (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) (29) نظير ذلك قوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) [الفرقان : 67] ، ففي الآية تصوير بياني وكأن اليد البخيلة عن الإنفاق يدا مقيدة في العنق تعجز عن فعل شيء ، وكأن اليد المسرقة يدا مبسطة لا تمسك شيئاً ولا تقبضه ، فالعجز

1 (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 155

2) رواه أبو داود ج4 ص 301 رقم 1286 وصححه ابن حبان والألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 239 رقم 1348

3) ما بين العلامتين محذوف وهو من تقدير من سياق كلامه

4) السياسة الشرعية ج1 ص 159

واضح في كلا الصورتين ، فهذا عاجز عن الأداء ، وهذا عاجز عن الإمساك ، وكلاهما يقعدان ملومين محسورين ، فعن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتْسِكًا تَلْفًا)¹.



إذن الآية تدم وجهين للإنفاق الوجه الأول هو البخل لدرجة عجز اليد عن الإنفاق في سبيل الله ، على الناس وعلى النفس كذلك ، والصورة الثانية ذم بسط اليد كل البسط فتعجز عن الإمساك ، كلما انتهى اشترى².

والقوام بين الأمر كما في حديث عامر بن سعدٍ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ شَكْوَى أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلِّغْ بِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِيْنِي إِلَّا ابْنَةُ لِي وَاحِدَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِي مَالِي قَالَ لَا قُلْتُ فَبَشَطِرِهِ قَالَ الثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَّ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجِزْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ³ ، فبين العلة من نحيه عن أن يتصدق بماله كله أن ذلك يسد ذريعة تكفأ أهله الناس من بعده ، فكانت النصيحة هي الاقتصاد والاعتدال بين النفقة والإمساك حتى لا يضيع أصحاب الحقوق الأولى بالرعاية .

والنتيجة التي بشع القرآن الكريم الوصول إليها في كلاهما هي تصوير حال المرء وهو قاعد بأنه ملوم من الناس الذين لهم حقوق عليه ، ومحسورا على نفسه أنه لم ينفع أحد ولا حتى نفسه قال الماوردي (هَمَّى عَنْ بَسْطِهَا سَرَفًا ، كَمَا هَمَّى عَنْ قَبْضِهَا جُبْلًا ، فَدَلَّ عَلَى اسْتِثْوَاءِ الْأَمْرَيْنِ ذَمًّا وَعَلَى اتِّفَاقِهِمَا لَوْماً)⁴

قال الغزالي (البخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أي لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك ، وكما القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا

(1) رواه البخاري ج5 ص 270 رقم 1351

(2) قال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ج1 ص 341

قال القاسمي (فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا بد أن يكون قلبه طيبا به غير منازع له فيه ، ثم إن الواجب بذله قسما واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة ، والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحدا منهما فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يودبها ولكنه يشق عليه فإنه بخيل بالطبع أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل ، ومن واجب المروءة ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات فإن ذلك مستقيح ، واستقيح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فمن كثر ماله استقيح منه ما لا يستقيح من الفقير من المضايقة ويستقيح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقيح مع الأجانب ، ويستقيح من الجار ما لا يستقيح مع البعيد ، ويستقيح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقيح في المعاملة ، وبالجمل فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، ومن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللانقة به فقد تبرا من البخل نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبتذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع رجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء ، فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياح وليس بجواد فإنه يشتري المدح بماله ومثله من يبعثه عليه الخوف من الهجاء أو ملامة الخلق ، فإنه ليس من الجود لأنه مضطر إليه بهذه البواعث وهي أعراض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد

(3) رواه البخاري ج19 ص 468 رقم 5896

(4) القاضى أبو الحسن الماوردي : أدب الدنيا والدين ج1 ص 235 أكبر قضاة الدولة العباسية من فقهاء الشافعية

وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين ، وهو الوسط فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما ، فكأنه خال عن الوصفين ، وكذلك السخاء بين التبذير والتقتير ، والشجاعة بين الجبن والتهور ، والعفة بين الشره والجمود ، وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب¹.

قوله (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (30) هذا هو توحيد الربوبية بأن يعتقد المسلم في ربه أنه وحده الذي يرزقه ، وهو سبحانه الذي يمنع عنه الرزق بحكمته ، فلا بسط رزقه يُطغيه ولا تقدير الرزق عنه يُسخره ، فالعبد بين شكر الله على بسط رزقه وصبر على منعه وتقديره ، وقال رسول الله ﷺ (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)².

قوله (.. إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (30) فالله يعلم ما يصلح حال كل عبد ، فإذا بسط الرزق لعبد فلحكمة ، وإذا قدره فلحكمة أيضا ، وليس توزيع الأرزاق على العباد عنده عشوائية ، بل بتقدير وعلم ، فالخبير هو العليم ببواطن الأمور وخبايا النفوس ، فيعلم ما إن وسع عليه الرزق يطغيه ، ومن إن قُتر عليه يسخره ، والبصير هو العليم بظاهر الحال وما تقول عاقبة الأمر إليه ، فيقدر الرزق على العباد بحسب ذلك .

مع العلم بأن بسط الرزق وتقديره هو من قبيل الابتلاء ، أكثر من كونه جزاء ، ؛ فالغني مُمتحن بالشكر والعطاء ، والفقير مُمتحن بالصبر والتعفف ، والفائز منهما الذي يحقق العبودية لله ، قال تعالى (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا... كلمة "كَلَّا" هنا جاءت لتبطل هذا المفهوم الخاطيء عند البشر؛ فلا وسع الرزق علامة على إكرام الله ومحبتة للعبد، ولا ضيق الرزق علامة على إهانته، بل كلاهما يدخلان تحت مسمى "ابْتَلَاءٌ" أي اختبره وامتنحه.

قوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (31) (فالقتل محرم مطلقا لكنه قيد بالإملاق لكونه هو الغالب)³ ، بهذا الظن السيئ تزين الشياطين للناس قتل أولادهم ، مخافة أن يتحملوا عبء إعلالهم ، ناسين أن الذي يرزقهم هو الله ، فهذا الذنب كبير لأن مرتكبه لا يؤمن بالقضاء والقدر ، ولا يعتقد أن الله هو الرزاق ، فمن يرتكب هذا الجرم لا يملك في قلبه رحمة ، بل نزع الله الرحمة من قلبه ، فعن عبد الله رضي الله عنه قَالَ سَأَلْتُ أَوْ سُئِلْتُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ حَشِيَّةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ قَالَ وَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ)⁴.

ومن صور قتل الأولاد بطريقة خبيثة وخفيفة الإجهاض قبل ولادته ، وكذلك إذا ولد فلا ينفق عليه حتى يهلك ، قال رسول الله ﷺ (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول)⁵.

¹ إحياء علوم الدين ج3 ص 57

² رواه الترمذي ج8 ص 342 رقم وابن ماجه 12 ص 199 رقم 4154 وصححه الألباني صحيح ابن ماجه 404/2 رقم 3359

³ مسند الشافعي ترتيب السندي ص 1147

⁴ رواه البخاري ج14 ص 420 رقم 4389

⁵ رواه النسائي ج5 ص 384 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 203

فهؤلاء الماديون هؤلاء البخلاء يقتلون أولادهم خشية الإنفاق عليهم ، لأنهم لا يعلمون أن خزائن الله لا تنتهي ، وأن رزقه واسع ، شملهم وشمل غيرهم ، بل إنهم ليرزقون بضعفائهم ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ)¹ ، فلا فضل للأب على أبنائه في شيء من النفقة ، بل إنه ليرزق برزقهم ، ولولاهم لضيق الله عليه الرزق ، ولكن الله وسع عليه بفضلهم .

وقد أعلم النبي ﷺ سعداً راوي الحديث أَنَّ سَهَامَ الْمُقَاتِلَةَ سِوَاءَ - أَيِ نَصِيْبِهِمْ فِي الْغَنَائِمِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ - ، فَإِنْ كَانَ الْقَوِيُّ يَتَرَجَّحُ بِفَضْلِ شِجَاعَتِهِ ، فَإِنَّ الضَّعِيفَ يَتَرَجَّحُ بِفَضْلِ دَعَائِهِ وَإِخْلَاصِهِ² ، كذلك.

قوله (وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَا...) (32) النهي عن الاقتراب من الفعل أبلغ من النهي عن الفعل ، قَالَ الْقَمَلُ: (إِذَا قِيلَ لِلْإِنْسَانِ لَا تَقْرُبُوا هَذَا ، فَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَقُولَ لَهُ لَا تَفْعَلْهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى عَلَّلَ هَذَا النَّهْيَ بِكَوْنِهِ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)³ ، فالنهي الوارد بالآية يتعلق بالاقتراب من الزنا ، كالنظر إلى المرأة المحرمة ، والاختلاط بالنساء دون ضوابط شرعية ، والحديث مع المرأة التي تخضع بالقول ، ودون مصلحة شرعية ، وإبداء زينة المرأة للرجال ، وتعطرها ومرورها أمام مجالسهم .. الخ ، قَالَ تَعَالَى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (النور 30) (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ.. الآية)(النور 31) ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ يَا عَلِيُّ (لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ)⁴.

فالنظرة بريد الزنا ، بمعنى أن النظرة أشبه بعمل ساعي البريد الذي يمهّد الطريق ويحمل رسائل الشوق ، فهي شبهت به لأنها تفتح باب الفاحشة ، فعلى المسلم أن الباب ، ويتحرى غض البصر ، ولذلك قيل أن (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل و عز إيماناً يجد حلاوته في قلبه)⁵

يبد أن إغلاق الباب بالكلية وإن كان واجباً إلا أنه - على وجه العموم - محال بإطلاق ، إذ لا يسلم الإنسان من الوقوع في شيء من ذلك ، لاسيما مقدمات الفعل كالحلم والتمني ، لقوله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَرْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ وَرْنَا اللَّسَانَ الْمَنْطِقُ وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَكَذِبُهُ)⁶ ، والمعنى أنه لا محالة أن يصيبه شيء من زنا العين أو اللسان أو النفس بالتمني والتشهي ، لكنه ما لم يقع في زنا الفرج فإنه في مأمن من ذلك ، لكن عليه أن لا يسترسل في أي من هذه المقدمات ولينتهي فذلك أسلم له .

وحتى يأمن المسلم من أن يقع في الزنا فعليه ألا يسترسل في اللطم ، ويبادر بالتوبة كلما وقع في معصية ، قَالَ تَعَالَى (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (غافر 19) ، أي إذا وقع في مقدمات الزنا فعليه أن يبادر بالتوبة حتى لا ينزل في فعل الزنا ذاته فيقع في الفاحشة والمقت الكبير ، فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ

(1) رواه البخاري ج 10 ص 25 رقم 2681

(2) فتح الباري 89/6

(3) تفسير الرازي

(4) رواه أبو داود ج 6 ص 54 رقم 1837 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 6 ص 364

(5) رواه الحاكم ج 4 ص 349 رقم 7875

(6) رواه البخاري ج 19 ص 262 رقم 5774

ﷺ فَأَخْبِرُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْ هَذَا قَالَ لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ¹

وخير عمل لمن يريد تجنب الزنا خاصة لغير المتزوج هو "الصيام" ، لقوله ﷺ (مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ)² ، ولذلك كان الصوم وسيلة لتخفيض طاقة الشباب الذين لا يجدون ما يصرفون طاقتهم فيه ، ولكي يحقق الصوم هذه النتيجة لا بد من فهم المراد منه ، بأنه ليس مجرد امتناع عن الأكل والشرب وقضاء الشهوة نهائياً ، وإنما مقاصد الصوم تتمثل في الزهد من الدنيا كما أشار لذلك قوله تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (الإسراء 16) ، فعلي المسلم أن يبتعد عن حياة الترف ، ولينشغل بالعمل العام ، فيعطي فضل زاده من طعام أو خدمة أو صحة أو وقته لمن هو أحوج منه .

ومن جهة أخرى فإن الطاقة البشرية إن لم تُصرف في طاعة الله صُرفت في معصيته ، إذ لا يمكن كبتها ، فمن لم ينشغل بالعمل العام والخدمة العامة وقضايا المسلمين انشغل بشهوته وهواه ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ (مَنْ أَكْثَرَ الْأَشْيَاءَ ضَرَرًا عَلَى الْعَبْدِ بَطَالَتُهُ وَفِرَاقُهُ ، فَإِنَّ النَّفْسَ لَا تَقْعُدُ فَارَاغَةً بَلْ إِنْ لَمْ يَشْغَلْهَا بِمَا يَنْفَعُهَا شَغَلَتْهُ بِمَا يَضُرُّهَا)³ قال تعالى (إِنَّ النَّفْسَ لِلْإِمَارَةِ بِالسُّوءِ) ، ومن هنا يمكن القول بأن الخدمة العامة والعمل العام كفيلا أن يبعدان المرء عن الزنا ، فلكما زادت صدقة المرء من ماله ووقته وجهده للناس وقضاء حوائجهم انشغل بقضاياهم عن إشباع حاجته الجنسية إن لم تكن له زوجة .

والمتزوج ليس بمأمن من الزنا كذلك ، ولكنه بالزواج يبتعد عن دائرة الزنا ، ويكون أقدر على اجتنابه ، ولذلك يستحب للمتزوج أن يتفقد أهله ، وبأن يزوج زوجته بصفة دورية حتى يتحقق عنده الإشباع قصدا لا إسرافا ، فيأتي ما أحله أحلها الله له كلما ألت به حادثة ، فعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيَّةً لَهَا فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ (إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَاتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ)⁴ ، فمن استمتع بالحلال كفاه الله به عن الحرام .

كما يستحب أن لا يعاند زوجته عند الخصومة وإلا أوقع نفسه في العنت ، وليعلم أنه ليس بمأمن من ارتكاب المحرمات في وقت الخطر ، وعليه كفارة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ هَلَكْتُ فَقَالَ وَمَا ذَاكَ قَالَ وَقَعْتُ بِأَهْلِي فِي رَمَضَانَ قَالَ بَحْدَ رَقَبَةٍ قَالَ لَا قَالَ هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ لَا قَالَ فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِينَ مِسْكِينًا قَالَ لَا قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِعَرَقٍ وَالْعَرَقُ الْمَكْتَلُ فِيهِ تَمْرٌ فَقَالَ اذْهَبْ

¹ (رواه البخاري ج 2 ص 351 رقم 495

² (رواه البخاري ج 6 ص 476 رقم 1772
الْبَاءَةُ : الْجَمَاعُ وَالْقُدْرَةُ عَلَى مَوْثِقَةِ النِّكَاحِ .

أَغْضُ لِلْبَصَرِ : أَشَدُّ غَضًا لِلْبَصَرِ .

وَأَحْصَنَ لِلْفَرْجِ : أَشَدُّ إِحْصَانًا لِلْفَرْجِ .

وَجَاءَ : الْوُجَاءُ : الْخِصَاءُ ، وَذَلِكَ نَظَرًا لِأَنَّ الصَّوْمَ يُضْعِفُ الشَّهْوَةَ فَتُتَبَّعُ بِالْخِصَاءِ . انظر متن عمدة الأحكام للمقدسي ص 99

قال البسام : (هو روض عروق الخصيتين حتى تنفضا ، فتذهب بذهابهما شهوة الجماع ، وكذلك الصوم ، فهو مُضْعِفٌ لَشَهْوَةِ الْجَمَاعِ ، ومن هنا تكون بينهما المشابهة)

انظر تيسير العلام شرح عمدة الأحكام ج 2 ص 45

³ طريق الهجرتين ص 275

⁴ (رواه مسلم ج 7 ص 180 رقم 2491

هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ قَالَ أَعْلَى أَخُو جِ مَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا بَيْنَ لَا بَتَيْتِهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَخُو جِ مَنَا ثُمَّ قَالَ أَذْهَبَ فَأَطْعَمَهُ أَهْلَكَ¹.

كما أن البخل والكسل قرناء ، وهما أول شيء يقرب الإنسان من الزنا لأن البخل مثله مثل سائر البشر يريد أن يفضي شهوته ، لكن بخله يمنعه من الزواج خشية أن ينفق على زوجته وحياله ، فليجأ إلى الزنا إما اضطراراً أو اختياراً ، وقد أغلق على نفسه ما أحله الله له ، مخافة تحمل مشاق الزواج المادية ونفقته ، أما الكريم فإنه لا يبخل أن ينفق في سبيل الله ، وهذا النوع من الرجال يتحمل أعباء الزواج وتكوين أسرة لتحسين نفسه ، ولذلك قيل أن الزواج نصف الدين ، لأن المرء يستعين به على طاعة ربه واجتناب معاصيه ، فيجتهد ليكسب المال من الحلال وينفقه في الحلال .

كذلك الكسل والفراغ والملل قد تؤدي إلى استفاقة الشهوة ، بينما العمل الجاد والحركي يحد منها ، أما من كان عمله لا يتطلب منه مجهوداً عضلياً ، فإنه بحاجة لممارسة الرياضة ، فالرياضة صخرة تتحطم عليها الشهوات ، لا سيما رياضي المشي والجري ، إذ يعد المشي - وقس عليه سائر الرياضات الأشد - المشي أحد الأنشطة البدنية التي تسهم في إعادة توازن الجسم والعقل من خلال عدة آليات فسيولوجية ونفسية من أبرزها :-

- تفريغ الطاقة البدنية الزائدة والمتراكمة سريعاً ، ويقلل من حدة الضغط الجسدي المرتبط بالرغبة ، ولذلك ينصح بالمشي لمدة لا تقل عن 20 دقيقة وبخطوات سريعة نسبياً لضمان بذل مجهود بدني لتغيير الحالة الجسدية والنفسية .
- تحسين المزاج من خلال إفراز هرمون الإندورفين وتعديل هرمون الدوبامين (هرمونات السعادة) ، مما يقلل من الحاجة للبحث عن المتعة للشعور بالراحة
- كذلك يساهم المشي في خفض هرمون التوتر (الكورتيزول) وهو مصاحب للإجهاد ، إذ تنشط الشهوة في كثير من الأحيان كرد فعل ناتج عن التوتر والقلق والضغط النفسي ، فيلجأ الجسم للبحث عن المتعة ليعادل ذلك الشهوة تعتمد على عمل العقل ، فالاسترسال مع الأفكار المثيرة للغرائز يزيد من الرغبة في الإفضاء ، والمشى يعمل على تغيير البيئة وتحويل التركيز العقلي إلى أمور أخرى مثل التفكير في البيئة والكون والمناظر الطبيعية ، لكن ينصح المشي في بيئة صحية بعيدة عن المثيرات البصرية
- تقوية الإرادة والتحكم في الذات ، لأن المشي يدرّب العقل على تأجيل الإشباع الفوري للرغبة ، ولذلك ينصح بالمشي فوراً ومباشرة بمجرد الشعور الملح بالرغبة أو تتابع الأفكار الإلحاحية

قوله (إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) بيت الآية مساءة الزنا بأنه فاحشة وساء سبيلاً ، فكونه فاحشة لأنه يؤدي إما إلى اختلاط الأنساب بإنجاب ولد الزنا دون معرفة أبيه الذي يسهل عليه أن يتهرب من المسؤولية بين ملايين البشر ، ويؤذي مع غيرها وهكذا ، ولن تستطيع القوانين الوضعية أن تضبط المسألة في ظل انتشار الزنا وتنقل الرجال وطوافهم على النساء في جميع البلدان بلا ضابط ، فيكون للرجل أكثر من ولد في أكثر من بلد ، ففضطر الأم لأن تستكمل دائرة الزنى فتزني هي كذلك مع غيره بأجر حتى تقدر على أن تنفق على الولد ، وهكذا يتحلل الجميع من المسؤولية عن الولد ، هذا إذا رغبت الأم في الإنجاب .

¹ (رواه البخاري ج20 ص 422 رقم 6216)

أما إذا لم ترغب فإنها تهجس الولد فترتكب جريمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، أو تتخذ من الوسائل لمنع الحمل ما يؤدي إلى قلة النسل في المجتمع مما يضعفه بل ويهدد الجنس البشري بالانقراض ، وهكذا يصير المجتمع كالقردود ، ينشغل كل قرد بمراودة أثنى غيره ، وتنشغل كل أثنى بمراودة قرد مختلف كل مرة ، ويضحى الأطفال مثلهم قردود بلا راع ، وقد تضطر المرأة للعمل في أعمال لا تتناسب مع ظروفها ، مما يجعل الأولاد عرضة للإهمال والضياع ، وهكذا .

قوله (وَسَاءَ سَبِيلًا) ، لأن به ينخلع المرء من الإيمان ، يقول النبي ﷺ (إِذَا زَنِى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ كَاطِلَةٌ فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ)¹ فالإيمان الظلة أي المظلة أي السحابة التي تحجب أشعة الشمس ، فيستظل بها المرء ، والزنا يزيد هذه النعمة ، فيشعر الزاني بانقطاع ستر الله عنه بمجرد وقوعه في تلك الفاحشة ، لأنه طريق الشيطان كما ذكر الله فقال (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة 268) ، فالشيطان يخوف الإنسان من الزواج مسئولياته ويأمره بالبديل وهو "الزنا" مسولا له أنه بذلك تحلل من التزامات الزواج ومشاكله .

إذ قد يؤدي الاقتراب من الزنا إلى الكفر بالله ، وليس أسوأ من الكفر سبيل ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان راهب يتعبد في صومعة و امرأة زينب له نفسها فوقع عليها فحملت فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها فدفنها فجاءوه فأخذوه فذهبوا به فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : أنا الذي زينب لك فاسجد لي سجدة أنجيك فسجد له فأنزله الله عز و جل (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك) الآية².

قوله (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) (33) هذا أيضا بمناسبة الشح لقول النبي ﷺ (اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)³ ، فقله (وحملهم على أن سفكوا دماءهم) أي (أسالوها بالقوة الغضبية حرصا على الاستئثار بالمال (واستحلوا محارمهم) أي استباحوا نساءهم أو ما حرّم الله من أموالهم وغيرها)⁴.

وقد جاء النهي عن "القتل" بمناسبة النهي عن وأد الأولاد في الصغر ، وإذا تتبعنا بواعث القتل عبر التاريخ، لوجدنا أن التنافس على المرأة يقف في طليعة هذه الأسباب، ولنا في قصة قابيل وهابيل أول شاهد ومآل. حتى إن علماء الاجتماع كادوا يجمعون على أن المرأة قاسم مشترك في معظم الجرائم؛ إما جانية، أو مجنّية عليها، أو محرّضة، أو المحرك الخفي وراء الحادثة.

ولو اختزلنا دوافع القتل لدى الرجال، لرددناها غالبًا إلى رغبة في الانتقام أو تطلع لكسب المال والسلطة؛ بيد أن هذا الانتقام ليس إلا وليد مهانة أو نكاية، والتكالب على المال والجاه إنما غايته في كثير من الأحيان نبيل حظوة لدى

¹ (رواه أبو داود ج12 ص 300 رقم 4070 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج10 ص190 رقم 4690

² (رواه الحاكم في المستدرک ج2 ص 526 رقم 3801 وقال الذهبي في التلخيص صحيح

³ (رواه البخاري ج1 ص 170 رقم 483

⁴ (التبشير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 58

المرأة وإرضاءها. وهكذا، مهما تسلسلت بواعث الجريمة وتشابكت حلقاتها، تظل المرأة حاضراً محورياً في فلكها. ولما أسرف بنو إسرائيل في سفك الدماء حتى طالت أيديهم الأنبياء، كشف النبي ﷺ عن المبتدأ والسبب الباعث على هذه الغواية والفتنة بقوله (فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)¹.

قوله (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) (33) يعني أن جريمة القتل تمثل عدواناً كبيراً على المجتمع ، فبسببها يفزع أفرادها ، وتغل الصدور ، ويشرع أهل القتل في الانتقام لشفاء غليلهم ، ما قد يدفع ولي الدم إلى تجاوز حق القصاص فيسرف في قتل أعداد من أهل القاتل بلا ذنب ، ولذلك شرع الله القصاص من القاتل أيا كانت مكانته لأجل حق أهله ، قال تعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة 179).

ولأجل شفاء الغليل لم يجعل الشرع عقوبة القتل "حداً" ، وإنما جعلها "قصاصاً" ، ولم يجعل حق استيفائه بيد الإمام ، بل جعل لصاحب الدم من أهل القتل الحق في أن يستوفيه بنفسه ، وذلك بعد إذن الإمام ، ويجب أن يشرف الإمام على القصاص ليتأكد أن صاحب الدم يستوفي حقه بلا زيادة أو عدوان .

ولولي الدم أن يختار بين القصاص أو الدية أو العفو ، فله أن يقتص من الجاني أو أن يقبل الفدية — المال تعويضاً — أو أن يعفو عن القاتل بلا عوض إذا رأى منه توبة وسامحه ، وليس له بعد العفو قصاص ولا دية .

أما لو صدرت الجناية من عدة أشخاص تعاونوا وتمالأوا على القتل هنا يخرج تكييف الجريمة من إطار جريمة القتل العمد ليصير جريمة حراية ، وهي حد من حدود الله تعالى ، ولذلك فإن الجناة إن تعددوا يقتلون حداً لا قصاصاً ، قال عمر بن الخطاب (لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً) أي (لو اتفق وتواطأ أهل صنعاء كلهم على قتله لقتلهم به قصاصاً) ، فعن ابن عمر : « أن عمر ، قتل سبعة من أهل صنعاء اشتركوا في دم غلام وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم جميعاً »² .

ويخرج من مفترضات المسألة كذلك إذا لم يكن المقتول مظلوماً ، بأن كان عادياً ، فلجأ المعتدى عليه الدفاع عن نفسه من عدوانه فاضطر لقتل المعتدي ، فذلك يسمى بالدفاع الشرعي ، فالدفاع الشرعي حق يخول لمن وقع تحت تهديد من الغير أو وجد غيره تحت هذا التهديد أن يستخدم القوة اللازمة لدرء التهديد قبل أن يحصل له أو لغيره سواء أكان محل التهديد الدين أو العرض أو النفس أو المال .

لكي يكون الدفاع مشروعاً باستخدام القوة ، يجب أن تتوافر فيه شروط معينة في فعل الاعتداء ، وشروط أخرى في فعل الدفاع.

أولاً: شروط الاعتداء (توقع الخطر) بأن يكون وشيك غير مشروع يهدد النفس أو المال

¹ (رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925)

² (رواه البيهقي في سننه الصغرى ج6 ص 375 رقم 3369 وصححه الألباني : مختصر إرواء الغليل ج1 ص 437)

1- بأن يكون الخطر حالاً أو وشيك الوقوع : لا يمكن دفعه إلا باللجوء لوسائل الدفاع الشرعي ، فلا يتسنى وقتل للجوء للسلطات العامة .

2- أن يكون الاعتداء غير مشروع : يجب أن يكون فعل المعتدي يمثل عدواناً منهياً عنه ، أما إذا كان الفعل مشروعاً، فلا يجوز مواجهته بالدفاع الشرعي ، مثل الحق في التأديب أو الأعمال القضائية كالقبض أو المصادرة أو التفتيش .. الخ

3- أن يهدد الخطر النفس أو المال : سواء كان هذا الخطر مهدداً للشخص المدافع نفسه أو لشخص آخر يدافع عنه ، وسواء أكان محل العدوان هو النفس أو المال ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)¹، وفي رواية عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ أَوْ دُونَ دَمِهِ أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)²

ثانياً: شروط فعل الدفاع الضرورة والتناسب في الرد

1- اللزوم (الضرورة) أن يكون الدفاع هو الوسيلة الوحيدة والضرورة لرد الاعتداء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخَذَ مَالِي قَالَ فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي قَالَ قَاتِلْهُ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي قَالَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ قَالَ هُوَ فِي النَّارِ)³
فإذا كان بإمكان المعتدى عليه الاستعانة بالسلطات العامة لمنع الاعتداء أو وقفه ، فلا يُشرع قتل الجاني إذا كان يمكن منعه بالضرب أو الإمساك به، أي استخدام الحد الضروري من القوة لصمد الخطر .

2- التناسب : يجب أن يكون فعل الدفاع متناسباً مع جسامة الاعتداء (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشورى: 40) (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) (البقرة: 194)

ومن يتجاوز حق الدفاع الشرعي لا يسأل عن قتل عمد ، بل يسأل عن إساءة استعماله ، فتكون العقوبة تعزيرية

قوله (..فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ..)(33) فإذا كان لولي الدم سلطان ، فسلطانه مقيد بعدم الظلم ، فكل تجاوز للحق المقدر شرعاً—سواء في (صفة القتل) كالتمثيل، أو (محل القتل) كقتل بريء ، أو قتل بعد العفو ، فهو إسراف يدخل تحت النهي الإلهي، قال تعالى (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة: 178).

وقد بنى الفقهاء على هاتين الآيتين عدة مفترضات للإسراف تحدد الصور التي يعد فيها الشخص "مسرفاً" في القتل وأحكام فقهية لكل حالة ، وتتلخص في الآتي:-

قتل غير القاتل : فإذا كان القاتل ضعيفاً أو ضعيفاً لا يؤبه له اغتياض أهل القتل ، فلم يرضوا بقتله ، بل يقتلون مكانه سيد قبيلته أو يقتلون جماعة بواحد أو أقاربه ممن لهم شأن في القبيلة ، فهذا من الإسراف في القتل المنهي عنه
التمثيل بجثة القاتل : كقطع أطراف القاتل، أو حرقه، أو التمثيل بجثته قبل قتله أو بعده، فهذا من الإسراف المنهي عنه.

¹ رواه البخاري ج 8 ص 377 رقم 2300

² رواه أبو داود ج 12 ص 388 رقم 4142 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 10 ص 272 رقم 4772

³ رواه مسلم ج 1 ص 340 رقم 201

القتل بعد سقوط القصاص كأخذ الدية أو العفو : إذا رضي أولياء المقتول بالدية ، أو أعلنوا عفوهم عن القاتل ، ثم قام أحدهم بعد ذلك بقتل الجاني غدرًا ، فهذا من الإسراف في القتل ، و(يُقتل) به الجاني المعتدي .

تولي القتل دون إذن الحاكم : قال الفقهاء (ولا) يجوز أن "يستوفي قصاص إلا بحضرة سلطان أو نائبه" لافتقاره إلى اجتهاده وخوف الحيف ولا يستوفي إلا "آلة ماضية" وعلى الإمام تفقد الآلة وليمنع الاستيفاء بآلة غير حادة لأنه إسراف في القتل ، ويُنظر في الولي فإن كان يقدر على استيفائه ويحسنه مكنه منه ، وإلا أمره أن يوكل¹.

فإذا بادر ولي الدم بالقتل مباشرة دون ثبوت الجريمة عند القاضي ودون إذن منه ، فقد أساء استعمال حقه ، وتجاوز حدوده ، بل لا بد أولاً من أن تستكمل سلطة التحقيق والتحقيق في المسألة ويدان الجاني بحكم قضائي ثم يشرف على التنفيذ أهل التنفيذ القضائي لضمان عدم الحيف والاعتداء والمثلة ، أما إذا ما اقتصر أهل القتل من الجاني دون استئذان السلطان أو متى تجاوز السلطان عن حقهم في القتل فلم يقتصر لهم أو لم يأذن بالقصاص ، هنا ينظر في أمرهم بين شيئين :-

الأول إن لم يقدروا على إقامة الحجة أو كان ثمة شبهة في حقهم حوسبوا على جريمة القتل العمد .

الثاني ، أنه لو اقتصر ولي الدم من القاتل دون استئذان السلطان ، لكنه استطاع إثبات الجريمة وأثبت حقه في الاستيفاء² ، فإنه يحاسب على **جريمة الافتئات على السلطان** درأً لشبهة الإسراف في القتل دون دليل ، لاسيما وأن المفتتت ليس جهة تحقيق ولا يملك القدرة على ذلك .

وقوله (إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) عبارة تقطر بالطمأنينة، وتسكب في قلب كل مستضعف يقيناً بأن العدالة الإلهية في صفه ، وأن انقطعت عنه أسباب الأرض، إذ يعده الله بالنصر ، فصار مكتوباً له لا يملك أحد رده ، وتلك ضمانة ربانية أزلية تؤكد أن النصر ليس مجرد احتمال بل هو "حتمية إلهية" مقررة مسبقاً في علم الله ، فالنصر واقع لا محالة ، وقبل أن تبدأ المعركة ، فكلمة "كان" تفيد الثبوت والدوام ، أي أن هذه سنة الله في خلقه ، **والبناء للمجهول** في قوله (مَنْصُورًا): جاء على صيغة اسم مفعول ، لأن المنصور هنا رمزٌ للمظلوم الذي كُسرت نفسه فجبره الله ، وحُذف الفاعل لتعظيمه، فالمعلوم أن الناصر هو الله وحده، وفي ذلك تجسيدٌ للحق الذي مهما توارى خلف غبار الباطل، فإن عاقبة أمره هي الظهور والغلبة ، وتنكير كلمة "منصوراً" يفيد الإطلاق والشمول، أي أنه منصور بكل أسباب النصر، وبكل جنود السماوات والأرض التي لا يعلمها إلا هو.

بتلك الاجراءات شفى الله صدر أهل القتل من القاتل ، بأن جعلهم ممكنون من القصاص بسلطان الشرع دون حيف أو إسراف .

قوله (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) (34) هذا أيضاً من الشح الذي يحمل صاحبه على التغول على أموال اليتامى التي ليس لها حارس ، فالبخل يدفع صاحبه إلى الشح ، والشح يدفعه إلى غمط حقوق الناس ، ويدفعه إلى الاقتراب من مال اليتيم بغير التي هي أحسن له ، لسهولة الوصول إليه عن غيره من الأموال التي عليها حارس ، فكانت النصيحة بعدم الاقتراب من هذا المال ليكون في حوزة أهل الحسبة فهم الذين يميزون

¹ (الروض المربع شرح زاد المستنقع ج 1 ص 418)
² (ويكاد يكون ذلك فرضاً نظرياً ، لاسيما وأن القاتل قد قتل قبل أن تثبت الجريمة عليه ، ودون أن يمكن من أن يدافع عن نفسه .

التصرفات التي تنفع اليتيم نفعا محضاً ويطلبون تلك الضارة به ضرراً محضاً ، ويقدرّون التصرفات الدائرة بين الحسن والقبح فيجيزونها بقدر حاجة اليتيم للمصلحة ودفع الضر عنه ، وذلك كله حتى يبلغ اليتيم ويؤنس منه الرشد فيُدفع له ماله حينئذ .

قوله (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) ناسب ذكر العهد مع آية الإيصاء بحفظ مال اليتيم ، ذلك أن اليتيم يُتعهد برعايته وحفظ نفسه وماله وصيانتهم عند أهل العهد ، ولا يجوز أن يتعهد بذلك أهل الخيانة وغير جديري الثقة ، ولا حتى مستوري الحال ، فإن المسؤولية لا تعطى إلا لأهلها ، وهم من عُرفوا بالصلاح والتقوى ، فضلاً عن الأمانة والقوة ، فالمسؤولية لا بد لها من ذنك الأمرين ، فبمعيار الأمانة يُقدم أقرباء الصغير باعتباره أكثر أمانة به عن غيره ، ووفقاً لمعيار القوة يقدم الرجال على النساء ، فتكون الولاية على النفس لعصابتها ومن باب أولى الولاية على المال .

ومن جهة أخرى فإن عقود الصلح التي بما تحقن الدماء يجب الوفاء بشروطها والتزاماتها ، فالإخلال بالوفاء بما قد يؤدي إلى نشوب الصراع مرة أخرى ، ولذلك تعين احترام العهود حتى لا يؤدي الإخلال بالمسؤولية العقدية إلى مزيد من سفك الدماء المحرمة .

فَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)¹ فإذا كان هذا في حق المعاهد غير المسلم (المستأمن) بأمان مؤقت ، فكان دم "الذمي" أولى بالإحصان ، وكذلك دم المسلم أولى بذلك كذلك ، وكل ذلك بكلمة العهد التي راع الشرع حفظها .

قوله (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)(35) كذلك من صور البخل المذموم الذي يؤدي بصاحبه إلى تضييع حقوق الناس الغش التجاري ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالُ أَمِنْ خِلَالٍ أَمْ مِنْ خَرَامٍ)².

فالكيل هو الإناء الذي يقيس حجم المبيع ، فتكال به السوائل كاللبن ، أما الوزن فهو طريقة آلة الميزان لقياس كتلة الجوامد كاللحم ، وكلا الآتين قد يتفاوت فيهما الوزن أو الكيل ، فيسهل الغش بهما ، إما بتطفيف الميزان ، وعدم الكيل للناس بالقسط .

قوله (..ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) أي (وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة)³ ، لأن ربح التجارة بالصدق والأمانة يزيد ، وبغير ذلك يضيع ، كما في القول المأثور (من أصاب مالا في غش الله في نهابه)⁴ ، وعن النبي ﷺ قال "من جمع مالا حراماً، ثم تصدق به، لم يكن له فيه أجر، وكان إصره عليه"⁵.

¹ رواه البخاري ج10 ص 423 رقم 2930

² رواه البخاري ج7 ص 256 رقم 1942

³ أحمد محمد بوقرين - ماجستير أصول دين- بالجامعة الأمريكية المفتوح : الأحكام والآداب المستفادة من سورة الإسراء ج1 ص 15

⁴ جمع الجوامع للسيوطي ج1 ص 21880

قوله (وَلَا تَقْفُ¹ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أي لاتتبع مالا تعلم ولا يَغْنِيكَ²، قال ابن عاشور (والمراد به الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظن به)³، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ)⁴ أي (لو لم يكن للرجل كذب إلا تحدثه بكل ما سمعه لكفاه في الكذب لأن جميع ما يسمعه ليس بصدق بل بعضه كذب فلا يتحدث إلا بما علم صدقه)⁵.



قَالَ الشَّافِعِيُّ (وَلَا يَسْعُ شَاهِدًا أَنْ يَشْهَدَ إِلَّا بِمَا عَلِمَ)⁶، فإذا شهد بغير علم فذلك يعادل قول الزور، ولذلك قال ابن حنفية أن المراد بالآية (شهادة الزور)⁷، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ثَلَاثًا أَوْ قَوْلُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يُكْرَهُمَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ)⁸، قال ابن جرير الطبري (لأن القول بما لا يعلمه القائل يدخل فيه شهادة الزور، ورمي الناس بالباطل، وادعاء سماع ما لم يسمعه، ورؤية ما لم يره).

وللأسف كثير من النقاد يتسرعون في نقد الآخرين دون أن يكون لهم علم كافٍ بأعمالهم أو تفسير كامل لأفعالهم، فينتقدونهم بظن أقرب إلى الجهل بحالهم وأحوالهم، وللأسف يتبعهم كثير من الناس في النقد فيزدادون نقدا لهم وتشويها لصورتهم وأعمالهم لجرد أن أحد الناس الموثوق به انتقده.

ومثال ذلك الرازي الذي انتقده الإمام ابن تيمية لأنه نسب إليه تأليف كتاب في السحر، فلما علم الإمام بتوبته ورجوعه للحق ومذهب أهل السنة والجماعة أثني عليه ومدحه، فأخذ الناس من ذلك أن علم الرازي لا يؤخذ به، ولم ينتبهوا لمدح ابن تيمية له، وهذا من الجهل بحالة الرازي وأحواله بعد توبته، لاسيما وأن كثير من النقاد يشككون في نسبة كتاب السحر له، وأيا كان الأمر فشهادة شيخ الإسلام في تكفي في حقه، لاسيما وأن كتابه في تفسير القرآن مفاتيح الغيب يدل على منهجه، لاسيما وأنه ترك المعتزلة ثم انحاز لأهل السنة والجماعة.

قوله (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (36) والمعنى أن كل إنسان مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده، قال قتادة: (لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله)⁹.

أخرجه أيضاً: القضاعي (271/1 رقم 441)، والرامهرمزي (162/1 رقم 137) قال العجلوني (295/2): ومن غريب الحديث: ((نهاوش)): مظام، وإجافات بالناس. من قولهم: نهشه إذا جهده، والمنهوش المجهد. ((نهاوش)): مهالك.

⁵ (رواه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما ج 8 ص 153 رقم 3367 وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج 1 ص 214)

(1) القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا اتبعه، وهو مشتق من اسم القفا، وهو ما وراء العنق. واستعير هذا الفعل هنا للعمل

² الجباني: التبيان تفسير غريب القرآن ج 1 ص 266

³ التحرير والتنوير ج 14 ص 80

⁴ (رواه مسلم ج 1 ص 15 رقم 6)

⁵ التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج 2 ص 404

⁶ (رواه البيهقي في سننه الكبرى ج 10 ص 156)

⁷ (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 161)

⁸ (رواه البخاري ج 21 ص 237 رقم 6408)

⁹ (تفسير ابن كثير ج 5 ص 75)

، قال القاسمي (قدم السمع ؛ لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه ، وآخر الفؤاد ؛ لأنه منتهى الحواس ، ولم يذكر بقيتها ؛ لأنه لا يخالفها قول أو فعل)¹ .

فلا يجوز أن ينقل ما يسمع دون أن يتثبت ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ)² ، فلا يقول سمعت ما لم يسمع بيقين دون تشويش أو تضارب أقوال .
فعن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)³ ، قال النووي (وهذا صريح في أَنَّهُ يَنْبَغِي لَا أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ خَيْرًا ، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ ، وَمَتَى شَكَّ فِي ظُهُورِ الْمَصْلَحَةِ ، فَلَا يَتَكَلَّمَ)⁴ .

مثل شهادة أخوة يوسف على أخيه الأصغر شهدوا عليه بالسرقة ولم يسرق ، فقالوا (يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ) ، واستندوا في شهادتهم لما نقل لهم من اتهمه بالسرقة ، فظنوا أنه علم فقالوا (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) (يوسف 81) ، بل شهدوا على يوسف نفسه بالسرقة ، وهم الذين سرقوه إذ قالوا (قَالُوا إِنَّ يَسْرُقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (يوسف 77)

ولا أن يشهد بما يبصر دون أن يتحقق، ويقول رأيك ولم ير حقا رؤية كاملة للمشهد ، فعن ابن عباس "أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الشهادة، فقال: هل ترى الشمس؟ على مثلها فاشهد أو دع"⁵، ومثال ذلك كأن يرى أحد المنافقين رجل صالح وامرأة صالحة راجعين من طريق سفر ، فيقول والله ما سلمت منها ولا سلم منها ، يعرض بالزنا ، ولا يعذرهما .

ويقول علمت وتأكدت وتيقنت ولم يصل ذلك لفؤاده ، فهو مسئول عن شهادته التي يؤكد بها تلك الحواس ما لم يكن حقا ، قَالَ تَعَالَى (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فالشهادة لا بد وأن تقترن بالعلم اليقيني وليس الظن وحسب .

كذلك المرء أمين على قلبه ، فلا يتساهل في المحبة والكره ، بل يجب أن يميز بين الناس على أساس التقوى ، ولا يستهن بمن يعرف ، فيحب هذا ويكره ذاك دون أن يعامله أو يجاوزه ، فعن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يُعَوَّدَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ)⁶ .

¹ محاسن التأويل للقاسمي - الآية

² رواه مسلم ج 1 ص 15 رقم 6

³ متفق عليه

⁴ رياض الصالحين ج 2 ص 175

⁵ كنز العمال في سنن الأقوال ج 7 ص 23 رقم 17781

⁶ رواه البخاري ج 1 ص 26 رقم 15

فالمشاعر والعواطف ليست مجرد انفعالات عشوائية لا تملك السيطرة عليها، بل هي أمانة استودعها الله فينا ، تماماً كما يحافظ الإنسان على ماله أو عرضه، فيتوجب عليه - كذلك - حماية قلبه من الأفكار المضلة والمشاعر الزائفة التي قد تقوده إلى الظلم أو البغي وهو لا يدري .

فيقع الكثير من الناس في فخ "التساهل العاطفي"، حينما يطلقون العنان لمشاعر الحب أو البغض بناءً على انطباعات أولية أو تأثراً بأراء الآخرين أو لمجرد توافق في الأمور السطحية (كالمظهر أو المصلحة المؤقتة) ، **فالحب الأعمى** قد يدفع بصاحبه للدفاع عن باطل، **والكره الأعمى** قد يحجبه عن رؤية الحق والعدل.

فلا بد إذن من ضبط المشاعر ، وهو ما يتطلب تدخل العقل في المشاعر كمراقب وموجه ، فلا يُمنح الحب إلا لمن يستحقه، ولا يُوجه الكره إلا للفعل السيئ لا للشخص ذاته بشكل مطلق ، بل ينبغي للإنسان العاقل ألا يسلم قلبه لهواه ، ولا يقيم الناس بالظن أو من الانطباعات الأولى ، بل يترث حتى يرى أثر "التقوى" في المعاملة والمجاورة ، لئلا يمشي مشاعره على الحب في الله والبغض في الله ، دون ظلم أو إجحاف بقدر أو حق أحد .

قوله **(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)**(37) يقول السعدي أي (لا تتكبر على الخلق بمشيتك ، فإن التكبر من أرذل الأخلاق ، والمتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه في مقام رفيع على الخلق ، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه ، مبعوض محتقر قد نزل بخلقه هذا إلى أسفل سافلين ، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه ، وحصل على نقيضه)¹.
ومن مضار الكبر كذلك أن المتكبر لا يدخل الجنة ، فعن النبي ﷺ قال «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرِيَاءٍ»².



فالشرعية الإسلامية أوجبت التواضع قال رسول الله ﷺ (إن الله عز وجل أوحى إلى أن تواضعوا)³ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَحَّثُ يَمْشِي فِي بُرْدِيهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)⁴
فمشية التبخر تدل على انعدام الشعور بالمسئولية ، والشعور باللامبالاة ، فتراه يمرح في الأرض بغير الحق ، كما في قوله (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ) (74) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (غافر/76)

¹ (السعدي : تيسير اللطيف المنان ج 1 ص 108

² (رواه مسلم ج 1 ص 248 رقم 132

³ (رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 153 رقم 436 ومسلم في صحيحه ج 14 ص 24 رقم 5109

⁴ (رواه مسلم ج 10 ص 459 رقم 3895

حيث يعيش اللحظة الآتية ، يستمتع بها ولا يبالي بمن حوله ، ولا بمسئوليّاته تجاههم ، يقول سيد قطب (والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان أو قوة أو جمال ، ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هوناً لا تيهاً ولا مرحاً)¹.

والسنة أن يمشي الإنسان مسرعاً والتواضع شيمته ، قال ابن كثير (وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب، وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار)²
وروي عن أبي هريرة قال ما رأيْتُ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الشَّمْسُ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ)³ قوله : لغير مكترث أي شاق والاكتراث الأمر الذي يشق على الإنسان.

قوله (...إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)(37) قال الرازي (قيل : أن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل : إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها ، وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤوس الجبال ، والمراد التنبيه على كونه ضعيفاً عاجزاً فلا يليق به التكبر

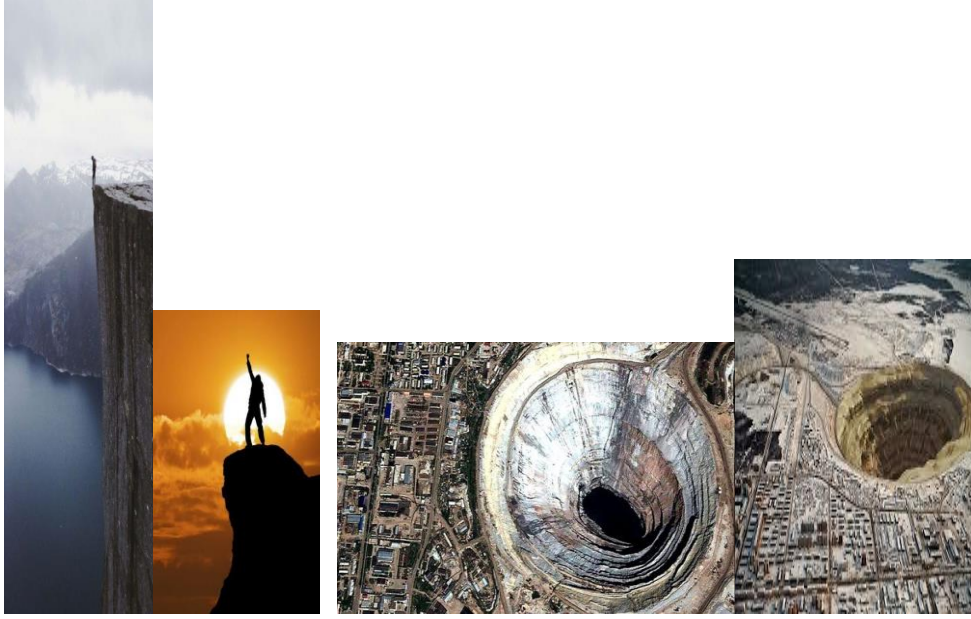
وقيل المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها ، وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فأنت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد ، وأنت أضعف منهما بكثير ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له : تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي)⁴

¹ في ظلال القرآن ج5 ص 21

² تفسير ابن كثير ج6 ص 122

³ رواه الترمذي ج12 ص 104 رقم 3581

⁴ تفسير الرازي ج10 ص 56



فقد عجز الإنسان أن يخرق الأرض بمعداته ، إذ تقع أعمق الحفرة في الأرض في شبة جزيرة كولا حيث محطة الأبحاث العلمية السوفيتية حيث بدأ العمل في مشروع بئر كولا لاستكشاف القشرة الأرضية والذي انتهى به المطاف إلى أن تم تغطيته بغطاء معدني وكتب عليه العمق التي تمكنت المعدات من حفره قبل توقف العمل نهائياً في بئر كولا، ويصل عمقها إلى 12.2 كيلومتر كأكبر ثقب أو حفرة أو بئر من صنع البشر في التاريخ، وعلي الرغم من العمق الذي قد يبدو كبيراً إلا أنه لا يمثل إلا ثلث سمك القشرة الأرضية ناهيك عن سماكة باقي طبقات القشرة الأرضية السابعة التي تصل إلى مسافات سحيقة.

وبعد قرابة العشرين عاماً من العمل من ١٩٧٠م حتى عام ١٩٨٩م توقف مشروع بئر كولا.. ويرجع السبب في توقف العمل والحفر في بئر كولا بشكل قصري هي الحرارة المفرطة التي بلغت حوالي 200 درجة سيلسيوس، فبسبب درجة الحرارة الخيالية توقفت المعدات وأصبحت أعطال تقنية من المستحيل إصلاحها عن بعد... وتوصل العلماء وفقاً لنص بالقرآن الكريم أن البشر مهما توصلوا لعلم وتكنولوجيا ومعدات وغيرها لن يتمكنوا من خرق الأرض أو حتى عمل حفر سحيقة تتجاوز ولو قليلاً مما وصلوا إليه في بئر كولا أقصى عمق قد وصل إليه البشر¹

يقول الدكتور زغلول النجار (الآية الكرمة تنهي الإنسان عن المشي في الأرض بشئ من الاختيال والتكبر والفرح الزائد، والمرح المستفز والافتخار غير المبرر، وذلك لأن الإنسان مهما تعاظمت إمكاناته المادية والمعنوية فإنه لن يستطيع أن يخرق الأرض لضخامة أبعادها، ولشدة حرارة جوفها التي تصهر كل أجهزة الحفر بعد ثلاثة عشر كيلومتراً من سطحها، وهذه المسافة تمثل حوالي واحداً من ألف من طول قطر الأرض)².

1 (البوابة : مقال بعنوان أعمق حفرة من صنع الإنسان : بتاريخ 2023/2/12 - <https://www.albawabhnews.com/4522776> الكرة الأرضية مليئة بالحفر الطبيعية والصناعية التي قام البشر بحفرها من أجل أهداف معينة، تتفاوت عمق ومساحة تلك الحفر ولكن هناك حفرة بعينها تعد أكبر حفرة من صنع الإنسان في التاريخ، حيث حاول الإنسان مراراً حفر الأرض لاكتشاف طبقاتها على غرار غزوه للفضاء، وبينما كان سباق السفر إلى القمر على أشده بين أمريكا والاتحاد السوفياتي في ستينيات القرن الماضي، بدأ السوفيت عام 1970 في حفر أعمق حفرة حفرها الإنسان في تاريخ البشرية تحت اسم حفرة "كولا" أو كما يعرف ببئر كولا.

2 (من أسرار القرآن : الآية 37 الإسراء – جريدة الأهرام العدد 46124 بتاريخ 19 مارس 2013 <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/763/41/137391/>

قوله (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) (38) أي أن هذه الأخلاق سيئة ومذمومة ، فهي مكروهة بالشرع كراهة تحرعية ، ومكروهة بالفطرة وبالعقل السليم ، فالفطر السليمة والعقول الراجحة تأبى هذه الأخلاق وترفضها .

والشاهد على جواز الاحتكام للعقول الراجحة والفطر السليمة حديث أبي أمامة قَالَ إِنَّ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَدْنِي لِي بِالزَّيْنَةِ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَرَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ أَذْنُهُ قَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأَمِّكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأَخْتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِحَالَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِحَالَتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ¹.

قوله (ذَلِكَ بِمَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) (39) قال ابن العربي الحكمة هي (الْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ)² ، أي أن ما أوحى الله به في هذه الوصايا المذكورة المطلوب هو العمل به ، قال الشوكاني (الإشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله "لا تجعل مع الله إلهاً آخر" (الآية/22) إلى هذه الغاية (الآية/39) وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفاً (مما أوحى إليك ربك) أي من جنسه أو بعض منه ، وسمي حكمة لأنه كلام محكم وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها الفساد وعند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته)³

قوله (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا) (39) تكرر النهي عن الشرك ، فكما بدأت الآيات الوصايا الربانية بالتوحيد في قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) والنهي عن الشرك قوله "لا تجعل مع الله إلهاً آخر" (الآية/22) اختتمت تلك الوصايا كذلك بالتوحيد بقوله (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) ليكون التوحيد أول الوصايا وآخرها .

وهنا وصف المشرك بعد الإلقاء في جهنم بأنه ملوم مدحور ، لأن السياق هنا يتحدث عن الجزاء ، فهو ملوم على ما أشرك بالله ، ومطرود من رحمة الله ، مدحور يعني مطرودا مبعدا ، أما في بداية الوصية وصف بأنه مذموم مخذول ، فهذا حاله في الدنيا ، حيث يذمه أهل الإيمان لشركه ويخذله أنصاره من الشركاء ، أما في الآخرة فإنه يلقي في جهنم عقوبة له ملوم مدحور .

قال أبو حيان الأندلسي (والفرق بين مذموم وملوم أن كونه مذموماً أن يذكر أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح منكر ، وكونه ملوماً أن يقال له بعد الفعل وذمه لم فعلت كذا وما حملك عليه وما استفذت منه إلا إلحاق الضرر بنفسك ، فأول الأمر الذم وآخره اللوم ، والفرق بين مخذول ومدحور أن المخذول هو المتروك إعانته ونصره والمفوض إلى نفسه ، والمدحور المطرود المبعد على سبيل الإهانة له والاستخفاف به ، فأول الأمر الخذلان وآخره الطرد مهاناً)⁴.

¹ رواه أحمد ج 45 ص 180 رقم 21185 السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج 1 ص 369 رقم 370

² أحكام القرآن لابن العربي ج 5 ص 270

³ فتح القدير ج 3 ص 327

⁴ البحر المحيط ج 7 ص 358

المحور الثالث

منهج القرآن في شرح عقيدة التوحيد

وذلك بتبسيط العقيدة تأصيلاً وتدليلاً وسرد أقوال الكفار وشبهاتهم وتلقين النبيين إحسان القول معهم في مقام الدعوة توطئة لمحاقتهم في عقيدتهم .

وفيه عدة مسائل :-

- شرح معنى التوحيد باستبعاد تصور غيره
- الدعوة للنظر في توحيد المخلوقات لله
- نفور الكفار من عقيدة التوحيد استكباراً
- نفور الكفار من شخص النبي حسداً
- نفور الكفار من اليوم الآخر تحللاً من المسئولية
- إحسان القول للكفار في مقام الدعوة واجب
- محاجة المشركين في عقيدتهم

قال تعالى (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَتَعَوَّا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا (44) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَتْ فِي الْقُرْآنِ حِدَةً وَلَوْ أَنَّهُمْ أَذْبَاهِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48) وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57)

المسألة الأولى : شرح معنى التوحيد باستبعاد تصور غيره

قوله (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (40) ناقش القرآن الكريم هذه القضية في مواضع شتى، وجاءت مناقشتها في هذا الموضع تحديداً تعقيباً وتأكيذاً على ما سبق من تقرير توحيد الألوهية؛ فالكفار قد انتقصوا من جناب الحق جلّ وعلا بادعائهم البنوة له، واصطفائهم الملائكة ليكونوا بناتٍ له بهتاناً وزوراً، ولا جرم أن هذا الافتراء جرمٌ مشهود، وقولٌ عظيم.

فمن أشد تلبيس الشيطان على الكافرين إلقاء هذه الشبهة لهم بأن الملائكة بنات الله ، وأن عبادة الكفار للملائكة هي عبادة الله ، وهم في الحقيقة عبادة للشياطين ، قال تعالى (وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) (سبأ 41) ، وقال تعالى (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (النساء 117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) (النساء 118) .

والقرآن حين تعرض لهذه الشبهة خاطب المنطق البشري بطريقة الاستفهام الاستنكاري ، هل يعقل أن تنسبون لله البنات وقد اختار لكم أن تنجبوا بنين وبنات ، يعني هل يعقل منكم أن تختاروا الله ما لا تختاروه لأنفسكم ؟ فيكون للبشر حظ من الملك أكثر من حظ الله لو ساع عقلا أن يتخذ ولدا ، (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الزمر 4)

فحاشا لله أن يتخذ ولدا ، فاتخاذ الله الولد بطريق الشهوة ممتنع عن الله ، لأن في ذلك إبطال لحقه تعالى في الإيجاد والخلق من عدم ، دون حاجة للتوالد والتناسل ، وفي ذلك انتقاص من حق الله في التفرد والألوهية ولذلك يستنكر الله تعالى ذلك عليهم ، فيقول سبحانه (أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام 102)

قوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (41) نوع القرآن الكريم وجوه الدلالة وصنوف العبر، وسلك شتى طرق الاستدلال العقلي والوجداني؛ ليرد الناس إلى الفطرة السوية ويُبطل شبهاتهم في العقيدة.

يقول الشاعر :- لبيد بن ربيعة العامري :-

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي ... حَتَّى كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالَا

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَمَصْرَفٍ عِبْرَةٌ ... يُصْرِفُ اللَّهُ تِلْكَ الْأَمْثَالَا

غير أن هذا البيان المعجز والمصرف في القول من كل مثل لم يجد لدى صناديد الشرك إلا عتوّاً ونفوراً؛ ذلك أن دعوة التوحيد صادفت نفوساً متورمة بالكبر، مستسلمة لسطوة الهوى، حيث تحوّل "الهوى" في أعماقهم إلى إله متبوع يرفض الانقياد لرب العزة (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) (الفرقان 43)، من هنا رأى كل واحد منهم في إخلاص العبادة لله وحده تهديداً لامتيازاته المتهومة، وأنفةً كاذبة حجبت عنه أن يكون عبداً خالصاً لله.

ولما أحكم كتاب الله خناق الحجة عليهم، ونفى نفياً قاطعاً شبهة الشريك والولد، لجأ المشركون إلى حيلة "الوساطة" الباطلة للالتفاف على حقيقة التوحيد، فصنعوا لأنفسهم موقعاً وسطاً بين الإله الخالق وبين العابدين. ومن رحم هذا المبدأ الفاسد، شرعوا لأنفسهم حصانة دينية موهومة، وتطورت الوساطة حتى اتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله؛ فزعموا أن بركة الإله تنزل أولاً عبر أنبائه وسدنته، حتى آل الأمر بجهلهم إلى عبادة الملوك والأمراء والكبراء بحجة أنهم قنوات الاتصال بالمعبود. وهكذا تحول لجوؤهم للوسائط إلى ذريعة سياسية واجتماعية لتكريس الطبقة والاستعلاء البشري، فكلما زادهم القرآن بياناً وتنزيهاً لله، زادهم ذلك نفوراً وتشبهاً بأربابهم المزيفة حماية لعروشهم ومصالحهم الضيقة.

قوله (..وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (41) بين القرآن في موضع آخر كيف ينفرون من الموعظة كما تنفر الحمر من الأسد، فقال تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ) (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (المدثر/51)

وقد ألمح الشعراوي إلى سبب نفورهم وإعراضهم إنَّ سبب إعراض يهود المدينة عن الإسلام وجحودهم بنبوة محمد ﷺ رغم يقينهم بصدقه ومعرفتهم الدقيقة بأوصافه وزمن بعثته. يرجع إلى خوفهم من زوال "سلطتهم الزمنية"، وهي تلك السيادة الشاملة (العلمية، والاقتصادية، والعسكرية) القائمة على احتكار صياغة القوانين باسم الدين لتحقيق مصالحهم، تماماً كما فعل الكهنة عبر التاريخ، لكن لما أدرك الناس أن الكهنة يغيرون الأحكام بأهوائهم انصرفوا عن حكمهم ووضعوا لأنفسهم قوانين وضعية زمنا طويلا مثل قوانين جستنيان بين عامي 529 و534 ميلادية، بواسطة لجنة من الفقهاء برئاسة "تريونيان"؛ فلما جاء النبي محمد ﷺ بالرسالة أدركوا أن الرسالة الجديدة ستسلبهم هذه النفوذ والمكتسبات، آثروا الكفر بما حفاظاً على جاههم وسلطانهم¹.

في قوله (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) تتجلى حجة قرآنية باهرة تدحض شبهة الشرك بمسلك عقلي رصين؛ إذ تقرر الآية -على سبيل الفرض الجدلي- أنه لو كان ثمة آلهة متعددة كما يزعمون، لكان مقتضى التنافس الفطري على السلطة أن يسعى كل منهم لمغالبة الآخر والوصول إلى العرش ظفراً بالملك والسيادة المطلقة، وهو ما يؤيده ماثور سعيد بن جبير في تفسير الآية بأنهم لا يتبعوا "أن ينزلوا ملكه"². ويلتقي هذا المعنى البديع مع قوله سبحانه (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون/91-92]

¹ هذا موجز لتفسير الشعراوي ج 1 ص 5203 مع بعض التصرف والإضافة
² (تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 163)

وأمام هذا الفرض، يبرز سؤال منطقي: هل يستقيم في العقل والواقع التقرب إلى آلهة شتى متنازعة لا بتغاء مرضاتها؟ إن في ذلك مشقة تحيل دون استقرار الضمير أو انتظام التكليف، وصور القرآن هذا الاضطراب أبلغ تصوير في قوله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (الزمر/29)

وحين تتعدد حيرة التعدد، لا يتبقى أمام الفطرة السوية إلا الوجهة القاصدة لمالك العرش وحده، اتساقاً مع المآل الذي ذكره يوسف عليه السلام (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (يوسف/39) فلو تناهى الأمر إلى الغلبة والكمال لصار العبء كله لله الواحد القهار الذي لا يدانيه شريك ولا يعلوه نظير. وإذا استقام هذا التوحيد المطلق، تماوت عقيدة المشركين في اتخاذ الوسائط؛ فلم يعد للملائكة ولا للمسيح مقام الإلهية ولا رتبة الشريك، بل هم عباد مكرمون خاضعون لجلاله، كما قرر الحق سبحانه (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (المائدة/172)

قوله (..سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا) (43) تدحض الآية افتراض أن الله شركاء له في ملكه، فمقام الألوهية منزه مطلقاً عن قواطع النقص وموجبات الشبيه، والخلائق جميعاً عبيد خاضعون لعظمته، لا يرتقي أحد منهم إلى مقام ربوبيته. ورغم أن منطقهم سقيم وتشبيهم مغلوط فإنهم يقولون بأن الولد لا يعلو والده، فكيف يشركونه في ملكه؛ إذ لا علو يفوق علو الله سبحانه، فهو المتعالي فوق كل شيء، والمنزه تفرّداً عن صاحبة والولد. بذلك يتفرد الله عز وجل وحده باستحقاق العبادة، فلا شريك له في ملكه، ولا ند له في سلطانه.

قال البقلاني (فلو جاز أن يكون الإله اثنين أو أكثر، فيريد أحدهما شيئاً ويريد الآخر ضده، فلا يخلو أن يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يتم مرادهما؛ لأن في إتمام مراد أحدهما عجز الآخر، لأنه تم ما لا يريد، وفي ذلك تعجيز لكل واحد منهما؛ لأنه تم ما لا يتم مراد واحد منهما، فقد ثبت عجزهما أيضاً. ومن يكون عاجزاً فليس بالإله، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر؛ فالذي تم مراده هو الإله، والذي لم يتم عاجز ليس بالاله، فلم يكن إلا إله واحد)¹.

وتتجلى بلاغة اللفظ القرآني في قوله تعالى (غُلُوبًا كَبِيرًا)؛ فبينما يتفاوت البشر في درجات رفعتهم، قيد الله عز وجل علوه بوصف "كبيراً" دون "أكبر". وفي هذا الاختيار الدقيق ملمح بياني عميق يذكره الإمام الشعراوي؛ (إذ إن صيغة "كبير" تفيد التفرد بالمطلق الذي يتضاءل أمامه كل ما سواه ليكون صغيراً، في حين أن لفظ "أكبر" قد يوهم بوجود كبراء آخرين يشاركونه صفة الكبير وإن فاقهم هو فيها)². فسبحانه من تنزه بعلوه المطلق فلا يشاركه فيه أحد.

¹ (الإنصاف للباقلاني ج 1 ص 9

² (تفسير الشعراوي ج 1 ص 5205

المسألة الثانية : الدعوة للنظر في توحيد المخلوقات لله

قوله (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (44) هذه دعوة للتأمل تضمنت في ذاتها رد على من ينسبون لله الولد ، فلو أنهم تأملوا في الكون لوجدوا الكائنات تنزه الله عن الولد وعن الشريك سبحانه .

إذ تتدفق من هذه الآية عدة معاني تعمق الشعور بالانتماء للكون ، وتشعر المسلم بواجبه نحو التناغم مع الوجود عندما يعلم أن كل ما حوله يُسَبِّحُ الله ، ويعلم كذلك أنه ليس وحيداً ولا معزولاً عندما يجتهد في التسبيح ويرى قومه يهجرئون التسبيح ، فيتأكد له أنه جزء من منظومة كونية كبرى تسير باتجاه واحد وهو عبادة الله وخضوعها له.

بهذا تتحقق فيه نظرة إيجابية للكون: تحول علاقة المسلم بالكون من حوله (من سماء وأرض وشجر ودواب) من مجرد علاقة استغلال مادي إلى علاقة مؤانسة وتأخٍ إيماني، لأن الجميع يشتركون في غاية واحدة وهي التسبيح.

وبهذا كذلك يترسخ التواضع والتحرر من الكبر في نفس المؤمن ، ويدرك حجمه الحقيقية عندما يدرك أن السماوات العظمى والأرض الشاسعة بكل ما فيها تسبح لله، فيتضاءل كبرياؤه الزائف، ويعرف قدر نفسه أمام عظمة الخلق وعظمة الخالق، فيثمر ذلك تواضعاً لله ولخلقه.

وبهذا كذلك تتحقق فيه رغبة شديدة للانقياد الاختياري : فالجمادات والكون يسبحون الله انقياداً وتسخييراً، فعندما يتربى المسلم على هذه المعاني الإيمانية يندفع هو كذلك للتسبيح وطاعة الله تعالى اختياراً وحباً، لئلا يكون النشاط الوحيد في هذا الكون المطيع.

وعندئذ يحصل إلى مرتبة اليقظة الروحية وديمومة المراقبة والحياء من الله: فيدرك أن كل ذرة في الكون تسبح الله يورث في نفس المسلم حياءً شديداً من أن يعصي الله في مكانٍ كل ما فيه يسبح بحمده ويخضع لأمره.

وعندئذ كذلك يحكي قلبه بذكر الله : فيدفعه شغفه للمنافسة إلى الاقتداء بالكون من حوله، فلا يغفل عن ذكر الله، بل يتحول تسبيحه المستمر إلى استجابة واعية لنداء الكون الصامت. مستشعرا العظمة الإلهية: فتسبيح هذا الكون الهائل بمن فيه وبمختلف لغاتهم وأحوالهم يعمق في نفس المسلم اليقين بقدرة الله وعظمته التي أحاطت بكل شيء، مما يورث في القلب تعظيماً وإجلالاً تاماً لله سبحانه وتعالى.

وينعكس ذلك كذلك على أخلاقه فيتنامى عنده الحس الجمالي والبيئي ، فيحترم البيئة والمخلوقات: لأن التربية العقائدية النابعة من هذه الآية تغرس في المسلم احترام الطبيعة والمخلوقات الأخرى؛ فالحيوان والشجر والجماد ليسوا مجرد أدوات، بل هم "مسبحون" لله، مما يمنع المسلم من العبث بهم أو إيذائهم أو تدمير البيئة بلا سبب مشروع.

قوله (وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...) (44) ويستدل على ذلك بانتظامها في الكون كما في قوله (وكل في فلك يسبحون) فالعلماء تحدثوا عن الاتزان البيئي ، والحركة الكونية في الفضاء ، والساعة البيولوجية لجسم الإنسان كل ذلك يدل على أن الكون كله مسخر لله ، فحري به التسبيح .

فعن أبي ذر قال كنا عند النبي ﷺ فأخذ حصيات فسبحن في يده ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فسبحن في يده ثم أعطاهن أبا بكر فسبحن في يده ثم أخذهن النبي ﷺ فسبحن في يده ثم وضعهن فخرسن ثم أعطاهن عثمان فسبحن في يده ثم أعطاهن عليا فوضعهن في يده فخرسن¹.

قوله (..وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..) فالتثبت العلم بالتسبيح بالجملة ، والمنفي العلم بكيفية التسبيح ، قال ابن عاشور (ولعل إثبات فعل "لا تَفْقَهُونَ" دون أن يقول: "لا تعلمون"، للإشارة إلى أن المنفي علم دقيق)².

يقول الشاعر لبيد بن الربيع : -

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ
أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ
وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ

قوله (إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا) (44) قال الزمخشري (حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم)³.

المسألة الثالثة : نفور الكفار من عقيدة التوحيد استكبارا

قوله (وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (45) (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..) (46) بلغ اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه أنهم كانوا يؤذونه ويمنعونه قراءة القرآن وهو بينهم ، ولكن الله تعالى حجبهم عنهم ، فمكناهم من أن يتلو القرآن دون أن يتعرضوا له وأصحابه ، فالعناية الربانية حالت بينهم وبينه؛ فحجبته عن أبصارهم وهو يتلو كتاب ربه، وألقى على قلوبهم غشاوة تحول دون إدراك معانيه، وعلى آذانهم ثقلاً يمنعهم وعي مدلولاته؛ فيسمعون اللفظ ولا يفقهون المراد. ولو فقهوا ما تضمنته الآيات من تقريع لضلالهم وسفه عقولهم وتهكم بمعبوداتهم، ووصف لأهوال عذابهم في الآخرة، لاشتد حنقهم وتأجج عدوانهم، فكان هذا الحجب صيانة للنبي والمؤمنين من شرهم.

¹ رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج4 ص 245 وصححه الألباني في ظلال الجنة ج4 ص 245

² التحرير والتنوير ج14 ص 92

³ الكشف ج3 ص 451

قال الشعراوي (يُرَوَّى أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيتهم)¹ .

وهكذا لما اشتدت الفتن وتكالبت المحن، جاء اللطف الإلهي ليصنع من الضعف قوة، ومن الحصار نجاة ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : لما نزلت (تبت يدا أبي لهب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول : (مذمما أبينا * ودينه قلينا * وأمره عصينا) والني ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك فقال رسول الله ﷺ : إنها لن تراني وقرأنا فاعتصم به كما قال وقرأ (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا) فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني فقال : لا ورب هذا البيت ما هجاك فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها)².

قوله (..وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..) (46) لفظ "أكنة"، جمع "كنان" وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه، ولفظ "وقرا" الوقُر : ثَقُلَ في الأُذُنِ أو دَهَابُ السَّمْعِ كُلِّهِ)³ .

وفي هذا السياق، نسب الله عز وجل الفقه إلى القلب -رغم أن الكلام يمر عبر الأذان أولاً- ليدل على وشيجة وثيقة وصلة عميقة بين السمع والفؤاد؛ فمن أحسن الاستماع بوعي، نفذ الكلام إلى سويداء قلبه، ومن أعرض ولم يحسن السماع، انحجب التأثير عن جوارحه. فالآذان هي مجاري العلم ومداخله، والقلب هو موطن معالجته بالفهم والتدبر. ومن هنا، فإن المشاعر الصادقة التي يملؤها الشوق إلى لقاء الله تتفاعل تفاعلاً حياً مع كلامه، ولذلك قال رسول الله ﷺ (خَصَلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ حُسْنُ سَمْتٍ وَلَا فِقْهٌ فِي الدِّينِ)⁴.

وعلى النقيض من ذلك، فإن المشاعر التي دتسها حب الدنيا، واستبد بها كره لقاء الله، عُوقبت بإغلاق منافذ استقبال الهدى، وتعطيل آلة الفهم والتدبر؛ جزاءً وفاقاً لكرهيتهم لقاء ربه، فكروه لقاءهم، كما جاء في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)⁵ .

وقد أفاض الإمام الشنقيطي في بيان هذا المعنى مستنداً إلى التحقيق؛ حيث قال: (والظاهر أن الوقْر المذكور على سبيل التشبيه الوقْر الحسِّي؛ لأن الوقْر المعنوي يشبه الوقْر الحسِّي والوقْر المجعول على آذانهم بالفعل، هو الوقْر المعنوي المانع من سماع الحق فقط، دون سماع غيره، والعلم عند الله تعالى)⁶

(1) تفسير الشعراوي

(2) رواه الحاكم في المستدرک ج2 ص393 رقم 3376 وصححه الألباني : صحيح السيرة النبوية ج1 ص 138

(3) القاموس المحيط ج1 ص 635 لسان العرب ج5 ص 289

(4) رواه الترمذي ج9 ص 298 رقم 2608 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 561 رقم 278

(5) رواه البخاري ج20 ص 165 رقم 6026

(6) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج6 ص 179

ثم بيّن -رحمه الله- علة هذا الحجاب وسر هذا الحرمان بقوله: **(تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالحتم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك . إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاع الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) [النساء/155]، أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم. وقوله: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف/5] .**

فعن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ، ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة

فقالوا يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال يا محمد أنت خير أم عبد الله؟

فسكت رسول الله ﷺ ثم قال أنت خير أم عبد المطلب ؟

فسكت رسول الله ﷺ فقال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم إنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا وأن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا مثل صحيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل إن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجنك عشرا

فقال رسول الله ﷺ فرغت؟ قال نعم

فقال رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم حتى بلغ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود

فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال لا

فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك فقال ما تركت شيئا أرى أن تكلمونه إلا قد كلمته

قالوا فهل أجابك قال نعم قال لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما

قال غير أنه قال أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال قال

لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة)¹.

قوله (..وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أُنْبَارِهِمْ نُفُورًا) (46) بليغ الدلالة على أنهم يتكبرون عن سماع الحق ، ولا يقبلون الانفتاح على من يخالفهم ، أي أنهم عطلوا حواسهم بأنفسهم استكبارا السمع والأبصار والأفئدة ، وهذا هو عين الجهل وضيق الأفق النابع من الكبر والعظمة التي هما لله وحده سبحانه ، فالكبرياء والعظمة لله وحده ، ولو أنهم تجردوا مما هم فيه من الكبر والأنفة واستمعوا لكلام الحق لانشرحت صدورهم له ، ولا هتدوا للإسلام .

¹ (مسند عبد بن حميد ج 1 ص 337 ص 1123 وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية 159/1

روي في كنز العمال عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) الآية قال: "أقبلت قريش إلى النبي ﷺ، فقال لهم: ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب؟ فقالوا يا محمد: ما نفقه ما تقول، ولا نسمعه، وإن على قلوبنا لغلفا، قال وأخذ أبو جهل ثوبا فمد فيما بينه وبين النبي ﷺ، فقال يا محمد: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فقال لهم النبي ﷺ: أدعوكم إلى خصلتين: أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، فلما سمعوا شهادة أن لا إله إلا الله، ولوا على أديبارهم نفورا وقالوا: (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وقال بعضهم لبعض (امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) يعنون النصرانية (إِنَّ هَذَا إِلَّا خِتِلَاقٌ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) وهبط جبريل، وقال يا محمد: إن الله يقرئك السلام، ويقول: أليس يزعم هؤلاء أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا فليس يسمعون قولك، كيف وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أديبارهم نفورا، لو كان كما زعموا لم ينفروا، ولكنهم كاذبون يسمعون ولا ينتفعون بذلك كراهية له" قال: فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أعرض علينا الإسلام، فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا من آخرهم، فتبسم منهم النبي ﷺ، ثم قال "الحمد لله، بالأمس ترعمون أن على قلوبكم غلفا، وقلوبكم أكنة مما ندعوكم إليه، وفي آذانكم وقر وأصباحتم اليوم مسلمين"، فقالوا يا رسول الله كذبنا والله بالأمس، لو كان كذلك ما اهتدينا أبدا ولكن الله الصادق، والعباد الكاذبون عليه، وهو الغني ونحن الفقراء"¹.

وقد بين سيد قطب سبب هذا النفور فقال (نفورا من كلمة التوحيد التي تهدد وضعهم الاجتماعي القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يخفى عليهم ما في عقائدهم من تحافت، وما في الإسلام من تماسك، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما في القرآن من سمو وارتفاع وامتياز، وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها! ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان؛ فيطلقون التهم على الرسول يعتذرون بها عن المكابرة والعناد).

المسألة الرابعة: نفور الكفار من شخص النبي حسدا

قوله (لَحْنٌ أَعْلَمُ مِمَّا يَسْتَمِعُونَ بِهِ...) (47) قال البيضاوي (بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن)²، قال الألوسي (أي ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن)³، فالله أعلم بحال المشركين وهم يستمعون لقراءة النبي ﷺ القرآن، فمنهم من يفعل ذلك بقصد خبيث حيث لم يكونوا يستمعون ليتدبروا أو يهتدوا، بل كانوا يستمعون بقصد الاستهزاء، والسخرية، والتنفير منه، لكن هذا لا يمنع أن بعضهم كان يستمع للنبي ﷺ بقصد الفضول والشغف لمعرفة ما يقول، ولعل هذا النوع من الناس هو الذي آمن به بعد ذلك.

¹ (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج2 ص 495 رقم 4586

² (تفسير البيضاوي ج3 ص 428

³ (تفسير الألوسي ج10 ص 477

لكن الأغلبية والأكثرية كانوا يستمعون بقصد الاستهزاء ، فهم يستمعون بآلة السماع وهي الأذن فلا يتجاوز الكلام صنوان الأذن ، ولا يصل إلى القلب ، بل قلوبهم في أكنة مما يقول ، والتقدير نحن أعلم بالشيء الذي يستمعون به ، أهى آذانهم أم قلوبهم ، بمعنى نحن أعلم بالسبب الذي لأجله يستمعون إليه ، لأجل الاستفادة أم لأجل اللغو والتكذيب

وقد تعددت توجيهات المفسرين والنحاة في وظيفة الباء وعلاقتها بالاستماع والأذن بناءً على وجهين مشهورين

-:

الوجه الأول (الباء للسببية) ، و"ما" الموصولية وتعني اللغو أو السخرية.

فيكون المعنى: نحن أعلم بالحال والهدف الذي بسبب ولأجل الاستهزاء به يستمعون إلى القرآن. وهنا لا يكون للباء علاقة مباشرة بآلة الأذن، بل بـ "الغاية" من استماعهم (وهو الصد والتكذيب)

الوجه الثاني (الباء للآلة) ، وهنا قد تظهر علاقتها بالأذن ، فالأذن هي آلة السمع، وليس الفهم

فيكون التقدير: يستمعون بآذانهم، لكنهم لا يتدبرون ولا يعون.

أما إن كانت آلة الاستماع القلب فهذا كناية عن الفهم والتدبر ، وهذا حال من أسلم منهم بعد ذلك .

وقال سفيان بن عيينة (أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يجب الله أفهمه كما يجب، وجعل له في قلبه نورا)¹.

قوله (... إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى...) (47) يدل لفظ "يستمعون" على كثرة السماع ، فهم يكررون محاولاتهم في الاستماع للنبي وهو يتحدث عن الله ويقرأ القرآن ، ولا يبدون ذلك للناس في العلن ، وهذا نابع من كبرهم وظلمهم لأنفسهم ، وكثير منهم يفعل ذلك ، فما منع أبا طالب من الإيمان بدعوة ابن أخيه محمد ﷺ إلا مخافة تعيير قومه له ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِيهِ (قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ يَقُولُونَ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ)².

فكثير ممن رفض الدعوة الإسلامية كان معجبا بها ، ويود لو كان مسلما ، ولكن الذي منعه من إعلان هذا الإعجاب وترجمته بدخول دين الإسلام إما حرصا على مكانته الاجتماعية بين قومه أو مكانته المالية أو الأدبية .. الخ ، ولو أنه تخلص من هذه العوائق لاستمع لدعوة الإسلام وقلبه غير مشغول بغير ذلك .

¹ تفسير القرطبي ج 11 ص 176

² رواه مسلم ج 1 ص 123

فالقرآن أوضح أنهم وهم يستمعون القرآن يتناجون مع بعضهم البعض ، ويحدث كل واحد منهم نفسه عن سبب نفوره من الدعوة الإسلامية ، قال البخاري (مَصْدَرٌ مِنْ نَاجِيَتْ فَوَصَفَهُمْ بِهَا وَالْمَعْنَى يَتَنَاجَوْنَ)¹، ما يدل على أنهم منشغلين بنجواهم عن الاستماع بحق ، مما يخل من الاستفادة ويشتت الانتباه والتركيز .

فجملته (وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) جملة اسمية في محل نصب حال، والسر البلاغي هنا أن "الاستماع" المنسوب إليهم ليس استماع تدبر واهتداء، بل هو استماع تهكم، أو استماع تجسس للبحث عن مطعن. وهم في أثناء هذا الاستماع (الظاهري) متلبسون بحال النجوى والتشاور في كيدهم. والمعنى: نحن أعلم بالهيئة والوجه الذي يستمعون به (وهو الهزء والتكذيب (في حال كونهم متناجين فيما بينهم. فالحال هنا تكشف عن تناقض ظاهريهم مع باطنهم؛ يظهرهم بصورة المستمعين، وقلوبهم وأسمعتهم مشغولة بالنجوى والإعراض.

السياق لا يتعارض مع الحالية؛ وإن كان الترجيح أنه للظرفية ، فالآية إما أن تصوّر (تناقضهم في المجلس الواحد) يستمعون بأبدانهم وهم نجوى بقلوبهم وإشاراتهم، أو تصوّر (حالهم التقلبية) تارة يستمعون وتارة يخلون للنجوى)، وفي كلا الوجهين، جاء التعبير القرآني بـ "إذ" مرتين ليحيط بكل تقلبات كيدهم وأزمئتهم .

والواجب على أهل الإيمان أن ينصتوا عند سماع القرآن لقوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأعراف:204] ، فعن وهب بن منبه أنه قال: (من أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم)²

ولهذا فإن تلبسهم بالنجوى حال القراءة مذموم ، ولو أنهم استمعوا وأنصتوا تأدبا لكان ذلك خيرا لهم ، لأنه يجلب لهم الرحمة ، أما النجوى أثناء سماع الذكر فلا بد وأن تقول إلى سوء الفهم ثم إلى التهكم والسخرية

قوله (..) **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَشْحُورًا** (47) إذ يستمعون للنبي ثم هم بعد ذلك يفترون عليه الفرية ليصرفوا الناس عن سماعه ، أي أنهم يلجئون للطعن في شخص النبي ﷺ لتنفير الناس منه ، فهذا ظالم ولا شك

ورغم فإن بعضهم لا يزال منجذباً لحلاوة تلاوته ، وحسن صوته ، منبهراً بخشوع المسلمين في الصلاة وتضرعهم وإحاحهم في الدعاء ، مما يحمل البعض منهم لأن يظن أنه مسحور لأجل تلك الهيئة من الخشوع لله ، ولأجل ذلك يكررون السماع إليه ، رغم أن نفوسهم تأبى ذلك استكباراً ، فيظنون أنه سحرهم بسحره ، وهذه الشبهة تنمحي بسرعة عندما يرون حقيقة الأمر ، لأن تأثير السحر وقتي ، بينما تهذيب الأخلاق والنفوس وتركيتها عند المسلمين دائم وغير موقوت .

¹ رواه البخاري ج19 ص 341
² تفسير القرطبي ج11 ص 176

يقول النبي ﷺ (إن من البيان لسحراً)¹ وهذا يعني أن مجرد إيصال الكلام بأسلوب واضح البيان سلس للفهم يحقق الإقناع الكامل والرضاء التام ، فيصير الراضى للكلام بعد سماعه وقد قبله ورضى به ، فكأنه سُحر بهذا الكلام ، وليس بسحر حقيقي ، ولذلك قال لهم النبي ﷺ (بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفاً، وقلوبكم أكنة مما ندعوكم إليه، وفي آذانكم وقر وأصيحتم اليوم مسلمين)².

فبالرغم من أن النتيجة المترتبة على ذلك سلبية إلا أن ثمة جانب إيجابي لتكرار محاولات الاستماع الصادرة منهم ، فهي تدل على معنى صحي ، وتدل على اقتراحهم من الإسلام ، فقلوه (يستمعون) أكد من قوله (يسمعون) دلالة على حسن الاستماع .

قوله (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) (48) تسترعي الآية الكريمة التأمل في جحود المشركين وموقفهم من النبوة؛ إذ استبدلوا بالتأثر الإيجابي بالقرآن الكريم نكوصاً وإعراضاً، مدفوعين بخللٍ منهجيٍّ في الاستدلال، وعمى بصيريٍّ قَطَعَ عليهم سُبُل الهداية. فبسبب كبرهم وعنادهم، أبوا الإذعان لصدق الرسول ﷺ والاستسلام لدعوته بجوارحهم، فتاهت بهم السُّبُل عن الحق، وضلُّوا في متاهات الجدل بالباطل .

فاحتاروا في وصف رسول الله ﷺ ما بين متهم له بالكذب إلى متهم له بالسحر وآخر بالجنون ورابع يتهمه بالكهانة ، فلم يتفقوا على وصف معين ، قال تعالى (فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) (الطور 29-30) .

يرى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن حيرة الكفار في وصف الرسول ﷺ وتناقض اتهاماتهم له بين (ساحر، ومجنون، وشاعر، وكاهن) هي دليل وبرهان قاطع على صدق نبوته وعجزهم الكامل أمام معجزته، واعترافاً ضمناً وعجزاً صارخاً أمام جلال شخصه وعظمة القرآن الكريم، حيث لم تسعفهم لغتهم ولا عقولهم في العثور على تهمة واحدة منطقية تصمد أمام سطوع الحق .

صيغة الأمر " انْظُرْ " تكليف بالتدبر، والتأمل، والاعتبار، وتتضمن الدلالات التالية:-

- التكليف بالوعي والفهم الدقيق لمخططات الخصوم : فهو أمر يُكلف النبي ﷺ (والمصلحين من بعده) بمعاينة وفحص الحجج والاثباتات التي يوجهها أهل الباطل (كقولهم عن النبي: "ساحر"، "شاعر"، "مجنون"). التكليف هنا هو دراسة وفهم عقلية الطرف الآخر لمعرفة كيف يتخبطون في اختلاق الأكاذيب.
- التكليف بالثبات والصبر (التسلية والتعزية) : إذ يأتي الأمر في سياق المواساة؛ فالله تعالى يقول لنبيه: تأمل كيف تُناقض أقوالهم بعضها بعضاً. هذا التوجيه يُكلف الرسول ﷺ بأن يطمئن قلبه، بأن حجج الباطل تناقض بعضها بعضاً ، فلا تؤثر هذه الأمثال والافتراءات، إلا فيمن يستحق الضلالة ، فتعارضها مع بعض برهان بطلانها.

¹ (رواه البخاري ج18 ص 61 رقم 5325)
² (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج2 ص 495 رقم 4586)

- التكليف ببيان العجز والحجة.
- هذا التكليف يدفع المسلم إلى استخدام العقل والمنطق لإظهار تناقض الباطل، لإظهار عجزه أمام الناس وبيان أنه يتخبط في ضرب أمثال متناقضة واهية.
- فالأمر "انظر" هو تكليف به التعجب والاعتبار وتدبر حكمة الله في خذلان أهل الباطل، وتحصين النفس وعياً وفكراً ضد الشبهات عبر كشف ثافتها.

المسألة الخامسة : نفور الكفار من اليوم الآخر تحللاً من المسئولية

قوله (وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) (49) ذكر القرآن كيف أن الكفار عجزوا عن الطعن في الذات الإلهية بنسبة النقص لله ، وعجزوا عن الطعن في شخص النبي ﷺ باتهامه بصفات متناقضة ، فانتقلوا من ذلك إلى الانتقاص من العقيدة ذاتها ، فأنكروا البعث والإحياء بعد الموت ، فأشاعوه بين الناس استنكارهم أن تعود عظام الموتى بعد أن بليت وأضحت رفاتا إلى الحياة مرة أخرى .

ففي ظنهم أنهم لن يحاسبوا على ما فعلوا ، توهموا أن أفعالهم ستمر دون عقاب، واختزلوا الحياة في عبثية مطلقة؛ مجرد ساعات تنقضي بلا رقيب ولا حسيب. غير أن العدالة الإلهية تأتي أن يتجرع المظلومون مرارة البغي ثم يمضي الظالمون بلا قصاص؛ فحاشا لله أن يُضيع حقاً، بل لا بد من بعث وحساب. وإنما أوقعهم في هذا الوهم طول أمد استدراجهم في الدنيا، فقد استطالت بهم الحياة دون أن يحاسبهم أحد عما اقترفته أيديهم، غافلين عن أن الدنيا—مهما امتدت أيامها وعظم طغيانها—إنما هي ميدان اختبار وابتلاء، وليست دار مستقر حساب وجزاء.

قوله (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا¹ (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) رد القرآن على إنكار الكافرين البعث بالكشف عن السبب الحقيقي لهذا الإنكار ، بأن هؤلاء المنكرين هم في أنفسهم مستكبرون ، لأنهم يظنون أنه عصي على الله أن يعيد مادة الطين التي خلقوا منها إلى لحم وعظم ودم مرة أخرى بعد أن تتحلل أجسادهم لمواد أولية ، وكأن الجسد حين يصير تراباً يتعذر أن يعود لحماً ، ولذلك خاطبهم الله

1 (تناول الكيميائي جمال عبد الناصر الجنائني، مدير موقع "القرآن والعلم"، إعجازاً علمياً في القرآن الكريم يؤكد توافق النص القرآني مع العلم الحديث في ما يُعرف بعلم المتحجرات.(Paleontology)

فعلمياً، لا يمكن للمواد العضوية في العظام أن تبقى ملايين السنين، بل لابد وأن تتحلل - و الآية القرآنية تشير إلى قدرة الله على بعث الموتى حتى لو تحولوا من صورتهم العضوية (عظام ورفات) إلى صورة غير عضوية (حجارة أو حديد) .

إذن كيف تحولت العظام إلى حجارة أو حديد؟
إذ تتحلل المواد العضوية وتستبدل معادن الأرض المركبات الكيميائية في البقايا الصلبة (كالأسنان والعظام)، وتنقسم هذه المتحجرات إلى نوعين حسب المعدن البديل:

1- البقايا المتحولة إلى حجارة :تحدث عندما تُستبدل بقايا الكائن الحي بمعادن مثل السليكا أو الكالسيت، وهي المكونات الأساسية لمعظم أنواع الصخور، فيتشكل نموذج صخري كامل.

2- البقايا المتحولة إلى حديد :تحدث عندما تُستبدل الخلايا بمعادن حديدية (مثل البيريت)، وهو ما يتوافق تماماً مع اللفظ القرآني فما نراه اليوم من متحجرات الديناصورات ليس هياكل عظمية حقيقية، بل نماذج صخرية تشكلت بعد تحلل العظام وبقاء أثرها في الحجارة. ومن خلال هذه الصخور، يستطيع العلماء تحديد عمر المتحجرات عبر تقنية التأريخ الإشعاعي.(Radiometric dating)

(إعداد عبد الله متولي) قل كونوا حجارة أو حديدًا <http://www.alraimedia.com/Articles.aspx?id=548381>

تعالى بأنهم مهما استكبروا بمادة خلقتهم ، ولو كانت مادة خلقهم غير الطين ، فالله قادر على أن تبلى ثم يركبها مرة أخرى كما لو كانت حجارة أو حديدا أو مادة أخرى يظنون جميعا تعذر إعادة تركيبها وتشكيلها مرة أخرى

وقد احتجوا لإنكارهم طول مكث الجثث لمئات بل آلاف السنين في التربة ، ولم تعاد للحياة مرة أخرى ، لكنهم أضعف من أن يفهموا ذلك ، فهم يعلمون أنهم مخلوقون من طين ، **والطين أسرع مادة للتشكل** ، به تبنى الأسوار والبيوت والتمائيل ، **فعلام التكبر** ، والإنسان بعد موته يتحلل إلى مادته الأولية ، أليس الله خلقه وأحسن صورته بقادر على تشكيله مرة أخرى كما بدأه من عدم .



حفرة لهيكل عظمي لسمكة



حفرة لصدفة تحللت واستبدلت بمعادن الحديد



بقايا متحجرة لهيكل عظمي بشري

إن مسألة إعادة تشكيل الإنسان من مواد أولية تعدّ أمراً يسيراً بالنظر إلى قدرة الله المطلقة؛ فالذي أوجد البشر وخلقهم أول مرة من العدم، قادرٌ سبحانه على إعادتهم وبعثهم بعد فنائهم. وكما نفخ الروح في المضغة المخلقة داخل بطن الأم لتتحول إلى جنين نابض بالحياة، هو قادرٌ كذلك على إرسال الروح في الجسد من جديد ليعود حياً؛ فذلك لا يعجزه ولا يعييه، ومن بدأ الخلق أول مرة هو وحده القادر على إعادته بعثاً ونشوراً .

قال ابن القيم أي (أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان- الله- قادرا على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ، فمن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائها وإحالتها ونقله من حال إلى حال ، فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالنا أجسامنا وفنيت فأجابهم بقوله قل الذي فطركم أول ، وهذا الجواب نظير جواب قول السائل من يحيي العظام وهي رميم)¹.

قوله (فَسَيُنْغِضُونَ² إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيْبًا)⁽⁵¹⁾ عن ابن عباس (فَسَيُنْغِضُونَ) (يُحَرِّكُونَ رُءُوسَهُمْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ وَمِنْ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى حَرَكَةً اسْتِهْزَاءً)⁴.

¹ الصواعق المرسله ج2 ص 478

² قال ابن كثير : الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم -هو- ولد النعامة -: نغضا؛ لأنه إذا مشى عجل في مشيته وخزك رأسه. تفسير ابن كثير ج5 ص 85

³ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 165 والطبري ج17 ص 467

⁴ (تفسير أسعد حرم ج1 ص 281 ، تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج 1 ص 900



قال ابن تيمية (فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلا انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك وهو قولهم متى هو؟ فأجيبوا بقوله (عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)¹ .

إذ يهز منكرو البعث رؤوسهم استهزاء² وتعجباً³ كلما طُرحت عليهم هذه المسألة، في إشارة واضحة إلى عجز ألسنتهم عن إقرار الحقيقة، وفشلهم في مواجهة الحجة بالحجة، لا سيما بعد أن دُحضت افتراءاتهم بالدليل القاطع على قدرة الله الخالق الذي أوجد الخلق أول مرة. ولإفلات من هذا المأزق، يعتمد هؤلاء إلى تحويل مسار القضية؛ فبدلاً من مناقشة إمكانية تحقق البعث عقلاً ومنطقاً، ينتقلون إلى التساؤل عن موعده ووقت حصوله. وينبع هذا التهرب من رغبتهم في إرجاء الحديث عن هذا اليوم المرتقب، ظناً منهم أن بينهم وبين الآخرة أمداً بعيداً يتيح لهم الاستمرار في لهوهم وعبثهم باطلاً، غافلين عن حقيقة أن هذا اليوم قريب جداً، ولكنهم لا يعلمون.

قوله (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنَّا لَنَبْتُدِّعُكُمْ إِلَّا قَلِيلًا) (52) يدعو الله الخلاق جميعاً يوم القيامة لتتزوج أرواحهم مع أجسادهم، فهذا يوم البعث، وما دعوته إلا صيحة واحدة، (وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) (53)

فالأرض تنشق أول ما تنشق عن الأنبياء، فيسبحون بحمد ربهم عندما يبعثون، يقول النبي ﷺ (النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخِيذُ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيْمَنْ صَعَقَ أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الْأَوَّلَى)⁴، ثم تنشق الأرض عن الناس أجمعين فينسلون منها، وعندئذ يتذكرون أيام الدنيا، قال قتادة (تحقرت الدنيا في أنفسهم وقلَّت، حين عاينوا يوم القيامة)⁵، فعندئذ يعلمون أن طول اليوم هو محل السؤال، وليس موعد اقتراب القيامة، فقد عاينوه اليوم، وكان الواجب عليهم بدلا من السؤال عن موعده، السؤال عن طوله، فذاك السؤال كان أحق باهتمامهم والعمل، في حين أن المدة التي قضوها في الدنيا قصيرة مقارنة بطول يوم القيامة، فحظهم من الدنيا وما مكثوا فيها قليل مقارنة بطول مكثهم يوم الحساب.

لا سيما وأن التفاوت بين الناس في المكث يوم الحساب شديد بحسب أعمالهم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ حَرِيْفًا)⁶

¹ الصواعق المرسلة ج2 ص 478

² ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس هذا القول ج9 ص 165 / وانظر تفسير مجاهد ج2 ص 343 رقم 834

³ تفسير السعدي ج1 ص 460

⁴ رواه البخاري ج8 ص 258 رقم 2235

⁵ تفسير الطبري ج17 ص 469

⁶ (رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 453 رقم 678 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1 ص 206

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتَعْلَمُ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: الْمَاهِجُرُونَ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ وَيَسْتَفْتِحُونَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْحَزَنَةُ: أَوَقَدْ حُوسِبْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: بَأَيِّ شَيْءٍ نَحْسَبُ، وَأَمَّا كَانَتْ أَسْيَافُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى مِتْنَا عَلَى ذَلِكَ! قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَقِيلُونَ فِيهِ أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ¹)

المسألة السادسة : إحسان القول للكفار في مقام الدعوة واجب

قوله (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (53) لما عجز المشركون عن مجابهة الحجة بالحجة والدفاع عن عقيدتهم الباطلة إزاء ثبات المؤمنين على عقيدتهم ازداد - عندئذ - اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وتناولوا علي أصحابه بالإيذاء ، فكاد الصحابة أن يثأروا لأنفسهم ، وتلك هي خطة الشيطان أن يوقع بينهم بدافع مراعاة حظوظ أنفسهم فيثأر كل واحد لنفسهم حتى تضع قضية الإيمان بالله تعالى التي لا يدافع عنها إلا من تجرد عن حظ نفسه ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أُيسِّنَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنَّ فِي التَّخْرِيشِ بَيْنَهُمْ)²، وذلك (بتهييج بعضهم على بعض)³، ولذلك صبرهم الحق سبحانه بهذه الآية ، وأمرهم بأن يقولوا التي هي أحسن ، وأن ينتبهوا لمصائد الشيطان .

قال الألوسي في قوله (يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ) أي (يفسد ويهيج الشر بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة فلعل ذلك يؤدي إلى تأكيد العناد وتمادي الفساد)⁴، ولذلك أكد على عداوته للإنسان ، فهم إن طاعوه وثأروا لأنفسهم لم يبق لهم وجه لأن يخاطبوا قومهم في مقام الدعوة والتبليغ عن الله تعالى ، نظير ذلك قوله (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الجمعة/14) ، إذن دائرة عمل الشيطان في هذه المرحلة هي استغلال قلة صبر لدي بعض الدعاة إلى الله على الناس ، فيجعلهم ينتقمون لأنفسهم ليفسد أهليتهم للبلاغ عن الله ورسوله .

فعن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَحَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَقَالَ أَتَرَى بِي بَأْسٌ أَمْجُنُونُ أَنَا أَذْهَبُ⁵.

قوله (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) (54) تلطيف لما يصيب صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم من الأذى الصادر عن المكذبين ، بإخبارهم أن هؤلاء الذي يصدونهم عن السبيل اليوم قد يدخلون في رحمة الله تعالى غدا ، فالله أعلم بحالهم ، فقد يعاقبهم ويعذبهم إن لم يشأ لهم الهدى ، وقد يرحمهم بأن يفتح صدورهم للإيمان ، ليفهم الجميع أن وظيفة النبي ﷺ ومن معه - ممن تبعه - تقتصر على البلاغ ، فهم

¹ (رواه الحاكم في صحيحه ج2 ص 80 رقم 2389 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 507 رقم 853

² (رواه مسلم ج13 ص 424 رقم 5030

³ (عون المعبود ج7 ص 165

⁴ (تفسير الألوسي ج10 ص 485

⁵ (رواه البخاري ج18 ص 479 رقم 5588

ليسوا وكلاء عن الله ، وليس لهم أن يحاسبوا الناس وينتقموا لأنفسهم ، قال أبو حيان (فكأنه أمر المؤمنين أن لا يخاشنوا الكفار في الدين ثم قال إنه أعلم بهم ورجاهم وخوفهم)¹.

المسألة السابعة : محاجة المشركين في عقيدتهم

قوله (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) إشارة إلى ترك تعيين التفاضل بين الناس حتى وإن كان بين الأنبياء ، مع الإقرار بالفضل والأفضلية والتفضيل بينهم على سبيل الإجمال ، لكن الانشغال بهذه القضية لا يفيد ، وكذلك في حق الناس ، فالواجب ترك تصنيف الناس فلا يفيد الانشغال بتفضيل بعضهم على بعض ، فلا تدري لعل الله تعالى ينصر الدين بأحد المشركين الذين كانوا أعداء المسلمين بالأمس كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص

قوله (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) (55) فهذه العبارة توطئة لفهم فضل الله تعالى ، فهو سبحانه تفضل بالرسالة لنبيه محمد ﷺ واصطفاه من بين الخلق ، وكذلك فعل في الرسل من قبله اصطفاهم من بين زمانهم ، فإذا آن الأوان أن تتقلد أمة محمد مسئولية الخلافة بعدما نكث بنو إسرائيل عن حملها ، فلا بد وأن يعي الجميع أن هذه المسئولية وهذا الفضل يعطيه الله لمن يشاء من عباده ، فهو أعلم بمن هو أقدر على حملها ، ومن يضطلع بها ومن هو مؤهل لذلك ، ممن لو حُمل بها أضعاعها كمن حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، بينهما أمة محمد حملت بالقرآن فقامت بهذا الواجب ، وبالرغم من هذا التفاضل فإن الانشغال بهذه القضية يؤول في النهاية إلى الحسد والتفاخر والرياء وهو منهى عنه .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْزُضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ فَمَسَمَعُهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي فَقَالَ لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ فَذَكَرَهُ فَعَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُبِّي فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَائِ اللَّهِ².

قال ابن عاشور (هذا إعلام بأن بعض الرسل أفضل من بعض على وجه الإجمال ، وعدم تعيين الفاضل من المفضول: ذلك أن كل فريق اشتركوا في صفة خير لا يخلون من أن يكون بعضهم أفضل من بعض بما للبعض من صفات الكمال الزائدة على الصفة المشتركة بينهم، وفي تمييز صفات التفاضل غموض، وتطرق لتوقع الخطأ وعروض وليس ذلك بسهل على العقول المعرضة للغفلة والخطأ. فإذا كان التفضيل قد أنبأ به رب الجميع، ومن إليه التفضيل،

¹ البحر المحيط ج7 ص 371

² رواه البخاري ج11 ص 222 رقم 3162

فليس من قدر الناس أن يتصدوا لوضع الرسل في مراتبهم ، وحسبهم الوقوف عندما ينبتهم الله في كتابه أو على لسان رسوله¹.

فمن نوازغ الشيطان أن يحمل كل قوم على أن يفاضلوا بين أصحابهم وأبنائهم ، حتى تقع الفتنة بينهم ، ولذلك نهى النبي ﷺ عن فعل ذلك في شأن الأنبياء رغم ما بينهم من تفاضل ، ففي الحديث السابق الإشارة إليه لما رُئي في وجه النبي ﷺ الغضب ثم قال "لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ" بين علة أخرى للنهي ، وذلك من تواضعه ﷺ فقال (فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)² أي أن نبي الله يونس ورغم ما فعله وقد أبق إلى الفلك المشحون كما عبر القرآن ، فإنه لا يجوز تفضيل نبي عليه ، وإن كان التفاضل بين الأنبياء حق ، لكن الأدب مع الأنبياء جميعا أحق .

قوله (وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)⁽⁵⁵⁾ تأكيد على أن التفاضل بين الأنبياء حاصل من وجوه عدة ، وضرب مثلاً بذلك نبي الله داود حيث آتاه الله الزبور ، قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) (سبأ/10)

فإنه رغم أن التفاضل حاصل من وجوه معينة إلا أنه لا يجوز للبشر أن ينشغلوا بهذه القضية ، ففي رواية (اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي قَسَمٍ يُقْسَمُ بِهِ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ)³.

وداود عليه السلام نبي من بني إسرائيل وابنه سليمان الذي ملك مملكتي الإنس والجن ، ورغم ذلك فقد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ، فالعبرة ليست بشرف الانتساب ، وإنما بشرف الاتباع ، ولذلك يقول النبي ﷺ (وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)⁴

يتمحور سر اهتمام اليهود وتعظيمهم للملك داود (الذي هو نبي الله داود في الإسلام) حول أبعاد سياسية، ودينية، وقومية تشكل جوهر الهوية اليهودية. تتلخص أسباب هذا الاهتمام البالغ في النقاط التالية:-

• تأسيس "المملكة الموحدة" وعاصمتها القدس: يُعد داود في المنظور اليهودي الملك والرمز السياسي

الأبرز، فهو أول من نجح في توحيد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر في مملكة واحدة قوية. كما أنه هو من اتخذ من أورشليم (القدس) عاصمة سياسية ودينية لهذه المملكة

¹ التحرير والتنوير ج2 ص 483

² رواه البخاري ج11 ص 222 رقم 3162

³ رواه البخاري ج11 ص 212 رقم 3156

⁴ رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867

- **سلالة "المسيّا" (المخلّص المنتظر):** يعتقد اليهود وفقاً لنصوص العهد القديم أن الله قطع عهداً أبدياً مع داود بأن العرش لن يزول من نسله. ومن هذا المنطلق، يؤمنون بأن "المسيّا" أو المخلّص المنتظر الذي سيجمع شتاتهم ويعيد أمجادهم يجب أن يكون من نسل داود حتماً، وهو ما يجعل شخصيته محوراً للرجاء القومي والديني لديهم¹.
- **كتابة السفر الروحي (المزامير):** (يُنسب إلى داود في التقليد اليهودي كتابة سفر "المزامير" (الزبور في الإسلام)، وهي الأناشيد والصلوات والترانيم الروحية التي تعد جزءاً أساسياً من العبادات والطقوس اليومية في الكُنى اليهودية²
- **التجهيز لبناء الهيكل:** على الرغم من أن ابنه سليمان هو من تولى بناء الهيكل (هيكل سليمان)، إلا أن اليهود ينسبون لداود الفضل في التخطيط له، وجمع المواد، واختيار الموقع، وإعداد الترتيبات الدينية لخدمة هذا المكان
- **الرمز القومي والسيادي:** تُربط الهوية القومية اليهودية المعاصرة برموز داود؛ وعلى رأسها "نجمة داود" التي ترمز لدولتهم وعلمهم، حيث يرى فيه الفكر الصهيوني واليهودي رمزاً للقوة العسكرية، والسيادة، والانتصار على الأعداء (مثل قصته الشهيرة في هزيمة جالوت) (جليات)

لكن ثمة فارق هام بين الرؤية الإسلامية واليهودية لنبي الله داود : ففي حين يوقر المسلمون داود باعتباره نبياً ورسولاً معصوماً، ينظر الفكر الديني اليهودي (الرسمي) إلى داود كملك وقائد تاريخي ملهم وصاحب نبوءة، لكنه ليس معصوماً من الخطأ؛ بل تنسب له الأسفار اليهودية المحرفة خطايا وأخطاء بشرية جسيمة لا تليق بمقام النبوة³ واختيارهم لهذا النبي بالذات كقائد لهم يبين أنهم يركزون اهتمامهم على السلطة الزمنية كما أشار بذلك الشيخ الشعراوي في تفسيره ، بينما المسلمون يعمدون إلى اتباع النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء ويؤمنون برسول الله جميعاً ، ولهم في سيرتهم جميعاً أسوة حسنة ، ولذلك أكثر القرآن من ذكر قصصهم للاعتبار بها وأخذ الموعظة منها .

قوله (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (56) إذ لما اشتدت عداوة قريش للنبي ﷺ وأصحابه دعا عليهم ، فأصحابهم القحط والجذب ، وعن مسروق قال قال عَبْدُ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ)⁴.

وقد بكتهم القرآن ليذكرهم بالله تعالى ، هل أصنامكم وما تعبدون من دون الله قادرة على أن ترفع عنكم الضر الذي أصابكم أو تحوله عنكم ؟ فعن أبي هريرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَاشَ بَنِ أَبِي رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بَنَ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بَنَ الْوَلِيدِ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا وَأَسْلَمَ سَأَلَهَا اللَّهُ)⁵.

(1) شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، دار ومكتبة بيبليون، بيروت، 2007، ص138-139

(2) راجع النسخة من خلال رابط راديو مريم <https://www.radiomariam.org/>

(3) هذا ما درسناه في الفرقة الأولى بكلية الحقوق من خلال تاريخ القانون والتشريعات القديمة ، ومنها كتب الدكتور صوفي أبو طالب ، والدكتور فتحي المرصفاوي ، وانظر كذلك موقع الدرر السنوية : موسوعة الأديان- الباب الثاني: اليهودية وما تفرع عنها - الفصل التاسع: وصف اليهود للأنبياء عليهم السلام في التوراة المحرفة - المبحث الخامس: داود عليه السلام

<https://dorar.net/adyan/234/>

(4) رواه البخاري ج15 ص 39 رقم 4447

(5) رواه البخاري ج4 ص 95 رقم 951

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ **مَحْذُورًا**) (57) استهجن القرآن عقيدة الكافرين في دعاء الله ، إذ لا يدعون الله مباشرة ، بل يلجئون إلى وسطاء في ظنهم أنهم يبلغون الدعاء لله ، من هنا اتخذوا هؤلاء الوسطاء آلهة مع الله ، فأضحوا يعبدون الله عن طريق عبادتهم للجن على أنهم ملائكة أو يعبدون الأنبياء للتقرب إلى الله بهم .

قال ابن عاشور (والابتغاء على هذا ابتغاء محبة ورغبة، كقوله: (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) [الزمل:19] وقريب من معناه قوله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) [الانبياء:26]، فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته)¹.

فيستنكر الله عليهم ذلك بقوله (أيهم أقرب) أي عبادتكم لله تعالى دون واسطة من ملك أو رسول أقرب ؟ أم عبادتكم له عن طريق تلك الوسائل التي لم يشرعها الله تعالى ؟

لا شك أن العبادة لله دون واسطة أقرب ، إذن لماذا تتخذون بينكم وبين الله واسطة ، وهو لم يأذن بذلك ، فهؤلاء الوسطاء هم كذلك أحوج إلى عبادة الله تعالى والتقرب إليه بالطاعات ، قال ابن القيم (والمعنى إن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونهم فهم عبيده كما أنكم عبيده ، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيده)².

قال ابن عاشور (الإلهية تقتضي عدم الاحتياج ، بينما ما تعبدون يفتقرون إلى الله ، فكان مآل قولكم إنهم عباد لله مكرمون عنده كاف في تفطنكم لفساد القول بإلهيتهم)³

حتى أن الجن الذين كنتم تعبدون وتتخذونهم واسطة بينكم وبين الله دون أن تدروا قد أسلموا وحسن إسلامهم .

فَعَنَ عَبْدُ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) قَالَ كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أَسْلَمُوا وَكَانُوا يُعْبُدُونَ فَبَقِيَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ وَقَدْ أَسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ)⁴ ، وكذلك الأنبياء فهم عباد الله ، ويتقربون إليه بالعمل الصالح .

قال ابن القيم (جمعت هذه الآية بين المقامات الثلاثة - مقامات السالكين جميعها وهي الخوف والرجاء والمحبة - فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه ثم يقول ويرجون رحمته ويخافون عذابه فذكر الحب والخوف والرجاء)⁵ ، إذن هناك وسائل مشروعة للتقرب إلى الله ، وهي طاعته ، ووسائل غير مشروعة لم يأذن الله بها للتقرب إليه بها كدعاء الوسطاء ، ويمكن تلخيص المسألة كالتالي :-

أولاً: الوسائل المشروعة (التي أمر الله بها) : هي كل طاعة وقربة ثبتت في الشرع، وتُقرب العبد من ربه، ومنها:-

¹ التحرير والتنوير ج14 ص 90

² طريق الهجرتين ج1 ص 440

³ التحرير والتنوير ج14 ص 90

⁴ رواه مسلم ج14 ص 330 رقم 5356

⁵ طريق الهجرتين ج1 ص 440

- التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته: مثل قولك: "اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم أن ترحمني.
- التوسل بالأعمال الصالحة: أن يطلب العبد من الله إجابة دعائه بفضل عمل صالح أخلص فيه لله، مثل (بر الوالدين، أداء الأمانة، الصدقة)، كما في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة.
- التوسل بدعاء الرجل الصالح الحي: أن تذهب لشخص تُعرف فيه التقوى والصلاح وهو على قيد الحياة، وتطلب منه أن يدعو الله لك، كما كان الصحابة يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم.
- الالتزام بالفرائض والنوافل: مثل المحافظة على الصلوات الخمس، بر الوالدين، قراءة القرآن، وكثرة ذكر الله.

ثانياً: الوسائل غير المشروعة التي لم يأذن بها الله هي الوسائل لكن يعتقد أصحابها أنها تقربهم إلى الله، لكنها تفضي إلى البدع أو الشرك، ومنها:-

- دعاء الموتى والغائبين (دعاء الوسطاء) كمن يذهب إلى قبر نبي أو رجل صالح فيقول: "يا فلان اشفع لي عند الله" أو "اقض حاجتي"، وهذا هو عين ما كان يفعله أهل الجاهلية الذين قال الله عنهم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)
- التوسل بجاه أو بركة الأشخاص: مثل قول: "اللهم إني أسألك بجاه فلان أو بحق فلان أن تغفر لي"، فهذا لم يرد في الشرع لأن جاه العبد لمنفعته هو ولا يملك العبد أن يجعله وسيلة لدعاء غيره.
- العبادات المبتدعة: التقرب إلى الله بعبادات وأذكار وطقوس لم يشرعها النبي ﷺ ولم يفعلها الصحابة، مثل إحداث مواسم وأعياد دينية لم يأذن بها الله. كالموالد والحضرة.. الخ
- التمسح بالقبور والأعتاب: التبرك بأحجار القبور، أو جدرانها، أو الطواف حولها تقرباً لأصحابها، فكل هذا من المحدثات والوسائل غير المشروعة.

المحور الرابع

الخوف من لوازم الإيمان

قال تعالى (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْحِيَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا (63) وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)

رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)

تناول الآيات الكريمة من سورة الإسراء (من الآية 58 إلى 72) منظومة سنن الله الكونية والنفسية في خلقه، وتدور حول وحدة موضوعية ركيزتها: التحذير من أسباب الهلاك، وبيان تقلب الإنسان بين نعم الله الكونية ووساوس الشيطان، وتكريم الله لبني آدم وإقامة الحجة عليهما يوم القيامة.

فتفسير الآيات بأسلوبها البديع الجامع بين الوعيد الحازم والرحمة الواسعة، لترسم مسار النفس البشرية ومصيرها، إذ تبدو الوحدة الموضوعية والترابط البنائي من خلال تنتقل الآيات في دفعات شعورية وفكرية متماسكة:-

ففي البداية تقرر الآيات من (58 - 60) حتمية النفاذ في سنن الإهلاك والوعيد، وبيان طبيعة الآيات والمعجزات التي يرسلها الله تخويفاً وتذكيراً، لا استجابةً لعناد البشر.

وفي الوسط تعود الآيات من (61 - 65) إلى جذر الصراع الإنساني؛ قصة آدم وإبليس، لتوضح سبب الغواية والضلال الذي يؤدي بالبشر إلى الهلاك المذكور في البداية.

ثم تذكر الآيات من (66 - 69) التحول الكوني والنفسي وتضرب الأمثال من واقع الحياة (ركوب البحر) لبيان تقلب النفس البشرية بين الجحود عند الرخاء، والالتجاء إلى الله عند الشدة.

وتأت الخاتمة الآيات من (70 - 72) لتبرز مقام التكريم الإلهي للإنسان، وتحميله مسؤوليته الاختيارية التي تتجلى عواقبها يوم القيامة حين يُدعى كل أناس بإمامهم.

الخريطة الذهنية للسياق

القاعدة : كل قرية ظالمة لها موعد مع الهلاك البشري والآخروي.

السبب التاريخي : إبليس أخذ عهداً على نفسه باحتناك ذرية آدم وإضلالهم.

النموذج العملي للضلال : تكذيب المشركين بآيات الله كـ "الشجرة الملعونة" سخريةً وعناداً.

الحجة الواضحة : جحود الإنسان الذي يتذكر الله في البحر (الفلك) وينساه في البر، رغم أنه محاط بقدرته الله وخطر الخسف والقصف.

النتيجة والفرز : تذكير الإنسان بتكريم الله له حتى لا يهين نفسه لاتباع الشيطان، وتحذيره من يوم القيامة حيث سيُحشر كل إنسان مع "الإمام" والقائد الذي اختار اتباعه في الدنيا.

الشرح الموضوعي للآيات

أولاً: حتمية السنن الإلهية وطبيعة الآيات (الآيات 58 – 60)

تبدأ الآيات بافتتاحية مهيبة تهز القلوب **وَإِنْ مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا...** ، وهو إعلان لناموس كوني لا يتخلف؛ فالظلم والعنوة عاقبتهما الزوال. ثم يرفع القرآن الحجاب عن حكمة عدم إرسال المعجزات المادية المشهودة التي طلبها مشركو مكة، مبيناً أن الأمم السابقة (كثمود) كذبت بها فاستحقت الاستئصال، والله يرسل الآيات تحويفاً ، ورحمة ليوظ الضمائر لا ليعاجلهم بالعقوبة. وتأتي الإشارة إلى الرؤيا و"الشجرة الملعونة" (شجرة الزقوم) كاختبار ومحك للتمحيص البشري بين مصدق بآيات الله وجاحد بها.

ثانياً: جذر الصراع البشري.. كبرياء إبليس وغواية الإنسان الآيات 61 – 65

ينتقل السياق إلى مشهد قديم متجدد، يعيد إبراز أصل المأساة الإنسانية. حيث يسجد الملائكة لآدم طاعة لله ، ويأبى إبليس كبراً وعناداً **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** " وينبئ هذا التساؤل الاستنكاري عن قمة الجهل والاستكبار الشيطاني الذي يقيس الأمور بظواهر المادة (الطين) ويغفل عن النفخة الإلهية "الروح" .

ويبدو استعلاء الشيطان وهو يتحدى ربه بإعلانه العزم على أن يستأثر بإغواء ذرية آدم **"لَأُخْتِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا"** ، والاحتناك تشبيهه بليغ مأخوذ من وضع اللجام في فم الدابة لقودها حيث يشاء القائد

ويأتي الرد الإلهي حاسماً بترك الحرية له ولأتباعه ، إذ بذلك يبدأ ابتلاء الإنسان ، مستعرضاً أدوات الحرب الشيطانية : الصوت المثير (الاستفزاز)، الخيل والرجل (الجلبة والجيوش المادية والمعنوية)، والمشاركة في الأموال والأولاد بالربا والحرام وتغيير الفطرة. ورغم وسائل الشيطان في هذه الحرب كثيرة إلا أن سلطانه يسقط ويتحطم أمام فئة واحدة (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ، فحصن العبودية لله منيع لا تخترقه سهام الغواية.

ثالثاً: جحود الإنسان وتدبير الله الكوني (الآيات 66 – 69)

ينتقل المشهد من عالم الغيب والصراع مع الشيطان إلى واقع الحياة المعيشية ، فيصور لنا القرآن مشهد لراكبي البحر وهم يتتبعون فضل الله ؛ فالله هو الذي يزجي الفلك رفقا ورحمة. ولكن، ما إن تشتد الأمواج وتحقق الأخطار حتى تسقط الآلهة المزيفة والغرور البشري "ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ" ، فتخلص الفطرة لله وحده.

والعجيب في النفس البشرية هو سرعة نكرانها؛ فما إن يكتب الله لهم النجاة إلى البر حتى يعرضوا متناسين فضل الله "وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا" وهنا يقرع القرآن قلوبهم بسلسلة من تساؤلات الوعيد المخيفة: "أأمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر؟ أم أأمنتم أن يرسل عليكم حاصباً (ريحاً ترمي بالحجارة)؟ أم أأمنتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم؟" إنها مواجهة صارمة تبين أن الإنسان في قبضة الله وتديره أينما حلّ وارتحل.

رابعاً: ميثاق التكريم والمصير الأخروي (الآيات 70 – 72)

بعد استعراض مظاهر الجحود البشري، تأتي آية من أرفع آيات التكريم الإنساني (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) هذا التكريم بالعقل، وبالفطرة، وبالسيادة على سائر المخلوقات، هو الحجة البالغة على الإنسان؛ فكيف يُقابل هذا الإعزاز الإلهي بالخضوع لغواية الشيطان؟! وتختتم هذا المقطع بمشهد الحساب الأخروي، حيث يُستدعى كل بشر مع "إمامه" (كتاب أفعاله، أو نبيه، أو قدوته الذي اتبعه). فمن أوتي كتابه بيمينه يقرأ كتابه بفرح ولا يُظلم مثقال فتيل نواة من تمر . أما من اختار العمى عن الحق في الدنيا وعاش في تيه الغواية "فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا" ، عمى عن طريق الجنة وجزاءً وفاً لعمى بصيرته في الدنيا.

إذ يكشف هذا المقطع من سورة الإسراء عن هندسة بديعة في النظم تُنسج فيها الآيات والقصص في مسبحة واحدة، يمسك أولها آخرها. ما تبدت في الظاهر لقطات متفرقة بين هلاك القرى، وعناد إبليس، وتقلب الفلك في البحر، وتكريم الإنسان، ما هي في الحقيقة إلا مشاهد متسلسلة لقصة الوجود الإنساني، وصراع الهداية والغواية على مسرح هذا الكون.

فمن هلاك القرى إلى أصل الحكاية (آدم وإبليس) إذ تبدأ اللوحة بإنذار كوني حاسم (وَأِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَنَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا) هذا مصير حتمي للقرى بوجه عام لانتهاه أجلها ، أو لظلمها ، ثم ينتقل السياق مباشرة إلى "أصل الحكاية" وجذر المشكلة، وهي قصة آدم وإبليس. يذكر القرآن رفض إبليس السجود لآدم، وكبره الذي دفعه لإعلان الحرب الشرسة (لَأَخْتَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) ، والرابط بينهما أن هلاك القرى وعذابها ليس ظلماً من الله، بل هو نتيجة منطقية لاستسلام الإنسان لعدوه الأول ، ومن هنا نجح إبليس في "احتناك" البشر (أي قيادتهم وتوجيههم كالدواب) نحو التكذيب والفساد. فالقصة تفسير لسبب هلاك القرى.

وفي وسط هذا الصراع، تبرز قصة "الشجرة الملعونة" (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) أجمع جمهور المفسرين (كابن عباس وغيره) على أنها شجرة الرقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، ومناسبة ذكرها في هذا السياق أنها عاقبة اتباع إبليس ، فقد زين لهم الدنيا فاتبعوه لأجلها فكانت نهاية أمرهم شجرة الرقوم ، وتلك هي ثمرة الغواية

ثم ينتقل السياق بعد ذلك إلى مشهد حسي يعيشه الإنسان (رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ) ، والرباط بين هذا المشهد والسياق أنه تطبيق عملي يكشف زيف الإنسان وتناقضه. فحين يركب البشر الفلك ويحيط بهم الموج والضرر، ينسون إبليس وشركاءهم، ويتضرعون لله وحده. لكنهم بمجرد أن ينجوا إلى البر، يعودون إلى غفلتهم ويقعون في شباك الاحتناك للإبليس مجدداً!

ولذلك جاء التهديد الإلهي للإنسان المتقلب حاله مباشرة كالصاعقة توفظ الغافل من غفلته . كأن الآيات تقول للإنسان: إن نجوت من البحر، فلا تأمن مكر الله في البر، فإن قدرته تحيط بك في كل مكان (خسفاً من تحتك، أو قصفاً من فوقك). وهو رد مباشر على استكبارهم وتكذيبهم بعد النجاة.

وفي الختام يأتي التقرير بتكريم آدم وتأهيله لمسئولية الخلافة ، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) فالله لم ينقصه شيئاً من النعم بل أفاض عليه منها حتى وصل إلى درجة التكريم ، فعليه أن يكون بشكر النعمة بحق ، وينتبه لإمامه الذي يقوده الطريق ، فلا يجعل الشيطان قائده ، فالذي يقوده في الدنيا هو الذي يقوده لمصيره في الآخرة (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) هنا يُسدل الستار على المشهد الكوني. في ذلك اليوم، سينقسم البشر إلى فريقين بناءً على خياراتهم في الدنيا:

فريق اتبع "إمام الهدى" (الأنبياء والكتب)، وهم الذين حافظوا على تكريم الله لهم، ف (يُقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

وفريق اتبع "إمام الضلالة" (إبليس ومستكبري القرى)، فعميت بصائرهم في الدنيا، وسيكونون في الآخرة عمياً ، وأضل سبيلاً.

الخلاصة أن القرى تُهلك بذنوبها ← والذنوب يبدأ من استسلام الإنسان لاحتناك إبليس وتزيين الدنيا ← الذي يصل بهم إلى خيبة أملهم (الشجرة الملعونة) ← فالإنسان الذي ينسى نعم الله عليه وكرمه وإنجائه فيكفر ← هو الذي يستحق التهديد بالخسف والقصف ← رغم أن الله كرمه وأعطاه مقومات السيادة ← لينتهي الأمر يوم القيامة بمشهد بفرز البشر؛ كلٌ يتبع إمامه الذي اختاره في الدنيا "إما إلى كرامة الكتاب، وإما إلى عمي الحساب".

قال ابن القيم (الخوف أحد أركان الإيمان ، فهو مدار مقامات السالكين جميعها ، وهي الخوف والرجاء والمحبة ، قال أبو العباس الخوف هو الانحلاص عن طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب .

قال أبو حامد الغزالي :-

سقي في الحب عافيتي ... ووجودي في الهوى عدي

وعذاب ترتضون به ... في فمي أحلى من النعم

هذان البيتان يمحلان معاني الفناء في المحبة الصادقة، سواء أكانت في حب الله تعالى أو في حب النبي ﷺ .

يخبر الشاعر أن مرضه وتعب جسمه ونحوه في هذا الحب ليس مرضاً ضاراً، بل هو عين عافيته وسلامته الروحية، لأن آلام الحب تُطهر القلب. أما وجوده المستقل وأنايته وبقاؤه لنفسه في هذا الهوى فهو بمنزلة "العدم"، بمعنى أنه لا يحس بوجوده الحقيقي إلا عندما يفنى في محبوبه.

ويبالغ الشاعر في بيان درجة خضوعه ورضاه، فيقول إن العذاب والبلاء الذي يصدر عن المحبوب أو يرضاه لي، أستعذبه وأجده في فمي ألد وأحلى من أطيب النعم والملاذات، لأن العذاب من أجل مَنْ تحب هو في ذاته لذة.

فلما كان ذلك وكان سياق آيات هذا المقطع يدور حول تخويف الله الإنسان عقوبته حتى يخاف ربه فقد اتخذت لذلك وسائل عدة ، وذلك ظاهر من خلال هذه النقاط :-

- تخويف الله الإنسان بسنته في إهلاك القرى قبل يوم القيامة
- تخويف الله الإنسان بإرسال الآيات ، وبما رآه الرسول في رحلة الإسراء من عذاب أهل النار .
- تخويف الإنسان من عدوه الشيطان ليحذر استفزازه .
- تخويف الإنسان من تقلب حاله ، وهو يبتغي فضل الله مطمئنا في البحر وحاله عندما يصيبه الضرر في البحر ، ثم نكوصه علي عقبه .
- تهديد الله للناجين أول مرة بالهلاك في المرة الثانية أو الثالثة .. الخ .
- تذكير الله للإنسان بتكريمه وسيادته وتفضيله علي العالمين ليحذر من مهانة تسلط الشيطان عليه حتى يتسنى له أن يضطلع بمسئولية التكليف
- تخويف الانسان من أن تعمى بصيرته في الدنيا أن ينقلب إلى عمى البصر في الآخرة

النقطة الأولى : تخويف الله الإنسان بسنته في إهلاك القرى قبل يوم القيامة

قوله (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (58) المقصود بالقرى هنا - على كلام المفسرين - الظلمة ، قالوا إن السياق دال على ذلك ، والمعنى أنه لن يفلت من عقاب الله في الدنيا أهل قرية ظالمة ، ومن ذهب هذا المذهب الإمام ابن كثير قال (وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم)¹ ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) ، وهذا المعنى مقبول ومعلل بأن انتقام الله من الظالمين واجب ، بذلك كفى الله المؤمنين أن ينتقموا لأنفسهم ، ليتجردوا في دعوتهم لله ، ويتركوا مسألة الانتقام لله الذي تكفل بها سبحانه ، وجعلها سنة مؤكدة حصرا وقصرا .

ويسير الشعراوي مع هذا الرأي فيتساءل في حكم هذه الآية (هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم؟ ويجب بلا معللا بأن (هذا حكم مطلق والإطلاقات في القرآن تقيدها قرآنيات أخرى، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه (ذلك أن لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) (الأنعام: 131)، وقال تعالى: كَبُرُ نَكَاحَ أَمَوَ)،¹ قبل سلا دعلقلا نم ءانتتسالا حضوت قصصخ تايأ هذهدف (117: دوه) (نوحلصم اهلهاؤ ملظب برقلا كلهلل

¹ (تفسير ابن كثير ج 5 ص 89

الإِ حْلِصُمْ رِغْوَةً فَلَاحُ رِغْبَةٍ قَرِيبٌ خَمْ نَأْوِ ، نَلْمِ نَعْمَلَا نَوَكِيفُ ، عِيَالًا هَبْ تَعَاجِ نَلْمَا مَعَالَاوْ قَبَايِلَا أَدِمَلَا دِيْقَتُوْ
(اِهْبِذْهُمْ وَأَاهْكِلْهُمْ هَلَالًا)¹ .

لكن إذا وسعنا مفهوم الهلاك ،وحملنا معناه على الموت ، وهذا جاء وتستسيغه اللغة ، فذلك يكفي لأن يكف الظالمين عن ظلمهم ، فما من حضارة إلا وسوف تندثر ، وما من قوم إلا وهلكوا ، فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، ولذلك فمن المفسرين من جعل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للقرى الطالحة وقد ذهب إلى هذا المعنى العلامة ابن باز فقال (هذه القرى والمدن لا بد أن تذهب قبل يوم القيامة، إما بعقوبة عاجلة وإما بمجيء القيامة، فإذا جاءت القيامة اندك كل شيء، وهذه الحصون العظيمة والقرى العظيمة والبيوت كلها تذهب حتى الجبال تسير)² .

وهذا يستقيم مع سنة الله تعالى في أنه الواحد القيوم ، وغيره فان وغير باق ، والمعنيان غير متعارضان بل هما متوافقان ، ليعلم الجميع أن هذه الدنيا إلى فناء ، لاسيما وأن حال القرى يتبدل ما بين الصلاح والفساد ، فمن كانوا صالحين اليوم يجوز أن يخلفهم -غدا - فاسدون وظالمون

يؤيد ذلك حديث النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ)³ ، وذلك بعد قبض الريح أرواح المؤمنين ، قال المناوي (لأنه تعالى يبعث الريح الطيبة فتقبض كل مؤمن فلا يبقى إلا شرار الناس)⁴ ، قال السندي (ولا ينافيه خبر : "لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة لأن الغاية فيه محمولة على وقت هبوب الريح الطيبة التي تقبض روح كل مؤمن ، ومسلم ، فلا يبقى إلا الشرار فتحجم الساعة عليهم بغتة)⁵

ومن دلالات الآية ترهيد الناس في الدنيا ، لكي يعملوا للأخرة ، فتكون هي غايتهم ، وتكون الدنيا دار ممر لهم وحسب ، كما في الحديث عث في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، فما من شيء يعلو في هذه الدنيا إلا ولا بد أن ينخفض ، (حَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعُهُ)⁶ ، فما من حضارة ولا دولة علت إلا ولا بد وأن تنزوى وتنحدر حتى تتلاشى وتحللك

النقطة الثانية : تخويف الإنسان بما يرسله الله من آيات ، وبما رآه الرسول في رحلة الإسراء من عذاب أهل الجحيم .

(1) الأهرام المسائي 11 أغسطس 2022 ، <https://gate.ahram.org.eg/News/2716936.aspx>

https://binbaz.org.sa/fatwas/17510/ (2

(3) رواه مسلم ج 14 ص 189 رقم 5243

(4) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 960

(5) حاشية السندي على صحيح البخاري ج 4 ص 107

(⁶) رواه البخاري

قوله (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) (59) فعن ابن عباس قال : سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزدعروا قال الله عز وجل إن شئت آتيناهم ما سألوا فإن كفروا أهلکوا كما أهلک من قبلهم وإن شئت نستأني بهم لعلنا ننتج منهم ، فقال لا بل أستأني بهم فأنزل الله هذه الآية (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة)¹ ، والمناسبة أن ثمود سألوا آية مبصرة فأخرج الله لهم ناقة من الصخر ، وأمرهم ألا يمسوها بسوء ، ولكنهم كفروا وعقروها .

قال ابن جزي (إن أراد بالآيات هنا المقترحة -من الكفار- فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من العذاب العاجل وهو الإهلاك ، وإن أراد المعجزات غير المقترحة ، فالمعنى أنه يرسل بها تخويفاً من عذاب الآخرة ، ليراهم الكافر فيؤمن)² وقيل : (المراد بالآيات هنا الرعد والزلازل والكسوف ، وغير ذلك من المخاوف كما في قوله (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد 13) وقيل هي نوع من العذاب يسلمه الله على أهل المعاصي لعلهم يرجعون ، قال ربنا عز وجل: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) (المؤمنون: 76)

قوله (...وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) (59) قال ابن القيم (أمر سبحانه بالخوف منه في قوله (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) فجعل الخوف منه شرطاً في تحقيق الإيمان ... والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه.

وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه فقال عن أنبيائه بعد أن ثنى عليهم ومدحهم إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا فالرغب الرجاء والرغبة والرهبة والخوف والخشية وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون

وفي الصحيح عن النبي أنه قال (إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية) ، وكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، وقد قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فكلمنا كان العبد بالله أعلم كان له أخوف ، قال ابن مسعود (وكفى بخشية الله علما) ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعرف الناس أخشاهم لله ، ومن عرف الله اشتد حيأؤه منه وخوفه له وحببه له وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحباً فالخوف من أجل منازل الطريق .

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزاؤها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف مالا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو . وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس لعلنه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل فإن شاء

(1) رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص380 رقم 11290 وصححه الألباني : صحيح السيرة 152/1 السلسلة الصحيحة المجلدات 13/191
(2) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص905

أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاعه .. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، فأبي قرار لمن هذه حاله ؟ ومن أحق بالخوف منه ؟ بل خوفه لازم له في كل حال ¹.

ورغم أن الله يرسل الآيات ليزداد خوف العباد من الله ، فإن تأثر الناس بالآيات والإنذار يختلف بحسب حالهم مع الله قد تجلّى هذا التمايز الإيماني في مقالة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود إذ قال (كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعُدُّوْنَهَا تَخْوِيفًا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقُلَّ الْمَاءُ فَقَالَ اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ ثُمَّ قَالَ حَيَّ عَلَى الطُّهُورِ الْمُبَارَكِ وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ) ².

وفي توجيه هذا المعنى، يُفصح الإمام الطحاوي عن عمق هذا التباين؛ فيبين أن رؤية الصحابة للآيات كـ"بركة" إنما نبعت من وجل قلوبهم وخوفهم الإيجابي الذي أثمر زيادةً في الإيمان ومسارةً في العمل الصالح، فغدت الآيات في حقهم غيثاً يفيض بالبركات. وعلى النقيض من ذلك، وقف من بعدهم أمام الآيات موقف الرجل العقيم الذي لا يتبعه عمل، فحرموا بركتها.

قال الإمام الطحاوي في قوله (كنا نعدّها بركة) ؛ لأننا نخاف بها فنزداد إيماناً وعملاً ، فيكون ذلك لنا بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً ولا تعملون معها عملاً يكون لكم به بركة، ولم يكن ما قال عبد الله - عندنا - مخالفاً لما جاء به كتاب الله عز وجل من قول الله عز وجل: (وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) أي: (تخويفاً لكم بها لكي تزدادوا عملاً، وإيماناً فيعود ذلك لكم بركة) ³.

ولا يُظنُّ أن في مقالة ابن مسعود تعارضاً مع البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ بل إن التخويف الإلهي مقصده الأسمى هو حث النفوس على الإنابة والعمل، لتؤول عاقبة الخوف إلى بركة ونماء.

إنها إشارة بليغة من ابن مسعود إلى تمايز الأجيال؛ فقد كان جيل الصحابة الأبرار تكفيهم المعجزات الرقيقة المفعمة بالرحمة والبركة — كنبع الماء — لتثبيت إيمانهم وزيادة يقينهم، في حين احتاجت العصور اللاحقة إلى الآيات المهيبة كالرعد والبرق لتلهز القلوب اللاهية وتوقظها من غفلتها.

قوله (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) هذه الآية توطئة لتكليف النبي ﷺ بأن يحكي لقومه عما رآه في رحلة الإسراء والمعراج ، فلا يخشى أن يكذبوه ، ويزداد تكذيبهم له وسخريتهم منه ، ففيها (إخبار للنبي ﷺ بأنه محفوظ من الكفرة وآمن) ⁴ ، فعن قتادة قال : (أحاط بهم فهو مانعك منهم ، وعاصمك حتى تبلغ رسالته) ⁵، وقال مجاهد (فهم في قبضته) ⁶ ، يقول ابن كثير (يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبيه) ⁷.

¹ طريق الهجرتي ج1 ص 440

² رواه البخاري ج11 ص 415 رقم 3314

³ بيان مشكل الآثار للطحاوي 153/8 شرح مشكل الآثار ج9 ص 6

⁴ تفسير الثعلبي 387/2

⁵ تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 168 رقم 13693

⁶ تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 168 رقم 13692

⁷ (تفسير ابن كثير ج5 ص 91

قوله (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ...) (يعني ما أراه الله ليلة أسرى به وليس برؤيا المنام ولكن بالمعينة إلا فتنة للناس للمشركين لما أخبرهم النبي ﷺ بمسيرة إلى بيت المقدس ورجوعه في ليلة كذب بذلك المشركون فافتتنوا لذلك ، وارتد كثير ممن كان أسلم قبل¹)، فمما أمر النبي ﷺ ببلاغه لقومه رحلة الإسراء والمعراج ، التي لم يكن أحد من قومه ليصدقها في حكايتها لهم ، ولذلك خشي أن يكذبوه ويرتدوا عن الإسلام ، لأن العقل لا يتسوعب هذه القصة ، فكانت امتحانا للناس ليصدقوه فيما يحكيه من غيبات ، إذ لو لم يصدقوه في رحلة إلى القدس فكيف يصدقونه في الرحلة الدار الآخرة ؟ وبهذه الفتنة تكونت النواة الصلبة من الصحابة التي صدقت النبي وأحاطت ونصرت وأزرت في كل المواقف والغزوات .

فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ « أسري به على البراق ، وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام ، يقع حافرها موضع طرفها ، قال : فمررت ببعير من عيرات قريش بواد من تلك الأودية ، فنفرت العير ، ومنها بعير عليه غرارتان سوداء وورقاء....، فلما رجع رسول الله ﷺ حدث قريشا أنه أسري به ، قال : فارتد ناس كثير بعد ما أسلموا ، قال أبو سلمة : فأتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقيل له : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس ثم رجع في ليلة واحدة قال أبو بكر : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأشهد ، إن كان قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : أفتشهد أنه جاء الشام في ليلة واحدة ؟ قال : إني أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء².

وهكذا يُعلم الله سبحانه نبيه أنه أراد بهذه الرؤيا أن يحيط نبيه علما بالناس الذين يؤمنون به وبالغيب ، وغيرهم ممن ليسوا كذلك ، ولذلك لما ارتد كثير من الناس عن الإسلام لما سمعوا ذلك الخبر ، وصدقه أبو بكر الصديق عُرفت بعد النواة الصلبة للدعوة الإسلامية التي تنبت بعد ذلك واستطال زرعها .

قوله (...وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ...) (60) من جملة الآيات التي أخبر بها النبي ﷺ فيما رآه في رحلة الإسراء والمعراج ، شجرة الرقوم التي يخوف الله به عباده ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) قَالَ هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالَ (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) قَالَ هِيَ شَجَرَةُ الرُّقُومِ³.

والرأي الراجح والمأثور عن الصحابة (كابن عباس) والتابعين في تعيين هذه الشجرة الملعونة أنها شجرة الرقوم التي تنبت في أصل الجحيم. ووصفت بالملعونة لأنها "مبعدة عن كل خير"، أو لأن العرب تقول عن الطعام الرديء الضار "طعام ملعون". (وقيل إن الملعون في الآية هم أكلوها)

ومناسبة ذكرها في هذا السياق باعتبارها (فِتْنَةً لِلنَّاسِ) أنها كذلك من الغيب الذي أمر النبي ﷺ أن يحكيه لقومه ، فسخروا منه وقالوا : كيف تنبت الشجرة في النار والنار تحرق الشجر؟

¹ (تفسير ابن أبي زمنين ص 369

² تهذيب الآثار للطبري ج 6 ص 258 رقم 2758

³ (رواه البخاري ج 12 ص 274 رقم 3599

والربط بالسياق : أن هذا الجدال والسخرية يمثل نموذجاً عملياً لكيفية احتناك الشيطان لعقول الكفار؛ حيث استعملوا قياساً عقلياً قاصراً ليرفضوا كلام الله، تماماً كما قاس إبليس سابقاً وقال : (أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً).

فالنبي ﷺ لما حكى لكفار قريش رحلته تلك كذبوه لأنه كان البارحة معهم ، فمتى ذهب ومتى جاء ، وهم يعرفون أنه لم يذهب هناك منذ الصغر ، لكنه لما وصف لهم المسجد الأقصى المبارك كأنه رأي العين ، لم يقدرُوا على أن يكذبوه ، فتلك إذن آية على صدقه ، لكن لما استطرد في الوصف وتحدث عن الجنة والنار وكأنها رأي العين ، وتحدث عن شجرة الزقوم ، هنا عنادوه وظلوا يكذبونه ، مخافة أن يقيم الحجة عليهم ، فيضطروا لأن يؤمنوا بتلك الحجة.

فعن ابن زيد في قوله "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس" قال هذا حين أسرى به إلى بيت المقدس افتتن فيها أناس فقالوا يذهب إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة وقال لما أتاني جبريل صلوات الله عليه بالبراق ليحملني عليها صرت بأذنيها وانقبض بعضها إلى بعض فنظر إليها جبريل عليه السلام فقال والذي بعثني بالحق من عنده ما ركبك أحد من ولد آدم خير منه ، قال فصرت بأذنيها وارفضت عرقا حتى سال ما تحتها وكان منتهى خطوها عند منتهى طرفها ، فلما أتاهم بذلك قالوا ما كان محمد لينتهى حتى يأتي بكذبة تخرج من أفطارها ، فأتوا أبا بكر فقالوا هذا صاحبك يقول كذا وكذا فقال أوقد قال ذلك قالوا نعم ، فقال إن كان قال ذلك فقد صدق ، فقالوا تصدقه أن قال ذهب إلى بيت المقدس ورجع في ليلة فقال أبو بكر نزع الله عقولكم أصدقه بخبر السماء والسماء أبعد من بيت المقدس ولا أصدقه بخبر بيت المقدس قالوا للنبي ﷺ إنا قد جئنا بيت المقدس فصفه لنا ، فلما قالوا ذلك رفعه الله عز ذكره ومثله بين عينيه فجعل يقول هو كذا وفيه كذا فقال بعضهم وأبيكم إن أخطأ منه حرفا قال فقالوا هو رجل ساحر¹.

وعن النبي ﷺ أنه قال (وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الرُّقُومِ قُطِرَتْ لِأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَهُمْ فَكَيْفَ مَنْ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا الرُّقُومُ)²، فاستهزؤوا به وبها .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو جهل لما ذكر رسول الله - ﷺ شجرة الزقوم تخويفاً لهم يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا : لا . قال : عجوة يشرب بالزبد - والله لئن استمكننا منها لنتزقمها تزقماً . فأنزل الله : "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم" [الدخان : 43 ، 44] وأنزل الله " والشجرة الملعونة في القرآن " الآية³.

وقيل أن الشجرة الملعونة في القرآن كناية عن نسل بني إسرائيل ، قال الماوردي (والشجرة كناية عن المرأة ، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجر)⁴

¹ (تهذيب الآثار مسند ابن عباس ج 1 ص 462

² (رواه أحمد في مسنده ج 4 ص 467 رقم 2735 وابن حبان في صحيحه ج 16 ص 511 رقم 7470 وصححه الألباني : مشكاة المصابيح ج 3 ص 234 رقم 5683 صحيح وضعيف الجامع الصغير ج 4 ص 6 رقم 9381

³ (أخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي انظر تخريج السيوطي الدر المنثور ج 6 ص 296

⁴ (التكت والعيون ج 2 ص 439

وقيل في القول الثالث (أنهم اليهود تظاهروا على رسول الله ﷺ مع الأحزاب ، قاله ابن بحر) ، ويؤكد ذلك ما ذكر من علامات القيامة وزراعة اليهود لشجر الغرقد ليختبئوا خلفه عند المعركة الفاصلة بينهم وبين المؤمنين روي أن رسول الله ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يُقاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرَقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ¹ ، قال النووي الغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس وهناك يكون قتل الدجال واليهود² .

لكن عند التحقيق يمكن القول بأن الشجرة الملعونة هي رمز لكل شرك بالله تعالى مثل (ذات أنواط) ، فعن أبي واقد الليثي يقول - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ : لما افتتح رسول الله مكة ، خرج بنا معه قبل هوازن ، حتى مررنا على سدر الكفار : سدره يعكفون حولها ، ويدعونها ذات أنواط ، قلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، قال رسول الله ﷺ "الله أكبر ، إنها السنن ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون" ثم قال رسول الله ﷺ "إنكم لتكرهن سنن من قبلكم"³.

يقول الشيخ باسم جزار (إذا كان اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن ، فهذا يكون على اعتبار أنهم يلتقون في أصل اعتقادي ، ولا يصح أن تكون اليهودية قائمة على النسل ، لأن "اليهودي" في الحقيقة هو الذي يؤمن بالأصول اليهودية ؛ في الاعتقاد والتشريع والأخلاق ، والعدل يقتضي أن يكون اللعن نتيجة لممارسة الفرد أو الأمة لأمر اختياري ، والذي يُرَجَّح أن المقصود بالشجرة الملعونة هم اليهود ، أمور منها :-

أولاً : إن الآية التي نحن بصدددها هي في سورة الإسراء ، والتي تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل ، وهي تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة ، وتُسْتَهْلُ السورة بنبوءة مستقبلية تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة ، ويرد الكلام عن هذا الإفساد في خواتيم السورة أيضاً ، مما يشير إلى مركزية هذا الحدث في السورة التي تسمى الإسراء ، وفي هذا إشارة إلى المسجد الأقصى ، أما تسمية سورة بني إسرائيل فتشير إلى الإفساد. وعليه لا يبعد أن تكون الرؤيا تتعلق بهذه القضية المحورية في السورة.

ثانياً : أن ما رآه الرسول ﷺ من أمور مستقبلية كانت تتعلق بسيطرة اليهود على المسجد الأقصى ، وعلى الأرض المباركة ، - والتي هي عقر دار الإسلام - وتتعلق أيضاً بسيطرة هذه الشجرة الخبيثة على المستوى العالمي ، وذلك في المرحلة الزمنية ذاتها ، ولا شك أن ذلك يُحْزِنُ الرسول ﷺ ، فكانت التعزية له ﷺ أن قيل له " وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس " ؛ فمقاليد الأمور هي بيد الله ، أما ما رأيته يا محمد من سيطرة هؤلاء فهو نوع من الفتنة للبشر ، وما رأيته فهو في حقيقته الشجرة الملعونة ، وبالتالي لن تكون لها ثمار ممتدة ، بل إن هذه السيطرة العارضة محكوم عليها بالإخفاق ، وهي مطاردة باللعن الإلهي.

ثالثاً : يقول تعالى " الشجرة الملعونة في القرآن " وهذا يعني أنه لا بد أن نجد لعنها في القرآن ، وبالرجوع إلى ألفاظ اللعن في القرآن الكريم نجد أن لفظ "لَعَنَ" ومشتقاتها قد وردت 41 مرة ، ولوحظ أن منها 18 مرة وقع فيها لعن اليهود على وجه الخصوص ، ولم يشترك غيرهم معهم في هذه اللعنات ، أما باقي اللعنات ، فإنها كانت للكافرين أو

¹ رواه مسلم ج 14 ص 140 رقم 5203

² تحفة الأحوذ ج 6 ص 410

³ رواه ابن حبان في صحيحه ج 15 ص 94 رقم 6702 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج 5 ص 180 مشكاة المصابيح ج 3 ص 174 رقم 5408

الظالمين أو الكاذبين... ولا شك أنّ اليهود يشتركون في هذه الصفات مع غيرهم ، وعليه ألا تكون هذه الملاحظة الإحصائية مؤشراً على أنّ اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن؟

أضف إلى ذلك أنّ الكثير من الأفكار والمذاهب والمدارس المنحرفة هي من صنع اليهود أو هي متأثرة بعقائدهم؛ كالماركسية، والوجودية، والماسونية... والمستهدف بهذه الأفكار والمذاهب هم البشر الذين نزلت رسالات السماء رحمة بهم ، أفلا يستحق اللعنة كل من نصب نفسه عدواً لله ولرسالاته ، وعدواً للحق والعدل؟! ألم يخبرنا الواقع بأنّ هذا هو مسلك اليهود عبر العصور المختلفة وإلى يومنا هذا؟! بل إنّ القرآن الكريم ينص على أنّ هذا سيكون مسلكهم إلى يوم القيامة.¹

وفي معرض الترجيح بين القولين، يتجلى لنا أن "شجرة الزقوم" شجرة أورد القرآن ذكرها مخفياً بها، بيد أنه لم ترد عليها لعنة؛ فليست هي المقصودة باللعن على الحقيقة، إذ كيف يُوجّه اللعن إلى جماعٍ غير مكلف؟ وإنما جعلت أداة لوعيد الكافرين ونكالهم في الآخرة.

بالمقابل، نجد أن "اليهود" يرجعون في منبتهم وأصولهم إلى نسل نبي الله يعقوب عليه السلام—وهم "بنو إسرائيل"—فشكلوا بذلك شجرةً نسبيةً تنتمي إلى عائلة واحدة، وقد تضافرت الآيات وتواترت في لعنهم بهذه الصفة؛ كما في قوله تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ).

وما أشبه الليلة بالبارحة! فني الله داود الذي مرّ ذكره قبل خمس آيات في قوله تعالى: (وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْنُورًا)، ورغم ما وعاه التاريخ من عذوبة صوته وجلال ذكره، حتى كانت الجبال والطير تؤوب معه وتُسبح، إلا أن شدة عتوّهم طغت على رقة تسبيحه، فجرى اللعن على لسانه ضدهم.

ومن جماع هذا كله، ينقدح في الذهن أن "الشجرة الملعونة في القرآن" إنما هي كناية عن الذين كفروا من نسل يعقوب عليه السلام ؛ إذ انبثت أفعالهم عن البركة ، فلم تثمر شيئاً ، ولا سيما إذا استصحبنا ما قرّره الشيخ بسمال جرار آنفاً من أن لفظ "اليهود" صار علماً على من اتبع تلك الأصول الملتوية وسار في ركابها.

"وجمعاً بين كلا القولين—والله تعالى أعلم بأسرار كتابه— نقول: إنّ كثيراً من الخلاقي جملوا في حياتهم الدنيوية من معين الأفكار اليهودية الآسنة، وتعدّت عقوئهم على مناهجهم الفاسدة، حتى شابهوهم في كثير من أحوالهم؛ ومن كفر بمثل كفرهم خسر معهم، ومن تشبه بفسقهم كان متوعداً بالعقوبة دون الخلود، والعدل الإلهي يقتضي جزاء كل عامل بما كسب، شجرة الزقوم غصّة بعد غصّة تلك الشجرة الملعونة في القرآن والله أعلم بالصواب"

قوله (وَنُحِيقُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا) فالخوف من الله هو رداء العارفين، وسيماء المقربين، وثمرة العلم بالله؛ فكلما اتسعت معرفة العبد بربه، عظم حياؤه وخوفه منه .وبقدر إشراق المشاهدة والأنس في القلب، يتلاشى ألم الخوف ويتحول طمأنينة، كالمحجّب الذي يستعذب البلاء ما دام بعين محبوبه، فإذا غاب المحبوب عاد إليه ألم العذاب.

¹ (بقلم باسم جرار : الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن ، ما هي الشجرة الملعونة في القرآن ، المكتبة الشاملة الحديثة : <https://al-maktaba.org/book/31871/1789>)

وقد جعل سبحانه الخوف شرطاً للإيمان، وجليّةً للأنبياء والملائكة، فكانوا يدعونه "رغباً ورهباً". وليس نقصان الخوف إلا من نقص المعرفة، فمن عَرَفَ الله حقَّ المعرفة لم يسكن قلبه؛ تارةً من وجل الآخرة والمعصية، وتارةً من خشية تغليب القلوب، إذ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يحول سبحانه بين المرء وقلبه؛ فأَيُّ قرارٍ أو أمانٍ لعبيدٍ وهو يعلم أن مصيره بيد مقلب القلوب؟¹

النقطة الثالثة : تخويف الإنسان من عدوه الشيطان ليحذر استفزازه .

قال تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا) (61) فبعد ذكر هذا التهديد الشامل للقرى الظالمة، يأتي السؤال :لماذا يستحق البشر هذا الإهلاك والعذاب؟ والإجابة تكمن في قصة آدم وإبليس لتكشف الجذر التاريخي والسبب الحقيقي لضلال تلك القرى. فالسبب هو استجابة ذرية آدم لغواية إبليس الذي أقسم : (لَأَخْتَبِرَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) (أي سأقودهم كما تُقاد الدابة بلجامها). فإهلاك القرى هو النتيجة الحتمية لنجاح إبليس في "احتناك" أهلها وقيادتهم نحو الكفر والظلم.

قوله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا) (61) إذن أراد الله أن يضرب مثالا للكبر الذي يؤدي بصاحبه للكفر واللعن ومن ثم الإهلاك قبل يوم القيامة ، فضرب المثال بذكر قصة إبليس ورفضه السجود والخضوع لآدم باعتباره خليفة في الأرض ، استكبارا منه دون وجه حق فعوقب باللعن .

والمراد بالسجود في هذا السياق هو التذلل والخضوع وليس العبادة ، فالعبادة لا تجوز إلا لله ، قال الراغب في المفردات " السجود أصله التطامن والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته" ، أما السجود بمعناه الاصطلاحي في الشرع الذي هو وضع الجبهة على الأرض ، فليس هو المقصود من الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وإنما المقصود هو التذلل والتطامن ، بالانقياد لأوامر آدم وقيادته .

والدليل على ذلك أن الله لما أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الباب سجدا (بيت المقدس) كان المعنى المراد هو الدخول على هيئة التطامن والتذلل لا التكبر والغطرسة ، كذلك لما أخبر القرآن في أكثر من موضع سجود الشمس والقمر والنجوم والكائنات لله تعالى ، فمن المعلوم أنها ليس لها قدم ولا ساق حتى تسجد مثل هيئة المصلي في الصلاة ، وإنما المراد الانسياق مع مراد الله الكوني والانصياع لقدرته الكونية وعدم الخروج عنها .

⁽¹⁾ ملخص كلام ابن القيم في كتاب الهجرتين سبق ذكره

وذكر هذه القصة يؤكد الدلالة الرمزية للشجرة الملعونة ، بأن كل من يتكبر فإنه ملعون ، وكل أعماله ملعونة وليست مباركة ، فلن تثمر شيئاً ، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ يقول الله سبحانه الكبيرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم¹.

قال ابن القيم (إن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام كان في امتثال أمره وطاعته سعاده وفلاحه وعزه ونجاته فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة : أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه وهضما لنفسه إذ يخضع ويقع ساجدا لمن خلق من طين وهو مخلوق من نار والنار بزعمه أشرف من الطين فالمخلوق منه خير من المخلوق منها وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه وهضم لمنزلة فلما قام بقلبه هذا الهوس وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة فإنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وميزه بذلك عن الملائكة)².

ولعل ذلك توطئة لبيان تولى أمة محمد مسئولية الخلافة بدلا من بني إسرائيل ، ليستعد هؤلاء للانتقال إلى قيادة الأمة المحمدية لها ، فلا يقع في قلبهم حسد لذلك ، قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (النساء 52) أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (النساء 53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (النساء 54) .

وتأكيدا لهذا المعنى قال رسول الله ﷺ (لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ قال نافع غلام جابر بن سمره : وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ (عَصِيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى أَوْ آلِ كِسْرَى)³.

وقال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا)⁴.

قوله (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)(62) قال الألوسي والمعنى (لأستولين عليهم استيلاء قوياً من قولهم : حنك الدابة واحتنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به)⁵، قال ابن جزري (معناه لأستولين عليهم ولأقودهم ، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة ، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتقاد)⁶، قال ابن عباس (لأستولين)⁷.

¹ (رواه ابن ماجه ج12 ص 211 رقم 4164 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج2 ص 405 رقم 3365

² (إغاثة اللهفان ج2 ص 200

³ (رواه مسلم ج9 ص 338 رقم 3398

⁴ رواه مسلم

⁵ (تفسير الألوسي ج11 ص8

⁶ (التسهيل لعلوم التنزيل ص 907

⁷ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 171



فكأن الشيطان يقود من أطاعه من هذه الذرية كما تقاد البهائم ، وعلى وجه الخصوص ليحتنك الشجرة الملعونة من ذرية آدم عليه السلام ، أي يستولي عليهم إبليس فيجعلهم من أتباعه ، قال تعالى فيهم «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» (سورة البقرة: 102). نبدوا كلام الله وراء ظهورهم ، واستبدلوا الوحي الإلهي بالسحر الذي هو عين اتباع الشيطان .

قوله (قَالَ ادْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا) (63) ، قال ابن القيم (اعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه)¹ ، واليهود هم أكثر الناس اتباعا للشيطان ، فمنهج اليهود والشيطان واحد ، وهو الاستعانة بالشيطان ، ولذلك تجدهم هم الذين يتبعون المسيح الدجال ، ومن قبل اتبعوا السحر كما تقدم في قوله (واتبعوا ما تتلوا الشياطين..) ، قال تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [سبأ 20] ، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) (المائدة 82) .

تتجلى في غواية الشيطان الأولى لآدم وزوجه عليهما السلام عظة خالدة تتردد أصدائها في وعي البشرية؛ فمنذ أن نفث إبليس وسوسته الأولى واعداً بالخلد والملك الزائل، كما صوّر القرآن الكريم: (فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) ، سقطت الإنسانية في اختبارها الأول. ولم يكن شؤم تلك المعصية مجرد هبوط إلى الأرض، بل كان انكشافاً للستر وتبدلاً للحال، تجسده الآية المحكمة: (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى).

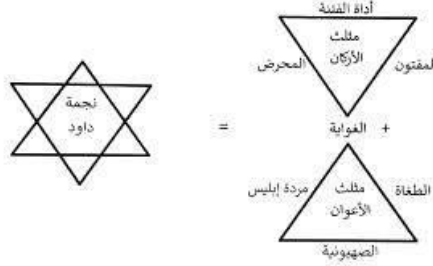
إن هذه الخطيئة لم تكن عثرة عابرة، بل صيغت لتكون درساً ربانياً صارماً لذرية آدم، يحذرهم من تلمس خطوات الشيطان. فالغواية تثمر وحشة، والمعصية تورث شؤماً يلاحق مقترفيها كظله، ليصبح مصير كل من يسير في ركاب الوسوس كمصير الأيوين حين ذاقا الشجرة؛ يُسلب ثوب الطمأنينة، ويدوق مرارة الطرد، وتتخطفه لعنة الذنب حتى يثوب إلى رحمة غفار الذنوب.

وكذلك ينسحب الحائل على من اتبع «شياطين الإنس»؛ وانقاد لسموم أفكار اليهود ووسوسهم الحقيّة، وهو ما نبّهت إليه حكمه الاستعاذة الشاملة من هزات الشياطين من الجنّة والنّاس أجمعين. فاليهود — مُحكم البيان القرآنيّ — هم أشدّ النَّاسِ عداوةً للذين آمنوا وأعظمهم شرًّا؛ بل قد بلغ من حُبِّ مكرهم أن ستمّاهم الله «شياطين» في معرض

¹ (شفاء العليل ج 1 ص 62)

كشفت حقيقة علاقة المنافقين بهم، حين حكى عنهم جلّ وعلا قائلاً: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾¹.

ومن جهة أخرى فإن (شجرة الزقوم) هي جزء العاصي الذي لم يتب في الآخرة، وقد تمكن منه الشيطان واستحوذ عليه.



من جماع ما تقدم يستبين لنا أن هناك خمس شجرات : أربع حقيقية وواحدة مستعارة ، شجرة "جنة الابتلاء" كما في قصة آدم وعقب الأكل منها طرد آدم من الجنة ، وشجر "أنواط" الذي يستعملونها لأغراض السحر وتلبس الجن ، وشجر "الغرقند" الذي يختبئون خلفه يوم انتصار المسلمين عليهم ، وشجرة "الزقوم" وهي شجرة الجزاء للكافرين جزاء موفورا .

، وشجرة "اليهود" أي نسلهم من الكافرين ، الذين ينشرون وساوسهم في الناس كأنهم يزرعون الشر فيهم بأيديهم ويؤلبون الناس بعضهم على بعض تنفيذاً لمخطط الشيطان .

قوله (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (64) هذه الآية حصرت مكائد الشيطان التي بها يتسلط على ابن آدم ، (الاستفزاز ، الإجلاب ، المشاركة ، التغير) وهي كالتالي : -

أولاً : سياسة الشيطان الاستفزازية : يعني وسوسته لابن آدم ليغتر بنفسه ويتكبر ويغضب فيرتكب ما حرم الله انتقاماً لنفسه ، (ومنه استفزه الغضب استخفه)¹ كما قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا) (مريم 83) .

ومن يريد أن لا يتغلب عليه الشيطان عليه أن يتخلق بأخلاق النبي ﷺ فقد قيل في وصف أخلاقه ﷺ (كَانَ لَا يُغَضِبُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَسْتَفْرِهُ)² ولكي لا يقع المسلم في استفزاز الشيطان عليه ألا يغضب عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي قَالَ (لَا تَغْضَبَ فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ لَا تَغْضَبُ)³

(1) تفسير روح البيان ج5 ص 138
(2) شرح السنة للبلغوي ج1 ص 871 باب علامة النبوة
(3) رواه البخاري ج19 ص 74 رقم 5651

فإذا غضب الإنسان فعليه ألا يسترسل في الغضب وليكظم غيظه ، وليهدئ نفسه قبل أن يفور غضبه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ)¹.



قال علماء الإجرام أن الدراسات أثبتت أن 99% من الجرائم والمشاكل التي تحدث بين الناس تحدث في الـ 20 ثانية الأولى من حدوث السبب المؤدي للغضب الذي يشبه الطريق المزدحم المثير للضيق والضرر والمسبب للانزعاج والتوتر، ثم يليه طريق واسع مريح سيستمتع به كل منا إذا تحكّم في انفعالاته في الطريق المزدحم)²

وقد أوصى النبي ﷺ بجملة آداب غير الوضوء لتجنب الغضب ، فعن أبي ذرٍّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ)³
وعن سليمان بن صرد - رجلا من أصحاب النبي ﷺ - قال (اسْتَبْ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحَنَّنَ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَقَالُوا لِلرَّجُلِ أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ)⁴ .

قال الحافظ : هو خطاب من الرجل للرجل الذي أمره بالتعوذ ، أي امض في شغلك ، واخلق بهذا المأمور أن يكون كافراً أو منافقاً ، أو كان غلب عليه الغضب حتى أخرجه عن الاعتدال بحيث زجر الناصح الذي دله على ما يزيل عنه ما كان به من وهج الغضب بهذا الجواب السييء
وقيل : إنه كان من جفأة الأعراب ، وظن أنه لا يستعيز من الشيطان إلا من به جنون ، ولم يعلم أن الغضب من شر الشيطان ومسه ، ولهذا يخرج به عن صورته ، ويزين إفساد ماله كتقطيع ثوبه وكسر آنيته ، أو الإقدام على من أغضبه ، ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال)⁵ .

¹ (رواه أحمد ج 36 ص 421 رقم 17302

² رابط المادة: <http://iswy.co/evr79>

³ (رواه أبو داود ج 12 ص 402 رقم 4151 وصححه الألباني ج 1 ص 70 رقم 696

⁴ (رواه البخاري ج 19 ص 73 رقم 5650

⁵ (مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج 8 ص 165 رقم 2442

وقال النووي (قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه "هل تري بي من جنون" ، كلام من لم يفقه في دين الله تعالى ، ولم يتهذب بأنوار الشريعة ، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالجنون ، ولم يعلم أن الغضب من نزعات الشيطان ، ولهذا يخرج الإنسان عن اعتدال حاله ، ويتكلم بالباطل ويفعل المذموم وينوي الحقد والبغض ، وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب)¹.

الشيطان يستعين على استفزاز ابن آدم بصوته ، يعني صوت الوسوسة التي يسمعه المرء سواء من الشيطان مباشرة أو من أهل سوء ، والمعنى أن الكلمة التي يسمعها ابن آدم سواء من شيطان الإنس أو الجن قد تنمي شرا بين الناس فتوقع بينهم ، كأن يأمره بإفشاء الأسرار بين الناس للإيقاع بينهم ، ويفسد المرأة على زوجها والزواج على زوجته ، يقول النبي ﷺ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا)² والتخبيب هو إفساد المرأة على زوجها، بأن يسعى إلى أن يفسد ما في قلبها حتى يكون الفراق)³ ، وهكذا يستبين صوت الشيطان في كل استفزاز يقع بين الناس فيصير إلى ومفسدة وفتنة ، ولا يطرده إلا صوت الآذان ، الله أكبر .

وفي المقابل يقول النبي ﷺ (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيرا أو ينمي خيرا)⁴ ، قال النووي في الشرح (وحاصله أن يأتي بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه وإذا سعى في الإصلاح نقل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلاما جميلا ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك)⁵ ، قال البيضاوي : (قوله ينمي خيرا أي يبلغ خير ما يسمعه ويدع شره يقال نميته الحديث مخففا في الإصلاح ونميته مثقلا في الإفساد ، والأول من النماء لأنه رفع لما يبلغه والثاني من النميمة وإنما نفى عن المصلح كونه كذابا باعتبار قصده ، وهذه أمور قد يضطر الإنسان فيها إلى زيادة القول ومجاوزة الصدق طلبا للسلامة ودفعاً للضرر ورخص في اليسير من الفساد لما يؤمل فيه من الصلاح والكذب في الإصلاح بين اثنين أن ينمي من أحدهما إلى صاحبه خيرا ويبلغه جميلا ، وإن لم يكن سمعه منه بقصد الإصلاح)⁶

ثانيا : حملات إبليس الإجلالية : قال ابن كثير (واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم .. ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه)⁷ ، أي شن حرب شعناء ، كناية عن محاربته لابن آدم بكل قوته ، وفي أماكن ضعفه ، وقلة حيلته ، وفي ذلك دلالة عظيمة على أن الشيطان لا يدخر وسعا لإغواء ابن آدم ، وأنه يشن حملات وجولات ، وكلما فشلت حملة تبتعثها حملة أخرى وهكذا لا ييأس الشيطان من إغواء ابن آدم

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات إليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق وأمدّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق ، ونصب له من المصايد والحبال ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من

¹ مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج8 ص 165 رقم 2442

² رواه أبو داود ج6 ص 86 رقم 1860 صحيح وضعيف الجامع الصغير ج20 ص 140 رقم 9568

³ شرح سنن أبي داود ج12 ص 188

⁴ رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 139 رقم 385

⁵ شرح النووي على مسلم ج16 ص 158

⁶ فيض القدير للمناوي ج5 ص 458

⁷ تفسير ابن كثير ج5 ص 94

مصايد ومكايد إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول ضمن (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) [الحجر : 42] فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين وإشعار القلب¹.

فمن مظاهر جبلة الشياطين على ابن آدم وإبليس يسوسهم ، ما روي عن أبي سفيان عن جابر قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَقْتُنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً².

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ فَيُذْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نَعَمْ أَنْتَ)³ ، قال النووي قوله (نَعَمْ أَنْتَ) : (وهي نعم للمدح فيمدحه لاعتجابه بصنعه وبلوغه الغاية التي أرادها) قوله (فيلتزمه) أى (يضمه إلى نفسه ويعانقه)⁴.

ويستعين إبليس في حملاته بخيله ورجله ، فالخيالة تشن حرب مباشرة ، والرجالة قد يقومون بعمليات خاصة أو سرية ونوعية أو تحركات تكتيكية.

يعني ذلك أنه يشن تلك الحرب بطريقتين ، فإما يشن غارة مباشرة بالخيال الإجلاب عليه بالنساء والشهوة المحرمة أو يجلب عليه بطريقة مستترة كأن يدس رجال من بني آدم يمشون بين الناس كجواسيس وهم في الحقيقة شياطين يسوسون بالشر بين الناس ، وهم أصدقاء السوء يحضون الناس على فعل الأفعال الخبيثة .



فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ "وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ" ، قَالَ : خيل تسير في معصية الله ، وكل رجل يمشي في معصية الله⁵ ، وقال مجاهد (كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ)⁶

فإذا أراد إبليس أن يصرف ابن آدم عن الخشوع في الصلاة كلما هم بالخشوع أجلب عليه بخيله ، فيورد عليه كم هائل من الخواطر والمشاكل ليشغله عن ربه ، يقول له اذكر كذا الأولاد ، العمل ، المال .. الخ، فَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا

¹ (إغاثة اللهفان ج1 ص 6)

² (رواه مسلم ج13 ص 425 رقم 5031)

³ (رواه مسلم ج13 ص 426 رقم 5032)

⁴ (شرح النووي على مسلم ج17 ص 157)

⁵ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 171 رقم 13706)

⁶ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 172 رقم 13707)

نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ فَإِذَا ثُوبٌ بِهَا أَذْبَرَ فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ فَيَقُولُ أَذْكَرُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى لَا يَدْرِي أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا فَإِذَا لَمْ يَدْرِ ثَلَاثًا صَلَّى أَوْ أَرْبَعًا سَجَدَ سَجْدَتِي السَّهْوِ¹.

ومن خيل إبليس - كذلك - المرأة المتبرجة التي تظهر زينتها ومفاتها للرجال ، يقول النبي ﷺ (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من وجه ربحا وهي في قعر بيتها)²، يعني رفع البصر إليها ليغويها أو يغوي بها فيوقع أحدهما أو كليهما في الفتنة أو المراد شيطان الانسان سماه به على التشبيه³.

ومن رجل إبليس - أي المحارب المترجل أي الماشي على رجله - صديق السوء ، يجعله الشيطان رديفا لصاحبه ليوسوس عن طريقه له ، ولذلك يقول النبي ﷺ (الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)⁴، وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَخَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلِ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُخَذِّبَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ يَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ يَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)⁵.

ثالثا : مشاركة إبليس لحياة الإنس : وذلك لعدم التسمية على كل فعل وكل عادة أو عبادة ، وإهمال الذكر وسؤال الله البركة ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ؛ فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوَسَ»⁶.

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ - أي الشيطان يدفعها - فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهَا - منعها من الأكل قبل التسمية - ثُمَّ جَاءَ أَغْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ - أي يدفعه الشيطان ليأكل بغير تسمية - فَأَخَذَ يَبْدُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ يَدَهَا فَجَاءَ بِهَذَا الْأَغْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ يَدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا)⁷.

وعن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول : (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عز وجل عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت وإن لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان أدركتم المبيت والعشاء)⁸.

(1) رواه البخاري ج 11 ص 63 رقم 3043

(2) رواه ابن خزيمة في صحيحه ج 3 ص 93 رقم 1685 والترمذي والطبراني وغيرهم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة المجلدات ج 6 ص 187 رقم 2688

(3) التفسير بشرح الجامع الصغير ج 2 ص 881

(4) رواه أبو داود ج 12 ص 459 رقم 4193

(5) رواه البخاري ج 17 ص 214 رقم 5108

(6) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ج 2 ص 445 رقم 899 ، انظر تخريج السيوطي في جامع الأصول ج 2 ص 445

أخرجه البخاري تعليقا في التفسير - باب سورة { قل أعوذ برب الناس }.

ذكره البخاري تعليقا. ووصله الطبري ي ((جامع البيان)) (754/24) وهو عندهما موقوف على ابن عباس

(7) رواه مسلم ج 10 ص 292 رقم 3761

(8) رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 376 رقم 1096

فإذا غفل المسلم عن ذكر الله والتسمية نزعت عنه البركة ، فإذا ذكر الله عادت إليه ، فعَنْ أُمِّئَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَكَانَ مَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يَأْكُلُ فَلَمْ يُسَمِّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إِلَّا لُقْمَةٌ فَلَمَّا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ¹، ويعضد هذا الحديث قول النبي ﷺ (من نسي أن يذكر الله في أول طعامه، فليقل حين يذكر: بسم الله في أوله وآخره، فإنه يستقبل طعاماً جديداً، ويمنع الخبيث ما كان يصيب منه)².

كذلك لا بد من التسمية حتى عند الجماع لمنع إبليس اللعين من أن يتسلط ، إذا لم يسم الله عليه ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ جَنَّبِي الشَّيْطَانَ وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنِي فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ)³، قال النووي (قيل المراد بأنه لا يضره أنه لا يصصره شيطان وقيل لا يطعن فيه الشيطان عند ولادته بخلاف غيره قال ولم يحمله أحد على العموم في جميع الضرر والوسوسة والاعواء)⁴.

نقل الإمام القرطبي وغيره عن مجاهد بن جبر أنه قال: «إذا جامع الرجل ولم يسم؛ انطوى الجان على إحليله فجامع معه»⁵. وهو أثر يفسر كيفية تلك المقاربة المعنوية أو اللصوق الشيطاني عند غياب الذكر.

رابعا : تغريب الشيطان لابن آدم : يتسلل الشيطان إلى نفس ابن آدم بالوهم والتدليس؛ فيخوفه الفاقة والفقر إن هو جاد بصدقة، ويمتبه بالربح والكسب الخسيس إن هو قامر وولج باب الميسر، ويزين له السطوة والنفوذ إن هو استبد وظلم. وفي هذا التزييف الممنهج يقول الحق سبحانه (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّعِفَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 268).

إن وعود الشيطان ما هي إلا حبال ذكية لإذكاء جذوة الطمع في النفس البشرية، ودفعها صوب الرخص خلف الأوهام والتعلق بالسراب. لذلك حسم التنزيل الإلهي هذا الزيف بالتحذير من الاغترار بالدنيا وتقلباتها، فقال عز وجل : (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ) (لقمان: 33).

وقد قطع الله دابر هذا الوهم بالإخبار بأن وعود الشيطان محض سراب وخداع. وفي بيان حقيقة هذا الخداع، يوضح الإمام ابن عاشور مفهوم (الغرور) بأنه: "إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن".⁶

ومأل هذا كله، أن كل ما يوسوس به الشيطان للإنسان ويسوله له ليس إلا باطلاً وزخرفاً زائلاً. وفي طيات هذه الآيات نذير رباني بليغ يحذر العباد من اتباع خطوات الشيطان، ويدعوهم إلى اليقظة لأكاذيبه ومكائده⁷؛ إذ إن السير في ركابه لا يورث العبد إلا أوهاماً خادعة، وخيبة أمل محقة، وخسراناً مبيناً.

1 (رواه أبو داود ج10 ص 220 رقم 3276 وضعفه الألباني ، وقال الحاكم : (صحيح الإسناد) . ووافقه الذهبي ! ! قلت : وليس كما قالوا فإن المثنى هذا أورده الذهبي نفسه في (الميزان) وقال : (لا يعرف تفرد عنه جابر بن صبح قال ابن المديني : مجهول . ولهذا قال الحافظ في (التقریب) : (مستور) . إرواء الغليل ج7 ص26

2 (رواه ابن حبان في صحيحه ج12 ص 12 رقم 5213 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص197 رقم 198

3 (رواه البخاري ج11 ص 61 رقم 3041

4 (شرح النووي على مسلم ج10 ص 5

5 (وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج9 ص 370 وقال وأخرجه الحكيم الترمذي في نوارد الأصول وابن جرير عن مجاهد انظر تفسير القرطبي ج23 ص 65

من أهل العلم أن "مشاركة الشيطان في الجماع" لا تعني بحال من الأحوال اختلاط نطفة الجنى بنطفة الإنسي في تكوين الجنين الجسدي، وإنما هي مشاركة في التوجيه والتسلط والإغواء أو حضور الشيطان ومقاربتة للمكان والعمل حين يحرم من طرد الذكر (مركز الأبحاث العقائدية)

https://aqaed.net/faq/2463

6 (التحرير والتنوير ج14 ص 123

7 (الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2653

كما أن الشيطان يعد ابن آدم بالأمان إذا سوّف التوبة ، فيغره بتأجيلها ، فعن ابن عباس في قوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) قال : (يقدم الذنب، ويؤخر التوبة)¹.

وعن أنس قال : (التسويق جند من جنود إبليس عظيم ، طالما خدع به)²
قال ابن القيم (فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسويق وطول الأمل)³ .
جاء في الأثر (بادروا بالأعمال خمسًا هرمًا ناكسًا أو مرضًا معتدًا أو ندمًا قائمًا أو موتًا خالسًا أو تسويقًا مؤيسًا)⁴

قوله (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) (65) ونظير ذلك قوله (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين)* وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) ، وقوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (100) ، قال ابن القيم (وتضمن ذلك أمرين :-

أحدهما نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص
والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه)⁵.

قال ابن عجيبة (العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، هم الذين أضافهم إلى نفسه؛ بأن اصطفاهم لحضرة قدسه ، وشغلهم بذكره وأنسه ، لم يركنوا إلى شيء سواه ، ولم يلتجئوا إلا إلى حماه ، فلا جرم أنه يحفظهم برعايته ، ويكلؤهم بسابق عنايته ، فظواهرهم قائمة بأداب العبودية ، وبواطنهم مستغرقة في شهود عظمة الربوبية ، فلمّا قاموا بخدمة الرحمن ، حال بينهم وبين كيد الشيطان)⁶.

وقد بين ابن القيم أنه (ليس لإبليس سلطان على عباد الله المؤمنين لأنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه ، والشيطان حين يدخل على العبد فإنه يدخل عليه مما ابتلى به ، أي من الغفلة والشهوة والغضب ، ولو احتزر العبد ما احتزر فلا بد له من غفلة ، ولا بد له من شهوة ، ولا بد له من غضب ، ولذلك وقع آدم عليه السلام فيما وقع فيه فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه ، فإذا وقع فتح الله له باب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجوء إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتى يقول عدو الله : يا ليتني تركته ولم أوقعه .

وهذا معنى قول بعض السلف : (إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار) قالوا : كيف ؟ قال : (يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلا باكيًا نادما مستحيا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له ، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها

(1) ابن أبي الدنيا : قصر الأمل ج 1 ص 140

(2) ابن أبي الدنيا : قصر الأمل ج 1 ص 140

(3) طريق الهجرتين ج 1 ص 413

(4) أخرجه الديلمي عن أنس (7/2) ، رقم (2072) .

(5) إغاثة اللهفان ج 1 ص 99

(6) البحر المديد ج 3 ص 347

سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة ، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه ، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويدل به عنقه ويصغر به نفسه عنده ، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه¹.

ومن جماع ذلك كله يمكن القول بأن منتهى الخلاص من الشيطان التزام جماعة المسلمين بالتزام الصلوات الخمس معهم ، والجمعات ، ومجالس العلم ، والسعي في طلب الرزق معهم ... الخ ، لقول النبي ﷺ (ما من ثلاثة نفر في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)².

النقطة الرابعة : تخويف الإنسان من تقلب حاله ، درس عملي لمفهوم الإخلاص والنكوص على العقب انتقل السياق إلى إقامة الحجة العملية والمادية على الإنسان من واقع حياته، باستعراض موقف عملي للإنسان وهو يبتغي فضل الله مطمئناً في البحر وحاله عندما يصيبه الضرر في البحر ، ثم نكوصه علي عقبيه ، فهو بين حالين متناقضين : - الحال الأول : الإخلاص في الدعاء حال مواجهة الضرر في البحر (الفلك) : حيث يذكر الله الإنسان بنعمته في تسيير السفن ، فإذا ركب البحر وهجم عليه الموج والضّر، نسي أصنامهم ولجأ إلى الله وحده مخلصاً. الحال الثاني : النكوص علي عقبيه بعد النجاة : فبمجرد أن ينجي الله الإنسان إلى البر، يعود بعض الناس إلى كفره وإعراضه (استجابة للشيطان).

هنا يستوجب التهديد بالخسف والقصف بعد النجاة أول مرة ، إذ يهددهم الله بأن قدرته محيطة بهم في كل مكان؛ فمن أنقذكم من الغرق في البحر قادر على أن يخسف بكم البر، أو يرسل عليكم قاصفاً من الريح (عاصفة مدمرة) فيغرقكم.

والرابط الموضوعي بين هذا المقطع وما قبله أن تقلب الإنسان وجووده، ويوضح كيف أن كفر القرى المستحقة للإهلاك ليس عن جهل، بل عن عناد مكرر، مما يؤكد استحقاقهم للعقوبة الإلهية في أي مكان (براً أو بحراً).

قوله (رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (66) في هذا المشهد يصور القرآن الفلك تسيير في البحر محملة بالأمتعة للتجارة من بلد لآخر تمهيداً لمشهد آخر يظهر فيه الإنسان ، وقد انقلبت الظروف عليه بين لحظة وأخرى من نعمة ورخاء إلى ابتلاء شديد .



¹ الوابل الصيب ج 1 ص 11
² رواه الحاكم في المستدرک ج 1 ص 330 رقم 765 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 3 ص 58 رقم 556

قوله (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ) فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67) في هذه اللحظة الحثيثة يدرك الإنسان أن لا ملجأ له إلا الله ، حيث ينقلب البحر عليه فيكون معرضا للغرق ، وحينئذ يدعو الله أن ينجيه ، قال ابن جزى "ضل" هنا بمعنى (تلف وفقد) أي : (تلف عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه إلا الله وحده ، فلجأتم إليه حينئذ دون غيره ، فكيف تعبدون غيره وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلا إياه)¹ .



فلما أنجاه ؟ هل أعرض أم وفي بوعده ؟

ذكر ابن كثير قصة عكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه ، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه)²

فهذا المثال ذكره القرآن لشرح عقيدة الإخلاص لله تعالى ، حتى يتعلم المكلفون كيف النجاة من تسلط الشيطان ، فالمخلصون لله وحده هم الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وهذا الإخلاص لا يتحقق إلا في مثل هذا الموقف من الضر في عرض البحر ، فهذا الإخلاص التجرد لا يتجلى في أبهى صوره إلا في مثل تلك المواقف العصبية، كحالة الضّر في لجج البحر، (ضل من تدعون إلا إياه) .

وهنا، يُذكر سبحانه وتعالى العبد بفيض نعمته عليه؛ فالله هو الذي سيرّ الفلك ابتداءً، وأزجها بقوة الريح لتخور العباب، متنقلةً بالعباد بين الأمصار يبتغون من فضله تجارةً ورزقًا، فيستشعرون رحمته التي فتحت لهم آفاقًا واسعة للكسب والعيش. وهو سبحانه ذاته الذي عرّضهم لتلك الأمواج العاتية التي تتهدد تجارتهم بالغرق في أعماق البحار، وتوجس في نفوسهم خيفة هلاك أموالهم بل وهلاك أنفسهم.

وفي هذا الموقف الحالك، لا يجد العبد ملاذًا إلا الاستجارة بالله والابتهال إليه طلبًا للنجاة؛ إذ يوقن أنّ الذي أغدق عليه النعم أولًا هو وحده القادر على كشف الضر عنه إذا مسّه. فإذا ما أتمّ الله منّته عليه وبلغه برّ الأمان، أيعود إلى جحوده وكفرانه؟!

¹ (التسهيل لعلوم التنزيل ج 1 ص 910

² (تفسير ابن كثير ج 5 ص 96

فيا عجباً لهذا الإنسان! يدرك كُنه الإخلاص في الشدائد والحن، ويغفل عنه في الرخاء والسَّعة. وقس على ذلك أحوال المرض، والكروب، والمصائب، والزلازل؛ حيث تصفو النفوس وتكون أقرب ما تكون إلى الإخلاص واللجوء الخالص لله دون سواه".

يقول سيد قطب (والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه لبيتغوا من فضله "إنه كان بكم رحيمًا" فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان... ثم ينتقل بهم من الإجزاء الرخي للاضطراب العتي . حين ينسى الركب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه : "ضل من تدعون إلا إياه " . .¹).

قوله (..فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (67) يقول سيد قطب (ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما إن تنجلي الغمرة ، وتحس قدماء ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاها إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .²).

النقطة الخامسة : تهديد الله للناجين أول مرة بالهلاك في المرة الثانية أو الثالثة .. الخ إذا ظلوا علي كفرهم وشركهم .

فالذي يعود للشرك بعدما أحس بالأمان ، وكان من قبل قد ذاق حلاوة الإخلاص واللجوء إلى الله في الحن ، هو يشعر بأمان زائف ، يقول سيد قطب (..وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر - أول مرة - وهو يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه ، لا في البحر ولا في البر؛ لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح)³.

قوله (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) (69) تلك هي الإشكالية بعد إثبات المقدمة السابقة ، تلك المقدمة التي تؤكد على أن الإنسان مجبول على معرفة ربه ، بدليل أنه يلجأ إليه في الشدائد ، كما في قوله (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) [الأنعام : 63] ، فالإشكالية تكمن في أنه يأمن عقاب ربه ، ولا يحذره ، أو يخف عنه ذلك الحذر في الرخاء ولا يكون إلا عند الشدائد ، ولو أن حاله مع ربه في الرخاء كحاله في الشدة لما هدهد بالخسف والقذف والقصف والغرق .

¹ في ظلال القرآن ج5 ص 34

² في ظلال القرآن ج5 ص 34

³ في ظلال القرآن ج5 ص 34



ولذلك يحذر النبي ﷺ أمته لاسيما في آخر الزمان ، فعن النبي ﷺ قَالَ (بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَسْحٌ وَحَسْفٌ وَقَذْفٌ)¹ ، وعن النبي ﷺ قَالَ (يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي حَسْفٌ وَمَسْحٌ وَقَذْفٌ)² ، وفي رواية زاد (ويبدأ بأهل المظالم)³ ، وفي رواية يَقُولُ ﷺ (يَكُونُ فِي أُمَّتِي أَوْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَسْحٌ وَحَسْفٌ وَقَذْفٌ وَذَلِكَ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ)⁴ ، وعن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَسِيَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشْرٍ وَبَطَرٍ وَلَعِبٍ وَهَوٍّ فَيُصْبِحُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ بِاسْتِخْلَافِهِمُ الْمُحَارِمَ وَاتِّخَاذِهِمُ الْقَيْنَاتِ وَشُرْهِمُ الْحَمَرِ وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا وَلُبْسِهِمُ الْحَرِيرِ»⁵.

وفي قوله (يُمْ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) فلا أحد يحاسب الله على ما يصنع يقول الشعراوي ("التابع" : هو الذي يتبعك لعمل شيء فيك ، أما "التبعية" : فهو الذي يُؤايلُ تتبعك ، ويبحث عنك لأخذ ثأره منك ، فالمعنى : (إن فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم) ، أي : (لا أمل لكم في ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم)⁶.

¹ رواه ابن ماجه ج12 ص 72 رقم 4049 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 2 ص 380 رقم 3280

² رواه ابن ماجه ج12 ص 73 رقم 4050 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج 2 ص 381 رقم 3281

³ الأدب المفرد للبخاري ج4 ص 392 رقم 1787 : السلسلة الصحيحة للألباني ج4 ص 392 وقال . (صحيح) . وله شواهد كثيرة منها عن هلال بن يساف نحوه إلا أنه قال : فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله ومتى ذاك ؟ قال : إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر . وفي رواية زاد ويبدأ بأهل المظالم

⁴ رواه ابن ماجه ج12 ص 74 رقم 4051 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجه ج2 ص 381 رقم 3282

⁵ رواه أحمد ج49 ص 483 رقم 23483 وقال الألباني حسن لغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 301 رقم 2377

⁶ تفسير الشعراوي ج1 ص 5271

النقطة السادسة : تذكير الله للإنسان بتكريمه وسيادته وتفضيله علي العالمين ليحذر من مهانة تسلط الشيطان عليه حتى يتسنى له أن يضطلع بمسئولية التكليف

فبعد عرض مشهد الجحود البشري والتهديد بالعقاب، يُختم السياق بهذه المقارنة العظيمة:
(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) : هذه العبارة تضمنت تذكيرا للإنسان بأصله ومكانته الفطرية. بأن الله كرمه بالعقل، وسخر له البر والبحر، وفضله على كثير من الخلق، فكيف يترك هذا التكريم الإلهي وينقاد لإبليس ليحتنكه ويهيننه ويذله تلك المذلة ؟

فالدنيا ما هي إلا ساعات وتنقضي ، ثم تأتي الآخرة يوم ندعو كل أناس بإمامهم : فهذا هو المشهد الختامي والفرز النهائي يوم القيامة ، حيث ينقسم الناس لفريقين : فريق في الجنة ذلك الذي حافظ علي إكرام الله له وخلص من تسلط الشيطان ، وآخر رضي بمتابعة إبليس فاحتنكه ، وقادره إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .

قوله (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (70) وذلك لنفي شبهة السؤال عن سبب القذف والخسف والغرق وما يصيب الإنسان من عذاب الله تعالى ، فيعقب المولى القدير قائلا (ولقد كرمنا بني آدم) هذا هو الأصل ، ولهذا التكريم سبب ، وهو مرتبط بالتكليف والاستخلاف .

قال ابن تيمية (وَقَدْ حَافِظُ الْإِسْلَامِ عَلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبَنِي آدَمَ جَعَلَهُ مُبْدَأَ الْحُكْمِ ، وَأَسَاسَ الْمُعَامَلَةِ ، وَأَخَاطَهُ بِسَيَاحٍ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ إِهْدَارُ كَرَامَةِ أَحَدٍ بِالْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهَا : بِالْقَتْلِ أَوْ بِمُتَاكِ عِزِّهِ ، أَوْ بِالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ وَالْإِسْتِهْزَاءِ بِهِ ، وَهِيَ عَنِ الْمُثَلَّةِ فِي حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأَعْدَاءِ أُنْتَاءَ الْحَرْبِ ، وَبَعْدَ انْتِهَائِهَا)¹.

قوله (وَحَلَّلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (70) فللتكريم مظاهر ، ومن مظاهر التكريم التي ركزت عليها الآية أن الله حمل الإنسان على الدواب في البر وعلى السفن في البحر ، وأن الله سخر له الكون فجعله يأكل من الطيبات من الزرع والأنعام ، ولم يقتصر التكريم على التسخير وحسب ، وإنما جعله مفضلا على غيره من الخلق ، فمن مظاهر ذلك كما قال العلماء (فإن الإنسان يمشي قائما منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه)² .

فعن ابن عباس قال (جعلناهم يأكلون بأيديهم، وسائر الخلق يأكلون بأفواههم)³، قال ابن كثير في تفسير الآية : أَيْ : (لَقَدْ شَرَّفْنَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، بِالْعَقْلِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالنُّطْقِ ، وَتَسْخِيرِ مَا فِي الْكَوْنِ لَهُمْ ، وَفَضْلُنَاهُمْ عَلَى مَنْ خَلَقْنَا مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْجِنِّ ، وَالْبَهَائِمِ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ)⁴ .

¹ مجموع الفتاوى

² أضواء البيان في إيضاح القرآن ج 3 ص 175

³ تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 173

⁴ تفسير ابن كثير ج 5 ص 97



قال ابن تيمية في قَوْلُهُ : " مِمَّنْ " لِلتَّبَعِضِ " (فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُفَضِّلُوا عَلَى الْجَمِيعِ) ¹، وذلك لقوله في الكفار (وَلَهُمْ أَغْنَيْنَ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ) (الأعراف 179) وقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) (محمد 12) .

قال ابن تيمية (فسبحان من البسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدر المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الاخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد .. فالدنيا قرية ، والمؤمن رئيسها ، والكل مشغول به ساع في مصالحه ، والكل قد أقيم في خدمته وحوادثه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والافلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات لاجاريات بحساب ازمنته واوراقته وإصلاح رواتب اقواته والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما اودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه ارضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه) ².

النقطة السابعة : تخويف الانسان من أن تعمي بصيرته في الدنيا فينقلب ذلك إلى عمى البصر في الآخرة

قوله (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) فقال مجاهد وقتادة أي : (بنبيهم) ³، وذلك لأنه هو الشاهد عليهم ، وذلك كقوله تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) ، وقال مقاتل (بكتائبهم) ⁴ ، لأنه الهادي لهم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : (إمام هدى، وإمام ضلالة) ⁵

وكل ما ورد من هذه الأقوال صحيح ، فكل رأي ينظر من جهة مختلفة لذات الشيء ، قال مفتي الديار المصرية (ويحتمل أن المراد بإمامهم : أن كل قوم بمن يأتون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم في الكفر . . .) ⁶، دليل ذلك ما ورد في الصحيحين : " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت . . . " الحديث .

¹ (مجموع الفتاوى ج 4 ص 355

² مفتاح دار السعادة ج 1 ص 264

³ تفسير ابن كثير ج 5 ص 98

⁴ تفسير مقاتل ج 2 ص 268

⁵ تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 173

⁶ الوسيط لسيد طنطاوي ج 1 ص 2659

قوله (فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (72) فهاتان الآيتان رسمتا طريقين لصنفين من الناس لا ثالث لهما ، أحدهما يأتم بالقرآن هاديا له ومستعينا بالله ناصرا له ، يتيمن في كل شيء ، فهؤلاء يمن الله عليهم يوم القيامة بأن يأخذوا كتاب أعمالهم باليمين مستبشرين يقرأونه فيجدون أنفسهم وقد استوفوا حقهم ولم ينقص من أجرهم شيء على نصبهم وتعبهم في سبيل الله ، وصنف آخر كان يعيش في هذه الدنيا كالأعمى لا يريد أن يرى الحق ، ولا يريد أن يستبصر بضوء القرآن الكريم ، فهذا الصنف يحشره الله تعالى يوم القيامة أعمى البصر حقيقة كما كان أعمى البصيرة في الدنيا.

والرابط بين هذه الآية وما قبلها هو نظرة الإنسان واعتباره بتكريم الله له، فعَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى)، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمْ تَصِبِ الْمَسْأَلَةَ أَقْرَأَ مَا قَبْلَهَا: " رُبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ، حَتَّى بَلَغَ: وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (فَمَنْ كَانَ أَعْمَى عَنْ هَذَا النِّعَمِ الَّذِي قَدْ رَأَى وَعَايَنَ، فَهُوَ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ الَّذِي لَمْ تَرَ وَلَمْ تَعَايَنَ " أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)¹، فمن اعتبر بما كرمه الله به كان من أصحاب اليمين ، ولمن لم ير تكريم الله له في خلقه وتسخير الكون له وتشريعاته المنظمة لأموره فهو أعمى .

قال سيد قطب (ومن التكريم أن يكون الإنسان قيماً على نفسه ، محتملاً تبعه اتجاهه وعمله ، حرية الاتجاه وفردية التبعة ، وبهما أستخلف في دار العمل ، فمن العدل أن يلقي جزاء اتجاهه وثمره عمله في دار الحساب) .

¹ (تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 174)

المحور الخامس

الثبات على الإيمان

- و في هذا الموضوع نطوف حول ثلاث نقاط كالتالي : -
- أولا : العلم بأن التثبيت من الله
- ثانيا : وسائل التثبيت الأساسية
- ثالثا : الثبات بعوامل خارجية (إعجاز القرآن الكافرين)

الدرس الأول

الثبات من الله

قال تعالى (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذَا لَأَدْفَنَّاكَ فِي الْخَيْلِ وَضِغَفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سِنَّةٌ مِّنْ قَدِّ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) (77)

قوله (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) (73) تتجلى في هذه الآية أسمى مراتب البلاغة والبيان؛ إذ تصوّر بدقة متناهية شدة الضغوط والفتن التي تعرض لها النبي ﷺ من قبل المشركين، وضراوة حربهم النفسية والاجتماعية لصدّه عن صراط الله المستقيم. لقد بلغت محاولاتهم من القوة والالتواء حداً كادوا معه أن يثنوا عزيمته عن إبلاغ رسالته، أو يقطعوا طريق دعوته.

لقد استنفد الكفار وسعهم في محاولات بائسة ومتكررة لتبديل هذا المنهج الإلهي القائم على العدل والرحمة. فلما أعجزهم أن يحرفوا نصّ القرآن الحكيم أو يغيّروا حروفه ومبانيه - كما فعل أهل الكتاب من قبلهم - عمدوا إلى الالتفاف حوله مستهدفين مضمونه ومخرجاته التطبيقية.

وفي سبيل ذلك، سلّكوا مسلك المساومة والاشتراط؛ فطلبوا منه مراراً إقصاء الضعفاء والمساكين من مجلسه - وهم الطليعة المؤمنة التي صدّفته وآزرتة - لينفرد بالدعوة وجهاء القوم وأهل الجاه والسلطان والنفوذ دون غيرهم.

وكانت غايتهم الخبيثة من هذه القسمة الجائرة هي إسقاط جوهر الدين وقيمته الإنسانية من أساسها؛ فلو استجاب لهم - وحاشاه - لأقرّ بامتيازاتهم الطبقية، ولأظهروا له المودّة والاتباع، متخذين إياه خليلاً. وتلك هي حقيقة فتنهم: محاولة مأكرة للحيلولة بين الرسالة الخالدة وبين عموم الناس.

هذا هو مكمن الخصومة وجوهر النزاع بينهم وبينه؛ إذ رمّوه بقالتهم: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ). فقد نَعَصَ عليهم الحسدُ أن يسيقهم الضعفاء والمستضعفون إلى هذا الفضل، فوهبوا أنّ النبي ﷺ قد يبتهجّ بإسلامهم إن هم أعلنوه، مشروطاً بإقصاء أصحابه وطردهم؛ كبلالٍ وصُهيبيٍّ وسلمانٍ وغيرهم، لاسيما في ظل ذلك المنعطف الذي كدّبه فيه كثير من الناس بَعْدَ رحلة الإسراء والمعراج.

بَيَدَ أَنْ سَعَيْهِمْ ضَلَّ وَخَابَ ظَنُّهُمْ فِي أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ رَكْنًا قَائِمًا عَلَى الْجَوْرِ؛ فمهما ادَّعوا الإيمان بالرسول وما يتلوه من الذكر الحكيم، فإنّ مُساومتهم تلك تَعْنِي تفرّغ المنهج الإلهي من مضمونه الحق، وإفساد ركائز الفهم السليم لجوهر الرسالة

يقول الشعراوي فالمعنى : (لو أنك تنازلت عن المنهج الذي جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، إذ كانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذي جعلهم في حالة عداء لك هو منهج الله

الذي جئت به لهم ، فلو تنازلت عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكن خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذي أرسلك¹

فهذه المقايضة أو المساومة التي يبتغيها أعداء الإسلام مع النبي ﷺ لا تنبيه عن المضي قدماً في دعوته مع أصحابه ، فمهما استخفوا بهم فهم في عينيه أقوىاء ، ففي الحديث أن عبد الله بن مسعود كان يحتز² لرسول الله ﷺ سوكا من أراك، وكان في ساقيه دقة، فضحك القوم، فقال النبي ﷺ : "ما يضحكم من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده إنهما أثقل في الميزان من أحد"³

فلم يكن لرسول الله ﷺ أن يجاري قريشاً في شيء من تبديل منهج الله أو تحريف وحيه. بل إن الله سبحانه عاتبه عتاباً رقيقاً حين انشغل بوجهاء مكة عن الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم؛ ليكون هذا العتاب تنقيحاً لذهنه الشريف من أي محاولة لاستمالتهم، وقطعاً للطريق أمام شروطهم الفاسدة التي يربأ للإسلام حتى عن الاستماع إليها. فإذا كانت قدم عبد الله بن مسعود عند الله أثقل من جبل أحد، فإن مجرد الإصغاء لتلك المساومات الباطلة يُعدُّ مظنة ميلٍ إليهم. ومن هنا، عصم الله نبيه بهذه الآيات عن سماع ذلك اللغظ، حسماً لأطماعهم في استمالتهم، وإحباطاً لفتنتهم، ليخفف صدهم وعنادهم، ويتفرغ الصادع بالحق لرعاية أصحابه ونشر دعوته.

قال صاحب الظلال (هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً ، محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحللول الوسط التي يغروهم بها في مقابل مغام كثيرة ، ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً ، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق ، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها! لأن استعدادهم للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء! والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها ، فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان !) .

¹ (تفسير الشعراوي ج 1 ص 5276)

² (أي أنه صعد نخلة أو شجرة ليقطع شيئاً من ثمارها أو فروعها للنبي ﷺ -ولعله سواك كما في الحديث - فكشف عن ساقيه أثناء الصعود فاستبان للصحابة ضعف ساقيه ونحافتهم فضحكوا لأجل ذلك)

³ (رواه ابن حبان في صحيحه ج 15 ص 546 رقم 7069)

إسناده حسن من أجل عاصم، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم. وهو في "مسند أبي يعلى" 5310.

وأخرجه ابن سعد 155/3، وأبو نعيم 127/1 من طريق عفان، بهذا الإسناد. وأخرجه الطيالسي 355، وأحمد 420/1 - 421، وفي "فضائل الصحابة" 1552، وأبو يعلى 5310، والفسوي 545/2 - 546، والبخاري 2678، والطبراني 8452 من طريق عن حماد بن سلمة، به. وذكره الهيثمي في "المجمع" 289/9، وقال: وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقيّة رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح: وأخرجه الطبراني 8453 من طريق أبي وائل، عن ابن مسعود.

وأخرجه الطبراني 8454 من طريق سارة بنت عبد الله بن مسعود عن أبيها ابن مسعود قال: بينما هو يمشي وراء رسول الله ﷺ إذ همزه أصحابه أو بعضهم، فقال رسول الله ﷺ "والذي نفسي بيده لعبد الله في الموازين يوم القيامة أثقل من أحد"، كأنهم عجبوا من خفته.

وأخرجه 8517 من طريق الأزهري بن الأسود عن ابن مسعود، بنحوه. وأخرجه ابن أبي شيبة 113/12 من طريق زائدة عن عاصم، عن زر، قال: جعل القوم يضحكون مما تصنع الريح بعيد الله تلقية، قال: فقال رسول الله ﷺ "لهو أثقل عند الله يوم القيامة ميزانا من أحد".

قوله (وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (74) قال ابن عطية : « الركون » شد الظهر إلى الأمر أو الحزم على جهة السكون إليه ، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران ، ومنه قوله تعالى حكاية ، (أو آوي إلى ركن شديد) [مود : 80] ¹ ، ورسول الله ﷺ لم يركن ، لكنه كاد يهيم بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم ، ولذلك قيل (كدت) ، التي تفيد المقاربة ، وهي تؤكد المعنى أنه لم يقع منه ركون ، إنما هي خطرة قليلة لم تتأكد في النفس ، وهذه الخطرة مما لا يمكن دفعها ، كهّم يوسف عليه السلام ، وقوله (شيئاً قليلاً) يبطل إثبات وقوع القليل من الركون منه ².



والنبي ﷺ يعلم أن الثبات على الحق من الله تعالى القائل في كتابه (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (ابراهيم 27) ، وأنه لا قوة له إلا بالله ، يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ قَالَ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ³، وعن أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ لفاطمة (ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وأمسيت : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) ⁴

(فلو لم يُرِ الله نبيّه يوسف برهانه، لَوَقَعَ فيما هَمَّتْ به، ولو لم يَكُنْ على إبراهيم بُرْشده، وعلى موسى بتأييده، وعلى آدم وسليمان بالتوبة والإنابة.. لَمَّا قَوُّوا على مغالبة ذلك الزخم العاتي من الضغوط، ومواجهة تلك الأمواج الهادرة من الخطوب. لكنّ الله سبحانه تداركهم بلطفه، وحَمَّهم بمدده وتأييده. وفي هذا التأييد الإلهي بشارّة كبرى لكلّ السالكين دَرَبَ الجنان؛ فبالرغم من أنّ طريق الاستقامة شاقٌّ عسير، تندكُّ من ثِقَلِهِ الجبال، إلا أنّ معونة الله هي التي تمنح القلوب ثباتاً لا يتزلزل، ومَضَاءً لا يلين) ⁵

فمن أهم عوامل الثبات اللجوء إلى الله بالدعاء ، فهذا يدل على (الاستعانة بالله وحسن الظن به وإخلاص العبادة له، وذلك من أقوى الأسباب المعينة على تثبيت الله لعبده بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ⁶

فعن شداد بن أوس قال : قال لي رسول الله ﷺ (يا شداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكتر هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ، وأسألك موجبات رحمتك وعزائم

¹ ابن عطية : المحرر الوجيز ج4 ص 264

² ابن عطية : المحرر الوجيز ج4 ص 264

³ رواه ابن ماجه ج1 ص 231 رقم 195 وصححه الألباني صحيح ابن ماجه ج1 ص 40 رقم 195

⁴ رواه البيهقي في شعب الإيمان ج1 ص 476 رقم 761 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ج1 ص 226 رقم 227

⁵ علي بن نايف الشحود : موسوعة فقه الابتلاء ج4 ص 310 مع بعض التصرف

⁶ علي بن نايف الشحود : موسوعة فقه الابتلاء ج4 ص 370

مغفرتك وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وأسألك خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب¹.

قوله (إِذَا لَأَدَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (75) في ذلك كناية على تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة ، وزوال البهجة والسرور الحاصلان بتمام الدعوة ، وكناية عن الاستدلال بين الكفار بعد أن أشرفوا على السقوط ، وذلك حال الركون إليهم شيئا قليلا ويدل بمفهوم المخالفة أن الذي يمضي في دعوته ثابتا على الرشده هو من يرزقه الله حلاوة الحياة الدنيا ولذة الطاعة وحسن الخاتمة.

وليس في هذا تهديد للنبي ﷺ ، فالله يعلم أن حبيبه لا يقبل أن يفتن في دينه ، وإنما هو خطاب لأمته ، فإذا كان ظاهر الخطاب للنبي ﷺ شديدا فإن الأمة أولى بأن تعي ذلك ، وذلك لأن لكل منا وظيفة ، والثبات على تلك الوظيفة واجب ، وليس بنافلة ، ومثال ذلك كقوله سبحانه في شأن وظيفة الجن (وَمَنْ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (سبا/12) ، فمن ترك وظيفته لم يذق غير وبال أمره ، ولذلك كان النبي ﷺ حريصا على أن يقول في أكثر من حديث (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ)، وكان مما أمر ببلاغه لأمته حادثة الإسراء والمعراج التي تنأى العقول عن استيعابها لولا الإيمان بالله وبالرسول .

قوله (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) (76) تنزلت الآية الكريمة في العهد المكي قبيل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة؛ لتصور بدقة ذلك الواقع العصيب الذي عاشه المصطفى ﷺ بعد أن اشتد أذى قريش وتكالبها عليه، لاسيما عقب فقده نصيره الداخلي زوجته خديجة بنت خويلد، وعمه أبا طالب الذي كان يزود عنه. وقد بلغت غطرسة الكفار مداها حين اتهموه بالجنون عقب صدوعه نبأ رحلة الإسراء والمعراج.

وتعكس الآية ذلك الاستفزاز الشديد والضغط المتواصل الذي مارسه أهل مكة؛ لجعل البقاء فيها مستحيلا، حتى كاد النبي ﷺ يساق إلى الخروج منها سوفاً، وهو عين ما تنبأ به ورقة بن نوفل في بواكير البعثة النبوية، حين اصططحته السيدة خديجة للاستشارة عقب نزول الوحي أول مرة، فجاء في الحديث: (فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا! لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْخُرَجِيْ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤَيِّ وَفَرَ الْوَحْيُ)².

¹ (رواه الطبراني في المعجم الكبير ج7 ص 279 رقم 7151 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج13 ص 31 رقم 3228)
² (رواه البخاري ج1 ص 5 رقم 3)

وفي بيان الإعجاز الغيبي للآية وعاقبة الظالمين، يقول الإمام ابن جزى: (فلما خرج النبي ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة لأجل إذابة قريش له ولأصحابه، لم يبقوا بعد ذلك إلا قليلاً، وقتلوا يوم بدر)¹. فكانت الاستجابة القدرية سريعة؛ إذ هلك صناديد الكفر الذين قادوا لواء التكذيب والأذى، حيث قُتل أبا جهل في معركة بدر، ولم يتأخر عنه أبو لهب كثيراً، إذ أصابه بؤسه فمات بمرضٍ عضال بعد الوقعة بأيام قلائل.

قوله (سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) (77) أي ما من قرية أخرجت رسولها إلا كان خروجه منها سبباً لعذابها وهلاكها، كما في قوله (فَإِذَا نَذَهَبَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) (41) أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ) (الزخرف/42)، وقال سبحانه (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (التوبة/33)

وقد حصل ذلك بعدما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فقتل رؤوس الكفر من قريش، ووقع في الأسر سبعون منهم، ولم تلبث قريش بعد ذلك إلا أن انسل منها من أسلم منهم مهاجراً للنبي ﷺ أو كاتماً لإيمانه حتى فتحها الله له نهاراً دون قتال، فأسلمت قريش من أولها لآخرها.

¹ (التسهيل لعلوم التنزيل ج 1 ص 915)

الدرس الثاني

وسائل التثبيت

قال تعالى (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُفِّرًا (83) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

- (1) الصلاة
- (2) القرآن
- (3) الدعاء
- (4) الاستبشار بالنصر
- (5) الاستشفاء بالقرآن
- (6) معرفة الله في الرخاء
- (7) الصبر عند الشدة
- (8) إصلاح النية أثناء العمل
- (9) تفويض العلم والأمر لله

الوسيلة الأولى للتثبيت : الصلاة

قوله (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (78) قال الشنقيطي (هذه الآية الكريمة من الآيات التي أشارت لأوقات الصلاة لأن قوله "لِذُلُوكِ الشَّمْسِ" ، أي: (لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر ، بدليل الغاية في قوله "إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ" أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء ، وقوله "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ" ، أي: (صلاة الصبح)¹ .



¹ (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 179

قوله: "لِدُلُوكِ الشَّمْسِ" (لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر) معنى الدلوك: في اللغة هو الميل. وعلى التحقيق عند المحققين هو زوال الشمس عن وسط السماء إلى المغرب (أي بدء ميلها بعد الظهر).

الصلوات المتناولة: دخول وقت الزوال يبدأ منه وقت الظهر، ثم يمتد إلى وقت العصر؛ فصار هذا اللفظ شاملاً لهاتين الصَّلَاتين.

قوله: "إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ" أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء معنى العسق: هو الظلمة أو اشتداد ظلمة الليل وبدايته.

الصلوات المتناولة: غاية المدة المذكورة هي أول ظلمة الليل وهو وقت المغرب، يلي ذلك امتداد الليل ودخوله في ظلامه وهو وقت العشاء؛ فانتظم اللفظ صلاتي المغرب والعشاء

قوله: "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ" أي صلاة الصبح

المراد بالقرآن هنا: القراءة التي تُقرأ في صلاة الفجر، وتسمية الصلاة باسم جزء منها (وهو القراءة) مجاز مرسل شائع في لغة العرب.

الصلوات المتناولة: صلاة الصبح (الفجر)، وسميت "مشهودة" لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيها

وجاء ذكرُ مواقيت الصلاة الخمس في هذا الموطن متسماً غاية الاتساق مع سياق السورة؛ إذ تظلل سورة الإسراء بظلال رحلة المعراج النبوية التي كانت مهذاً لفرض هذه الصلوات. وتتجلى عظمة الصلاة في كونها الركيزة الأسمى لتحقيق الثبات على الإيمان، ذلك الإيمان الذي يربو بالطاعات وينحسر بالمعاصي؛ فجاء توزيع مواقيتها على امتداد النهار وآناء الليل ليكون بمثابة غيث متجدد، يؤكد حاجة العبد الدائمة لطلب التثبيت من الله، ويضمن له تطهيراً دؤوباً يتخفف به من أوزار الخطايا أولاً بأول".

فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال (تُحْتَرَقُونَ تُحْتَرَقُونَ فإذا صليتم الفجر غسلتها ثم تُحْتَرَقُونَ تُحْتَرَقُونَ فإذا صليتم الظهر غسلتها ثم تُحْتَرَقُونَ تُحْتَرَقُونَ فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تُحْتَرَقُونَ تُحْتَرَقُونَ فإذا صليتم المغرب غسلتها ثم تُحْتَرَقُونَ تُحْتَرَقُونَ فإذا صليتم العشاء غسلتها ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا)¹.

وقد جمع الإمام الألباني الأحاديث الصحيحة في فضل الصلوات الخمس في كتابه كنوز السنة النبوية نذكر منها ما روي عنه ﷺ :-

قال رسول الله ﷺ (إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتوها فاطفئوها)²

قال رسول الله ﷺ (أرايتم لو أن نهاراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا لا يبقى من درنه شيء. قال فكذاك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)³

¹ (رواه الطبراني في المعجم الصغير ج 1 ص 91 رقم 121 والأوسط 358/2 وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب 86/1 وقال رواه الطبراني في الكبير موقوفاً عليه ورواه محتج بهم في الصحيح)

² (حسن لغيره الطبراني في الأوسط والصغير).

³ (صحيح بخاري ومسلم والنسائي).

قال رسول الله ﷺ (من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهنَّ وسجودهنَّ ومواقيتهنَّ وعلم أنهن حق من عند الله، دخل الجنة، أو قال وجبت له الجنة، أو قال حُرِّمَ على النار)¹.

قال رسول الله ﷺ (لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)²

قال رسول الله ﷺ (من ثابر على اثني عشرة ركعةً في اليوم والليلة دخل الجنة، أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر)³

قال رسول الله ﷺ (إن أقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ولقد هممت أن أمُر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال معهم حُزْمٌ من حطب إلى قومٍ لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)⁴.

الوسيلة الثانية للتشبيب : تلاوة القرآن لاسيما حال الصلاة

قوله (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)⁵ قال العلماء (أراد صلاة الفجر فسمى الصلاة مرة قرآناً ، والقرآن مرة صلاة ، لانتظام أحدهما الآخر)⁶، واستدلوا على ذلك بحديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ تَفْضُلُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ عَلَى صَلَاةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بِخَمْسَةِ وَعِشْرِينَ جُزْءًا ، وَجَمِيعُ مَلَائِكَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا"⁷ .

وجاء في فضل صلاة الفجر ما روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ)⁸، وعنه قال ﷺ (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها)⁹ ، وقال رسول الله ﷺ في الذي يقوم لصلاة الفجر (فيصبح نشيطاً طيب النفس قد أصاب خيراً وإن لم يفعل أصبح

(1) حسن لغیره الإمام أحمد

(2) صحيح مسلم

(3) صحيح النسائي والترمذي وابن ماجه.

(4) صحيح البخاري ومسلم.

(5) يقول الدكتور الطبيب محمد نزار الدقر في كتابه روائع الطب الإسلامي ص 51 (تؤكد الباحثة الفرنسية نيريس دي أن عبارة "النوم المبكر والاستيقاظ المبكر يجعل الإنسان صحيحاً وغنياً وحكيماً" و"إن ساعة النوم قبل منتصف الليل تساوي ثلاث ساعات بعده" فيها بعض الحقيقة، ولقد تبين أن 70% من نومنا العميق غير الحالم يحدث خلال الثلث الأول من الليل، وعندما نتجاوز النوم قبل منتصف الليل فإننا نفقد كثيراً من نومنا العابر غير الحالم.

ويرى الدكتور الراوي (أن ريح الصبا التي تهب في ساعات الفجر لها تأثير لطيف بحس به الإنسان ويستدق حلاوته حيث يكون الهواء المشبع بالأوزون، وقد تبين أن لهذا الغاز تأثيرات رائعة على الجملة العصبية والمشاعر النفسية والنشاط العضلي والفكري، كما أن أروع الإنتاجات الصوتية والتلحين الجميل سجلت وقت الفجر الباكر ، وهكذا فإن قارئ القرآن الكريم بحس بقبالية عجيبة وقت الفجر من حيث نقارة الصوت وصفاته والقدرة على التلحين الجميل، هذا عدا عما فيه من خشوع وصفاء. وقد أشار القرآن الكريم إلى سر هذه المعجزة العلمية عند قوله تعالى: (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) الإسراء.

ويتابع الدكتور الراوي (12) قوله: وفي الحديث النبوي المعجز "بورك لأمتي في بكورها" إشارة إلى سبق علمي عن تأثير ريح الصبا على إنتاج الإنسان العقلي والعضلي خاصة وقد أمر بالقيام إلى صلاة الفجر في الغلس ليستنشق الهواء المشبع بالأوزون وليبعث في أجهزته كلها الطاقة والفعالية والصحة الوفيرة، العلماء اليوم ينصحون الذين يرغبون دواء شبابههم وحيويتهم بالنهوض المبكر مؤكدين أن المعمرين الذين يتمتعون بقوة الشباب وصلوا إلى هذا العمر المديد المشحون بالحيوية بسبب استيقاظهم المبكر واستمتاعهم بريح الصبا كل يوم.

ويؤكد مؤلفا كتاب (مع الطب في القرآن) (6) هذه الحقائق عن فوائد الاستيقاظ المبكر، ويضيف أن هذا الاستيقاظ يقطع النوم الطويل الذي يعرض المسنين للإصابة بالعصيدة الشريانية وحقن الصدر وكثرة حدوث الجلطة القلبية، ويضيف أن أعلى نسبة للكرتيزون في الدم هي وقت الصباح الباكر حيث تبلغ 22-7 مل/مغ/مل من الدم، وأخفض نسبة لها تكون في المساء ومن المعروف أن الكورتيزون هو الهرمون الهام في البدن والذي يعمل على رفع فعاليات الجسم وتنشيط استقلاباته بشكل عام، ويختم المؤلفان بحثهما بقولهما "وهكذا نجد أن المسلم الملتزم بدينه هو إنسان فريد بالفعل يستيقظ مبكراً لاستقبال يومه الجديد بهمة ونشاط وحيث تكون إمكاناته الذهنية والعضلية في أعلى مستوى مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج في المجتمع.. وإن تعمم هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية تظهر منها مجتمعات متميزة تدب فيها الحياة منذ مطلع الفجر".

(6) التبريزي : مشكاة المصابيح مع شرحه من عاة المفاتيح ج3 ص 233

(7) رواه النسائي ج2 ص 283 رقم 482 والبخاري في صحيحه ج14 ص 332 رقم 4348

(8) رواه مسلم ج3 ص 392 رقم 1049

(9) صحيح مسلم والترمذي

كسلاً خبيث النفس لم يصب خيراً¹ ، وقال رسول الله ﷺ (من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبكم الله من ذمته بشيء فإن من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم)² .

ومن السنة المكث بعد صلاة الفجر في المسجد حتى طلوع الشمس ، فعن سماك بن حرب قال : سألت جابر بن سمرة : (ما كان النبي ﷺ يصنع إذا صلى الصبح ؟ قال : (كان يجلس في مجلسه حتى تطلع الشمس)³ ، وفي رواية عن جابر بن سمرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنًا⁴ .

وجاء في فضل الجلوس بعد صلاة الفجر لقراءة القرآن وذكر الله ما روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ صَلَّى الْعِدَّةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ) قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (تَامَّةٌ تَامَّةٌ تَامَّةٌ)⁵ .

قوله (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ) (79) أي التهجد في جوف الليل ، قال المناوي أي (حال غفلة الناس واستغراقهم في لذة النوم)⁶ ، قال العلماء (ولا يكون التهجد إلا بعد النوم ، وتلك النوم هي الهجوع ، قال تعالى (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) (الذاريات/71) ، (فالهجوع النوم ، والتهجد القيام)⁷ .



قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ الصَّيَّامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفَعْنِي فِيهِ وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفَعْنِي فِيهِ قَالَ فَيُشَفَّعَانِ)⁸ .

عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ثَلَاثَةٌ يُجِبُّهُمْ اللَّهُ -وذكر منهم- وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوْضَعُوا رُءُوسَهُمْ فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتَلَوُّ آيَاتِي⁹ ، فالحديث يدل على أن من تعود قيام الليل والتهجد فيه فإنه يداوم على هذه العادة حتى وإن كان على سفر رغم أن له رخصة في تركه في هذا الحال لإجهاده وإعيائه ، قال ابن بطل (تبه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا)¹⁰ .

(1) صحيح ابن ماجه.

(2) صحيح مسلم وأبو داود والترمذي.

(3) رواد الطبراني في المعجم الكبير ج2 ص 216 رقم 1889

(4) رواد مسلم ج3 ص 424 رقم 1075

(5) رواد الترمذي ج2 ص 457 رقم 535 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 11

(6) التفسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 956

(7) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد ج1 ص 41 المؤلف محمد بن علي عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي

(8) رواد أحمد ج13 ص 375 رقم 6447 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص39 رقم21

(9) رواد الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين ج1 ص 577 رقم 1520 ، ورواه الترمذي ج9 ص 132 رقم 2492 وصححه شعيب الأرناؤوط :

صحيح ابن حبان ج8 ص136 رقم 3349

(10) شرح صحيح البخاري ج10 ص 89

قوله (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) (79) ولا شك أن المقام المحمود المحجوز للنبي ﷺ بين الخلائق أن تجاز شفاعته يوم القيامة من بين الأنبياء جميعا ، فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ (إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُنًّا كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانُ اشْفَعْ يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ) ¹ ، روي عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ² .

كذلك فإن المحمود بمفهومه الواسع ليس خاصا بالنبي ﷺ وإنما يحق لمن اتبعه واستن بهديه أن ينال مرتبة محمودة ودرجات عالية ، فللصلاة بالليل والناس نيام درجة عظيمة ومقام محمود ، ولأجل ذلك تحتصم الملائكة في الملأ الأعلى مع بعضها البعض لتقدير ثوابها

قال رسول الله ﷺ (أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثوبي فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، فقال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت نعم في الكفارات والدرجات :-

فالكفارات هي : (المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وأسبغ الوضوء في المكاره ، قال صدقت يا محمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمي وتوب علي وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) ³

والدرجات هي : (إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام) ⁴ .

الوسيلة الثالثة للتثبيت :- التزام الدعاء على كل حال والتوكل على الله

قوله (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) (80) تهيأ النبي ﷺ بما تقدم لاستقبال ما تنبأ به ورقة ابن نوفل من أن قومه سوف يخرجوه من مكة مطاردة ، وأنه سوف يهاجر منها إلى المدينة ، فعن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) ⁵ ، فعن عبد الله بن عدي : قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته بالحزوة يقول : (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت) ⁶ ، فلما استعد النبي ﷺ للهجرة سأل الله تعالى التوفيق والسداد ، واستعان بسلطانه على أعدائه ، فكفاه الله شرهم ، فليس لنا سلطان إلا بالله ، وكفى به سلطانا نصيرا.

(1) رواه البخاري ج14 ص 334 رقم 4349

(2) رواه البخاري ج2 ص 481 رقم 579

(3) * رواه الترمذي ج11 ص 27 رقم 3157 وصححه الألباني صحيح الترمذي ج3 ص 97 وصحيح كنوز السنة 59/1

(4) رواه أحمد والترمذي ج11 ص 27 رقم 3157 ، ومصنف عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن الترمذي 233/7 رقم 3233

(5) رواه الترمذي ج10 ص 413 رقم 3064 وقال حسن صحيح

(6) رواه الحاكم ج3 ص 8 رقم 4270 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1305 رقم 13045

وعن بن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يدعو بهذا رب أعني ولا تعن علي ، وانصريني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي ، ويسر لي الهدى وانصريني على من بغى علي ، رب اجعلني شكارا لك ذكارا راهبا لك مطوعا لك محبنا لك أوأها منيبا ، تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة قلبي¹.

الوسيلة الرابعة في التثبيت : الاستبشار بالنصر

قوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (81) لقن الله تعالى نبيه درسا يرفع الروح المعنوية ، فجعله يستبشر منذ لحظة خروجه من مكة مُطاردا ، مؤكداً له أنه على الحق وقد جاء الحق ليزهق الباطل ، وما هي إلا أيام وشهور وسنوات حتى جاء فتح مكة وتحقق وعد الله ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ نَضْبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِغُودٍ فِي يَدِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)²، وهكذا بشره الله بتعالى بأنه سوف يجيء إلى مكة - مرة أخرى - ليزهق الباطل ، وذلك قبل أن يفتحها بأكثر من ثمانية أعوام .

يقول سيد قطب (بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهق الباطل واندحاره وجلاءه ، فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق ... حقيقة لدنية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ ويتنفج وينفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة؛ ومن ثم يحاول أن يمحو على العين ، وأن يبدو عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً ، ولكنه هش سريع العطب



، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبو سريعاً وتستحيل إلى رماد؛ بينما الجمرة الذاكية تدفئ وتنفع وتبقى؛ وكالزبد يطغو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء).

الوسيلة الخامسة للتثبيت : الاستشفاء بالقرآن

¹ (رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 232 رقم 665 وصححه الألباني صحيح ابن ماجه 323/2 صحيح الترمذي 178/3 صحيح أبي داود)
² (رواه البخاري ج 8 ص 374 رقم 2298)

قوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..) (82) قال ابن القيم (فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب ، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ، ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن)¹ ، قال سبحانه (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ..) (فصلت/ 44) .

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ) [يونس: 57] ، قال ابن القيم (فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤَهِّل ولا يُوفِّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوى به، ووضعَه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاءٍ شروطه، لم يُقاومهُ الداء أبداً... وكيف تُقاومُ الأدواء كلامَ ربِّ الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال، لصدَّعَهَا، أو على الأرض، لقطعها، فما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحِمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه)².

فلكي تنفع الرقية بالقرآن لابد من اليقين ، كما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَّهِ)³ ، قال ابن القيم (ولكن ههنا أمر ينبغي التفتن له وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقابها هي في نفسها نافعة شافية ، ولكن تستدعى قبول المحل "القلب" وقوة همه الفاعل وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفع أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية ، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول ، وكذلك القلب إذا أخذ الرقاء والتعاويد بقبول تام وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء ، وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء



الدعاء مع اليقين كالسهم المنطلق من قوس مشدود ، وتخلف اليقين عن الدعاء كالسهم الذي يقع من قوس رخو

¹ (الجواب الكافي ج 1 ص 3

² (زاد المعاد ج 4 ص 352

³ (رواه الترمذي ج 11 ص 383 رقم 3401 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج 3 ص 164 رقم 2766 ورواه الحاكم في صحيحه ج 1 ص 670 رقم 1817

فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا ، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم وريث الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها¹.

قوله (وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) فالقرآن شفاء للمؤمنين ، أما غير المؤمنين فإنه يزداد به خساراً ، وذلك لأنهم يراهنون الناس على أنه كتاب مفتري وليس من عند الله ، فكلمة ثبت صدقه وإعجازه كلما خسروا وازدادوا خساراً ، فعن قتادة قال (ما جالس القرآن أحدا فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان ثم قرأ الآية)².

وهذه الآية توطئة لحال الآية التي بعدها ، ذلك أن الخسران يعني التبطر على النعمة والجزع عند النعمة ، ولذلك قالوا أن من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له ، يعني شفاء لما في قلبه من داء .

الوسيلة السادسة للتثبيت : معرفة الله في الرخاء

قوله (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ..) (83) هذا وصف للحالة النفسية للإنسان الظالم الذي يزداد خساراً كلما ثبت له صدق الكتاب وإعجازه له ، فحاله بخلاف حال المؤمن الذي حاله بين الشكر والصبر ، أما هذا الظالم فحاله الإعراض والتكبر على نعمة الله عليه ، فلا يأبه لما عليه من واجبات ، يقول النبي ﷺ (الْكِبْرُ بِطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ)³.

ومفهوم المخالفة يدل على أن شكر الله على نعمة الرخاء سبب من أسباب التثبيت على الحق ، قال رسول الله ﷺ (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)⁴ ، قال المناوي (بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً)⁵

الوسيلة السابعة للتثبيت : الصبر عند الشدة

قوله (..وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُتُوسَّلًا) (83) وكذلك حال الكافر أو المنافق هو اليأس والقنوط من رحمة الله عندما يمسّه الشر ، فهو جزع من أقل مصيبة ، قال الزمخشري (اليأس صفة الكافر)⁶ بدليل قوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [يوسف/87] ، قال الألوسي (القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثره

¹ (الجواب الكافي ج1 ص 3

² سنن الدارمي: ج2/ص530 ح3344 موسوعة أطراف الحديث ج1 ص 248803 رقم 248083

³ (رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131

⁴ (رواه البيهقي في شعب الإيمان ج2 ص 27 رقم 1074 وأحمد في مسند ج6 ص 198 رقم 2666 وصححه الألباني: الجامع

الصغير ج1 ص 528 رقم 5272

⁵ (فتح القدير ج3 ص 331

⁶ (الكشاف ج6 ص 170

الدال عليه لا يفارقه كان في ذكره ثانياً بطريق أبلغ ، وقدم اليأس لأنه صفة القلب ، وهو أن يقطع رجاءه من الخير ، وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضائل والانكسار¹.

الوسيلة الثامنة للتثبيت : إصلاح النية

قوله (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيقُكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) (84) يقصد بالشاكلة "النية" التي محلها القلب ، فقد بوب البخاري باباً بعنوان الأعمال بالنية ، وذكر هذه الآية ثم قال (على نيته)² ، (يقال على شاكلته أي على خليقته وطبيعته وهو من الشكل يقال لست على شكلي وشاكلي)³ ، قال السمين الحلبي (والشاكلة: أحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري: أنها مذهبه الذي يُشاكل حاله في الهدى والضلالة ، من قولهم: "طريق ذو شواكل" وهي الطرق التي تشعبت منه)⁴.

فأخلاق البشر وتصرفاتهم تدل على من هو المهتدي منهم ، ومن هو الضال ، قال النبي ﷺ (النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)⁵ ، قال المناوي (معدن كل شيء أصله أي أصول بيوتهم تعقب أمثالها ويسري كرم أعرافها إلى فروعها)⁶.

أي أن النية الحسنة تقود إلى العمل الصالح ، والعكس صحيح لقوله سبحانه (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل/5-10) ، يقول النبي ﷺ (كُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ)⁷ ، أي (موفق ومهيأ لما خلق له) أي (لما قدر له من الخير والشر)⁸ ، أي أنه مهيب لعبادة ربه لقوله سبحانه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فهو مهيب لأن يشكر الله على النعمة ويصبر على النقمة ، ميسر لأن يعمل الخير ويكف عن الشر ، ولكنه حين يعمل عكس ذلك فإنه يخالف فطرته التي فطره الله عليها ، ولا شك أن الذي يسير على الفطرة هو المهتدي بخلاف من الذي ضل وخالفها ، فمن استقام عنده أمر النعمة والنقمة واعتدل مزاجه حسن عمله ، ومن تكبر على النعمة وجزع عند النقمة مال مزاجه فساء عمله ، وكل ذلك مرهون بما يضمه الإنسان في صدره من نية حسنة أو سيئة .

يقول ابن القيم (فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لأنها أكبر من ذلك وأجل والنفس المهينة الحقيمة والخسيسة بالضد من ذلك ، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها وهذا معنى قوله تعالى "قل كل يعمل على شاكلته" أي على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته

¹ (تفسير الألوسي ج18 ص 218

² (رواه البخاري ج1 ص 93 وهو قول مروى عن الحسن : انظر الدر المنثور للسيوطي ج6 ص 313 من رواية ابن المنذر

³ (شهاب الدين الهائم المصري : التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 268

⁴ (الدر المصون في علم الكتاب المكون ج1 ص 3846 ، الكشف ج3 ص 476

⁵ (رواه مسلم ج13 ص 89 رقم 4774

⁶ (فيض القدير ج6 ص 383

⁷ (رواه مسلم ج13 ص 108 رقم 4789

⁸ (تحفة الأحوذ ج8 ص 423

وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها ، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن النعم ، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر النعم ومحبة والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله¹

الوسيلة التاسعة للتثبيت : تفويض العلم لله

قوله (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (85) فالحديث عن الروح جاء بمناسبة الحديث عن الشاكلة أي "النية" التي تصدر منها الأخلاق الحسنة والقييحة ، فإذا كانت النية محلها القلب ، إذن فالقلب مكلف مثل سائر الجوارح ، وإذا كان الميت ينظر إلى روحه هل هي روح طيبة أم خبيثة علمنا بذلك أن الروح هي خلاصة عمل القلب والجوارح ، فجسد الإنسان عندما يفنى تبقى الروح لترى إما مقعدها من الجنة أو النار ، ثم تتزوج الأجساد مع الأرواح عند البعث فيخلد في الجنة منعما أو في النار فلا يموت فيها ولا يحيى ، الأمر الذي يثير التساؤل عن ماهية الروح ، فأجاب سبحانه (الروح من أمر ربي).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْبِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ فَمَرَّ بَنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تَسْأَلُوهُ لَا يَجِيءُ فِيهِ شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَنَسْأَلُهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا الرُّوحُ ؟ فَسَكَتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقُمْتُ فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ قَالَ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)²

قال الصنعاني (أخبر ﷺ منها مؤكدا بأن في الجسد مضغة وهي القطعة من اللحم سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها وأنها مع صغرها عليها مدار صلاح الجسد وفساده ، فإن صلحت صلح وإن فسدت فسد) وفي كلام الغزالي أنه (لا يراد بالقلب المضغة إذ هي للبهائم مدركة بحاسة البصر بل المراد بالقلب لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهي المدركة العارفة من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمطالب ، وهذه اللطيفة علاقة مع القلب الجسماني ، وذكر أن جميع الحواس والأعضاء أجناد مسخرة للقلب وكذلك الحواس الباطنة في حكم الخدم والأعوان ، وهو المتصرف فيها والمردد لها ، وقد خلقت مجبولة على طاعة القلب لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم به تكلم وكذا سائر الأعضاء ..)³.

(1) الفوائد ج 1 ص 178
(2) رواه البخاري ج 1 ص 213 رقم 122
(3) سبيل السلام ج 4 ص 173

وفي قوله (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) تفويض العلم لله ، وليس في تفويض الإجابة لله تعالى والوقوف عند ذلك حجر على العقل البشري أن يعمل ، ولكن فيه توجيهاً للعقل أن يعمل في حدوده ، وفي المجال الذي يدركه ، فلا جدوى إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه ولا حتى وسائل إدراكه¹.

قال صاحب الظلال (والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، أودعه هذا المخلوق .. ، وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، والإنسان لا يدبر هذا الكون ، فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، في حدود علمه القليل)².

ورغم أن الإنسان يجهل ماهية الروح ، لكنه في ذات الوقت يسأل عنها ، يعني أنه يعلم يقيناً أن ثمة كائن يسكن جسده وهو الروح ، ورغم أنه لم يرها ، لكنه يؤمن بها ، وموقن أنها تفارق هذا الجسد عند الموت ، فإذا أيقن ذلك فمن باب أولى عليه أن يوقن بخالق هذه الروح ، وهو الله تعالى ، فإنه وإن آمن بالروح كما ذكرنا دون أن يدرك ماهيتها ويعلم أي شيء عنها ، فلما يتردد في الإيمان بخالقها ، إنه ليقيم الحجة على نفسه بسؤاله عن ماهية الروح .

¹ في هذا المعنى في ظلال القرآن ج5 ص 43

² في ظلال القرآن ج5 ص 43

الدرس الثالث

الثبات بعوامل خارجية (إعجاز القرآن الكافرين)

قال تعالى (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89))

إن إعجاز الإسلام كامن في منهجه الذي جعل رحمة للعالمين، وبقدر تمسك الأمة بهذا المنهج تفيض عليها البركات، وبقدر سلوكها سبيل الغفلة تندثر التعاليم وتنزل الرحمة. وتلك حقيقة قررتها الآيات؛ فالقرآن الكريم منهاج حياة فريد، أخرس بإعجازه المشركين، وعجزوا عن مجاراته أو الإتيان بمثله.

كما تشير الآيات إلى رحمة الله في حفظ هذا الوحي، وتنوع أساليبه في سوق الأمثال والعبر لهداية الناس، وبالرغم من ذلك فإن أكثر الناس يواجهون هذا الفضل بالجحود والنكران، وهو ما يعني بمفهوم المخالفة أن بعض الناس ينتفع بهذا الفضل فيكون من عوامل تثبيته على الحق.

قوله (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) (86) في هذه الآية تحديد للذين لا يؤمنون بالوحي، وكذبوا بالكتاب وبمن جاء به، ولا يستشعرون فضل الله عليهم أن آتاهم الكتاب وجعل من بينهم نبيا، فعن ابن مسعود قال: «لَيْسَرَيْنَ عَلَى الْقُرْآنِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَلَا يُتْرَكُ آيَةٌ فِي مُصْحَفٍ وَلَا فِي قَلْبٍ أَحَدٍ إِلَّا رُفِعَتْ» وفي رواية أخرى عنه قال: «لَيَنْتَرَعَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ»، فقيل: يا أبا عبد الرحمن، كيف ينتزع وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: «يسرى عليه في ليلة فلا يبقى في قلب عبد ولا مصحف منه شيء، ويصبح الناس كالبهائم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾»¹

ويتبع ذلك أن يولد جيل لم يتعلم من آبائهم أو من الصالحين شيئا إلا قليلا، ولذلك قال ابن مسعود (ويصبح الناس كالبهائم)، فعن أبي وائل قال: خطب على الناس بالكوفة فسمعتة يقول في خطبته: أيها الناس! .. يوشك أن لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه)²

وعندئذ لا يرى هذا الجيل من ينههم عن منكر ويأمرهم بالمعروف، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يُدرَسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُدرَسُ وَشْيُ الثَّوْبِ لَا يَدْرِي مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نَسْكٌ وَيَسْرِي عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ وَيَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا فَقَالَ صَلَّةٌ: فَمَا تَعْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَدْرُونَ مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا

(1) أخرجه الدارمي وصححه الألباني، وحكمه حكم المرفوع لأنه لا يُقال من باب الرأي.

(2) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج16 ص 197 رقم 44217

نسك فأعرض عنه حذيفة رضي الله عنه فردد عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه ثم أقبل عليه في الثالثة فقال : يا صلة تنجيهم من النار تنجيهم من النار تنجيهم من النار¹

ففي هذا الحديث يُحِبُّ النَّبِيُّ ﷺ بما يَكُونُ مِنْ حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فقلوه "يُدْرُسُ الْإِسْلَامُ"؛ مِنْ دَرَسِ الرَّسْمِ دُرُوسًا: إِذَا عَفَا وَهَلَكَ، وَالْمَرَادُ: تَنْمَحِي آثَارُهُ وَأَقْلَامُهُ وَأَحْكَامُهُ، "كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ"، أَي: كَمَا يُمَحَى نَقْشُ الثَّوبِ الْمَرْسُومِ فِيهِ، "حَتَّى لَا يُدْرَى"، أَي: لَا يُعْرَفُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، "مَا صِيَّامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ".

وعن عبد الله بن مسعود قال (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ يُوشِكُ أَنْ يُنْزَعَ مِنْكُمْ، قَالَ: فُلْتُ: كَيْفَ يُنْزَعُ مِنَّا وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا وَأُثْبِتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَنْتَزِعُ مَا فِي الْقُلُوبِ وَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ وَيُصْبِحُ النَّاسُ مِنْهُ فَقَرَاءٌ، ثُمَّ قَرَأَ (وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ)²

فقلوه (يُسْرَى عَلَيْهِ) أَي عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

قلوه "في ليلة"، أَي: يَذْهَبُ بِاللَّيْلِ

قلوه "فلا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ"، أَي: يَمْحُوهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْكُتُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، وَذَلِكَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَمَتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)³

قلوه "وَبَقِيَ طَوَائِفٌ"، أَي: جَمَاعَاتٌ، "مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ

قلوه " يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا"، أَي: (مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

قلوه "على هذه الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛

قلوه "فنحن نقولها"، أَي: يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ فِي ذِكْرِهِمْ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَتَرْدِيدِهَا دُونَ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ بِمُقْتَضَيَاتِهَا⁴.

فهذا الفضل وتلك الرحمة بإنزال الكتاب وإرسال الرسول قد يذهبان لعدم مبالاة الناس بحق الله عليهم، فَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنْ الْحَلَالِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ)⁵، فتندثر تعاليم القرآن وآدابه وأحكامه، وروى (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا آكِلُ الرِّبَا فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ)⁶، مما يحول بين الناس والشعور بالإسلام وبركته وحرارته وضوئه، لهجرة الناس له، ونسيان العمل به.

فإذا ما حال بين الناس وكلمة التوحيد حائل الجهل فإنهم قد يعذرون، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما بعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يُكْفَرُ

¹ (رواه الحاكم في المستدرک ج4 ص 587 رقم 8636 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 86 رقم 87

² مصنف ابن أبي شيبة ج10 ص 534

³ (رواه البخاري ج1 ص 176 رقم 98

⁴ الدرر السنية : https://dorar.net/hadith/sharh/80432

⁵ (رواه البخاري ج7 ص 215 رقم 1918

⁶ (رواه ابن ماجه ج7 ص 52 رقم 2269 ضعيف مرفوعا

ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول، إذا أمثال هؤلاء عذروا بجهلهم لأن الحجة لم تقم عليهم¹.

قوله (..ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) (86) قال شيخ المفسرين الإمام الطبري (وكيلا يعني: قَيِّمًا يقوم لك، فيمنعنا من فعل ذلك بك، ولا ناصرا ينصرك، فيحول بيننا وبين ما نريد بك)² والناصر والشفيع في هذا المقام بمعنى واحد، وهو من يدفع عنك العقاب أو يسترد لك الحق.

فيخال لي -والله أعلم- أن "وكيلا" في هذا السياق بمعنى "شفيعا" يشفع لك لرد ما ذهب منه واندثر، فهذا من باب أنهم إذا ظلوا يكذبون بهذه النعمة فإن الله يسلبها منهم، ولن يشفع لهم أحد في مثل هذه العقوبة.

قوله (..إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) (87)

تجلت في هذه الآية الكريمة أسمى معاني الرحمة الإلهية والفضل الرباني العظيم؛ فما نزل هذا القرآن العظيم، وما أرسل نبي الهدى ﷺ إلا فيضاً من تلك الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. وإن من مقتضيات هذه الرحمة أن حَفِظَ اللهُ وَحْيَهُ، مع قدرته سبحانه على رفعه وإزالته من الصدور والسطور لولا سابع فضله ورحمته بعباده.

ولأجل هذا، جاء الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استثناءً منقطعاً يفيض بالامتنان، ومعناه: (ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك)³، (ولكنه سبحانه وتعالى تفضلاً منه على خلقه فإنه أنزله وجعله ميسراً لفهم والتدبر)⁴، ليبقى حجةً باقيةً ونوراً هادياً.

ولما كان هذا الفضل وتلك الرحمة هما قوام الوجود الحقيقي للإنسان، فقد سَمَّى اللهُ عز وجل هذا الوحي "روحاً"؛ لأنه مادة حياة الأرواح ونعيمها، وبدونه تشقى النفوس وتموت. فالقرآن للقلب كالروح للجسد؛ إذا فارقت استحال المبتعد عنه ميتاً وإن كان يمشي بين الأحياء، فلا حياة للعبد ولا هداية إلا بصلته بكتاب ربه. وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ مُبَشِّرًا وموجهًا: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأَنْثَرِجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ»⁵، ليوضح أن أثر القرآن لا يقف عند إحياء الباطن فحسب، بل يفيض جمالاً وزكاةً على ظاهر المؤمن وسلوكه كله.

قوله (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (88) ذلك أن في القرآن له بركة ليس لها نظير يقول سبحانه (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

¹ (مجموع الفتاوى ج 11 ص 407)

² (تفسير الطبري ج 17 ص 545)

³ (تفسير البيهقي)

⁴ (مؤلفات الفوزان ج 89 ص 14)

⁵ (رواه البخاري ج 17 ص 48 رقم 5007)

(الأنعام/155)، فهو معجزة الله الباقية ، والسر في إعجاز القرآن أنه منهج عملي لحياة الإنس والجن ، ويتعذر عليهم مجتمعين أن يأتوا بمنهج لحياتهم يضاهي القرآن ، وكلما حاولوا ذلك فشلوا ، لأن الله تعالى هو الذي خلقهم وهو أعلم بمصالحهم ، وهم قاصرون على أن يدركوا ذلك ، وقد كفاهم الله تعالى عبء البحث عن هذه المسألة ، وأغناهم بما أنزله في الكتاب من آيات ، ولكنهم يصرون على أن يعاندوا ربهم ظنا منهم أنهم قادروا على صنع منهج وضعي يفوق كلام الله تعالى في تحقيق الخير لهم ولغيرهم ، ولا يزالون ، ولكنهم كلما حاولوا أثبتوا للجميع وجه إعجاز هذا الكتاب ، وأنه أصلح منهج للبشر لا يضاهيه شيء .

فقد توهم المشركون أن النبي ﷺ قد خلا زمانه من المعجزات الحسية التي فضل الله بها النبيين من قبله مثل معجزات عيسى وموسى ، ولكن الله تعالى فضله على غيره بمعجزة القرآن الكريم ، هذا ما فُضلت به هذه الأمة ، **فِعْطاء القرآن لا حدود له** ، ومن فضله تبارك وتعالى على نبيه أن أراه بركة التمسك بهذا الكتاب والعمل به ، من ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأبما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل؛ وأحللت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي؛ وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" ¹ .

أي أن معجزة هذا الدين والتي تظهر فضل الله الكبير أن يظل أثر كلمة التوحيد قائما حتى قيام الساعة حتى وإن اندثر العلم وظهر الجهل ، فلسوف يظل أناس يؤمنون بالله ، وآخرون يعذرون بجهلهم لباقي أحكامه .

قال الباحثون في الإعجاز القرآن أن (النهضة الأوروبية لم تأخذ من العلوم الإسلامية سوى الجانب المادي من منهجها التجريبي ، وتركت جانباً الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالى، ويسخرها لخدمة البشر؟. وجنحوا إلى رد كل شيء إلى العلم بنزعة متطرفة (scientism) حتى أصبح التطور الكمي للعلم والتقنية غاية في حد ذاته، ونشأت (النزعة التقنية المتطرفة Technocracy) التي يرمي من أنصارها من التقنيين والخبراء الفنيين إلى فرض سيطرتهم باعتبارهم الأحق في هذا العصر بإدارة المجتمع واتخاذ القرارات الكبرى بشأنه ، وفي مقابلة ظهرت حركات عقلية جديدة تدعو إلى (اللاعلمية Antiscience) وتحارب الانغماس الأعمى في ماديات الحضارة الصناعية، وترفع صيحات التحذير من أن اطراد التقدم العلمي والتقني بدون النظر إلى صلته بمعنى الحياة الإنسانية التي سوف ينتهي بالإنسان إلى القضاء على حضارته، من هنا كان الإسلام منهجا للتطور المادي والروحي في آن واحد ، فالإيمان الخالص هو الذي يجعل العقل أقدر على كشف الحقيقة العلمية ، وأكثر تحيُّواً لاستقبالها وقبولها) ² .

قوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (89) تؤكد هذه الآية ما يتميز به القرآن الكريم عن غيره من الدراسات والأبحاث والمقترحات والمشروعات والخطط والمقارنات والكتب ، بأنه ما نزل إلا ليكون منهجا عمليا للناس في كل شيء ، فيه حل لكل مشكلة ، ومثل لكل حالة

¹ متفق عليه في الصحيحين

(2) د أحمد فواد باشا: المنهج العلمي المعاصر في ضوء القرآن الكريم : موقع إعجاز القرآن والسنة / <https://quran-m.com/>

قال ابن تيمية (اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم . ونزه الله عما يوجد في كلامهم ؛ من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال)¹ .

ونظائر هذه الآية في القرآن كثيرة منها قوله تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) [41/17]، وقوله: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) [113/20] ، وقوله: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [27/39]- [28/30]، وقوله: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) [58/30]

ولكن الذين يكفرون به لا يعون ذلك ، ولا يزالون يستوردون حلولاً من غير هذا المنهج ظناً منهم أن القرآن ليس فيه إجابات لحاجاتهم ، قال تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) (الفرقان 23) فأين حلولهم لمشاكل الأسرة ، والجنايات ، والعلاقات الاجتماعية ، وآداب الجيران ، والعلاقات الدولية ، وأخلاقيات الحرب والسلم الخ ، فليس غير القرآن كتاب سلك تلك المسالك وجاء بما ينبغي أن يسير عليه الناس لتحقيق الخير وصالحه ودفع الشر عنهم واجتنابه.

إذن محل التحدي في القرآن لا يقتصر على الإعجاز اللغوي ولا العلمي ولا البياني ولا الروائي ولا النظامي ولا الإيقاعي - وحسب - وإن كان أحدهم - في ذاته - كافياً لذلك التحدي ، وإنما كلام الله المنهجي والتربوي والإصلاحي المذكور في القرآن الكريم هو ما عجز الإنس والجن على أن يضاهوه بمناهجهم الفاسدة المنبئة الصلة عن الله .

¹ (مجموع الفتاوى ج 2 ص 46)

المحور السادس

مجادلة الرسول في أحقيته بالنبوة ، وإفحامهم بالحجة

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْتِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100)

قوله (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْتِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100)

(93) نقل القرآن تحديات الكفار للنبي ﷺ بقصد إبعازه وليس بقصد إظهار الحق ، فطلبوا منه الإتيان بمعجزات حسية مادية من اختراعهم وعلى تفصيل ما طلبوه ، فمن حيث المبدأ إن أجاب فئة منهم للمعجزة التي طلبها ، فعليه أن يجيب الفئة الأخرى في المعجزة الثانية التي يطلبونها بخلاف الأول وهكذا لن ينتهي جدالهم المادي العقيم ، إذ لو أرادوا معجزة ، فالقرآن بمنهجه هو المعجزة في ذاتها .

وهذه السفسطة منهم تنبع من فكر تعفن بالنظرة الشخصية للنفس المغلقة على تعظيم الذات ، لتتمحور القضية في تعمير الدنيا لأجل التمتع الآني وحسب ، فتقزمت القضية لديهم لتصبح مجرد استعمار عاجل للأرض ، وارتشاف عجلان للمتعة الحالية .

من هذا المنطلق الضيق، وقف أصحاب هذا الرأي يتحدثون الرسول ﷺ ، مطالبين إياه بحضارة مادية باذخة تُخلق من عدم؛ محاكاة لما أوتيته نبي الله سليمان —عليه السلام— حين سُخرت له الرياح، ودانت له الجن، وانقاد له الطير يأترون بأمره. فهل طُوِّعت السنن الكونية للنبي الخاتم ﷺ ليفجر في بطحاء الجزيرة العربية القاحلة أنهاراً متدفقة، تُحِيل رمضاءها جناتٍ معروشة بالنخيل والأعناب تُنافس غوطة الشام؟

كلا، لم يكن ذلك ولن يكون؛ لأن إعمار الأرض في شريعة الإسلام عبادة كادحة، لا معجزة طائفة تنشق في ومضة عين. إنها استباقٌ بالعمل وسعيٌ دؤوب بالهدى النبوي لبناء الحياة. فلو هبط هذا الإعمار رغداً هنيئاً بلا كدٍ ولا

نَصَب، وبلا عرقٍ ولا عمل، لتبخرت غاية الاستخلاف في الأرض، وارتدّ الدين قشراً باهتاً، وإيماناً معطلاً يفرغ العقيدة من جوهرها الحي".

كما تحدوه أن يأتيهم بالعذاب العاجل فينزل عليهم صاعقة من السماء ، أو جند من الملائكة لتقلب قراهم ، فاستعجلوا العذاب تبكيّاً وتحديّاً. وما انبعث هذا التحدي إلا من نظرهم القاصرة إلى النبي ﷺ ؛ إذ رآوه بشراً سويّاً يعيش عيشة البساطة، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، بلا مالٍ مكنوز، ولا قصورٍ مُزخرفة، ولا مظاهرٍ ملوكية. ولما لم يأتهم بمادية المعجزة في عروجه إلى السماء بعد مسراه، أرادوا محاججته، فأتوا بحجةٍ انقلبَت عليهم؛ إذ أعلنوا استعدادهم للتصديق برحلي الإسراء والمعراج، ولكن شريطة أن ينزل عليهم بكتابٍ مكتوبٍ من ربه يقرؤونه بأعينهم، ويشهدون نزوله من السماء عياناً، ليكون برهاناً قاطعاً على وحيه. بيد أن نفوسهم الجاحدة كانت لتمتنع حتى لو تحقق مرادهم؛ كما قرر القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأنعام: 7)

وهكذا، حاولوا قسراً معجزة القرآن المعنوية الخالدة وتحويلها إلى مطالبٍ ماديةٍ عابرة، فجاءهم الرد الإلهي الحاسم الذي لُقنه النبي ﷺ مبدداً أوهامهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ .

قوله (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) (94) (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) (95) «يسبر المولى -سبحانه- عن الأسباب الحقيقية التي جعلت قريشاً ومن حولها تُبطئ عن الإيمان برسول الله ﷺ ؛ إذ استنقلوا أن تنال صفة "البشرية" مقام النبوة والرسالة، متزعمين أن الملائكة أولى بذلك من البشر. وهي حجة -وإن بدت في ظاهرها مقبولة- إلا أنها في سياقها تفصح عن استكبار وإباءٍ للانقياد لمن هو من جنسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 7).

وجاء الرد الإلهي قاطعاً بأن الرسول لا بد أن يكون من جنس قومه ليتحقق به التآلف والافتداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]. فالملائكة يُرسل إليهم ملكٌ منهم، والبشر يُرسل إليهم بشرٌ مثلهم؛ إذ الاستطاعة في التآسي منعدمة بين جنسين مختلفين؛ لأن الاستطاعة مناط التكليف ، وقدرات الملك بخلاف قدرات البشر ، فالملك لا يأكل ولا يتزوج ولا يعترهم ما يعترى البشر، فاستحال حينئذ أن يتخذ البشر الملك أسوةً في تفاصيل حياتهم، من هنا يكون الإسلام قد أبان عن طبيعة منهجه ، بأنه منهج تطبيقي عملي ، وليس مجرد فلسفة ذهنية وقواعد نظرية ومنطقية للتفكير وحسب .

قوله (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (96) ، أي اسمعوا كلام الله ليكون شهيدا لي على رسالتي ، فالقرآن حجة للرسول والرسول حجة للقرآن ، أي كلاهما يصدق الآخر ، فمن تأمل في سيرة الرسول يجده وكأنه قرآنا يمشي على الأرض ، ومن تلا القرآن وتدبره لآمن بالله وملائكته ورسله ، وبالرسول محمد ﷺ تفصيلا ، وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، أي أنه يستشهد بكلام الله فهو الحكم بينه وبينهم ونظير ذلك قوله (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُّرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد 43).

روي عن علي بن أبي طالب قال (كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَيْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ إِذْ سَمِعْتُهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ) مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)¹

قوله (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) نسب الهدى إلى الله ، والضلال إلى صاحبه ، ويلاحظ هنا أن الآية تحدث عن المهتدي والضال ، فتحدثت عن المهتدي بصيغة المفرد ، بينما تحدثت عن الضال بصيغة الجمع (فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ) يقول الشعراوي (لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، أما في الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : (فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ ..) لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . .) [الأنعام : 153] والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية حَطَّ للصحابه حَطًّا مُسْتَقِيمًا ، وَحَطَّ حوله خطوطاً مُتَعَرِّجَةً ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي » إذن : الهداية طريق واحد ، وللضلال ألف مذهب ، وألف منهج؛ لذلك لو نظرت إلى أهل الضلال لوجدت لهم في ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص في الضلال . فعليك أن تقرأ هذه الآية بوعي وتأمل وفهم لمراد المتكلم سبحانه ، فلو قرأها غافل لقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى ، ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهي التي وضعت كُلَّ حَرْفٍ في موضعه)² .

كما تبين الآية حظ المؤمنين من الدنيا ، فهم في ولاية الله تعالى لأنهم مهتدون ، قال تعالى (إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) (الأعراف/196) ، والضالون ليس لهم أولياء من دون الله ، يقول سبحانه (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (الأنعام/125) ، فالحالة النفسية للكافر الشعور الدائم بالوحدة والخذلان ، وعدم الثقة في الآخرين ، لأنه ليس له ولي دون الله تعالى ، فلما كفر بالله لم يجد من ينصره ويؤازره ، فيعيش في تلك العزلة النفسية والانكسار المعنوي والدلة الحقيقية ، يقول سبحانه (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) (الحشر/14) .

قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) (97) فعن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ "إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه"³ ، (والحكمة في حشر الكافر على وجهه أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في القيامة ؛ إظهاراً لهوانه)⁴ .

¹ رواه الترمذي ج10 ص 147 رقم 2831

² تفسير الشعراوي ج1 ص 5317

³ رواه البخاري ج8 ص 492 مسلم ج4 ص 2161 رقم 2806

⁴ (إعداد : د. عيسى بن عبد الله السعدي : آثار المثل الأعلى ج1 ص 52

قال ابن تيمية (فَأَخْبَرَ أَنَّ الضَّالِّينَ فِي الدُّنْيَا يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا فَإِنَّ الْجَزَاءَ أَبَدًا مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ)¹ وكأنه يريد أن يشير إلى أنهم كانوا يتكبرون ويعرضون بوجوههم عن سماع كلام الله ، وينأى كل واحد منهم بجانبه في الدنيا عن الإقبال على رسول الله ، فكان جزاؤهم من جنس فعلهم أن جعلهم الله عميا وبكما وصما بل وحشرهم على وجوههم بعدما كانوا يرفعون رؤوسهم تكبرا على الناس

قوله (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَعْمَلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) (98) تُجَلِّي هذه الآية الكريمة سُنَّةَ إلهية ثابتة؛ وهي أن الجزاء من جنس العمل . فبينما كان هؤلاء المشركون يُنكرون قدرة الله على البعث، ويتكلمون بدعوة النبي ﷺ مستبشرين إحياء العظام والرفات، قابلهم الله جل وعلا بما يُشاكل صنيعهم؛ إذ يحشرهم يوم القيامة على هيئة ذليلة تُظهر كمال قدرته وانكسار شوكتهم، جزاءً وفاقاً لتهكمهم واستكبارهم.

إن هذا الإنكار الذي حوسبوا عليه لم يكن وليد جهل حقيقي أو خفاء في الدليل، بل هم يدركون الحق بقلوبهم ويستيقنون به؛ لكنهم جحدوا به؛ فالكفر في أصله تغطية للحق . لقد تعمدوا ستر الحقيقة وراء ستار زائف من ادعاء الاستغراب، واصطناع عدم الاستيعاب، استخفافاً بالوعيد وتكذيباً بالحق بعدما تبين.

قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ) (99) يحتج الله تعالى عليهم بخلقهم لما هو أكبر منهم وأشد قوةً — وهو السموات والأرض —، فمن ذا الذي يخلق الخلق ثم يميتهم ويفنيه لينهي أمرهم بلا بعث ولا نشور؟ إن هذا التصور القاصر لا يفضي إلا إلى العتب، وحاشا لله أن يخلق الخلق عبثاً؛ إذ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 16]، فمن الضلال أن يظن المنكرون أن لا حساب هناك ولا جزاء.

قوله (... فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا) (99) أي: بعدما تجلّت نعم الله تعالى واستبانت للإنسان، أبى الظالمون منهم أن يشكروا المنعم على آلائه، بل قابلوا الفضل بالكفران، وأوغلوا في الجحود بما إيعال؛ ولذلك جاء اللفظ صيغةً مُبالغةً ﴿كُفُّوا﴾ لدلالة على شدة كفرهم وتماديهم فيه.

قال أهل اللغة (الكفر في أصله هو جحود النعمة وعدم الاعتراف بها، وهو النقيض المباشر للشكر. و"الكفر" من السَّتر والتغطية؛ فالكافر بالنعمة يجحدها ويستترها، وسمي الكافر بذلك لأن قلبه مُغطى)² . وبناءً على ذلك، (فإنَّ الجحود لا يَقَعُ إِلَّا مَنْ عَلِمَ الْحَقَّ أَوْ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ ثُمَّ رَدَّهُ؛ فَعَلَهُ الْكُفْرُ — لُغَةً وَشَرْعاً — تَسْتَلْزِمُ إِذْرَاكَ الْمَكْفُورِ بِهِ أَوْ الْقُدْرَةَ عَلَى إِذْرَاكِهِ، ثُمَّ تَبْذُهُ وَجَحُودُهُ).³

¹ مجموع الفتاوى ج 18 ص 175

² مختصر كلام ابن منظور في لسان العرب ج 1 ص 3458

³ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب الحقائق في التوحيد لأبي مارية القرشي ج 1 ص 60 مع بعض التصرف

قوله (قُلْ لَوْ أَنُّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) (100) كشفت هذه الآية عن الغاية الأسمى لبعثة النبي ﷺ ، وتكليف عصابة المؤمنين بالسعي الحثيث نحو التمكين في الأرض. فالتمكين للمؤمن عدلٌ ورحمة، بينما تمكين الظالمين مفسدةٌ ومظلمة تضيق بها العباد والبلاد. ومن هذا المنطلق، بات لزاماً على أهل الإيمان ألا يُؤَلَّوا الشأن العام أو معاهد المسؤولية من كفر بآيات الله ونعمائه؛ إذ كيف يؤتمن على مصالح الخلق من جحد حق الخالق؟ فالكفر التواء في الفطرة، وجحود للنعم، ومن شحّ بقلبه عن الاعتراف بالمنعم، كان على حقوق العباد أشحّ وأجمل. ولو قُدِّرَ لهؤلاء بسط اليد والولاية، لحبسوا الحقوق عن أهلها خشية الإملاق، ولأفسدوا ميزان القسط؛ فمَن أشرك بالله وصرف أقدس الحقوق—وهي العبادة—لغير مستحقها، حرَّيَّ به أن يضع الأمور في غير نصابها، ويحرم المستحقين من فضائل الاستخلاف.

وهكذا يعلل القرآن سبب أن الله جعل النبوة في العرب ولم تكن في بني إسرائيل كما كان الحال من قبل ، لأن أخلاق العرب تفوق أهل الكتاب في الكرم والسعي لنشر الدين والتضحية لأجله بالمال والنفس ، قال القاسمي (وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم ، وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متنافرون؟)¹.

واستدراكاً على ذلك يجوز استعمالهم تحت إشراف صاحب الولاية المسلم ، أما أن يكونوا هم أولياء على المسلمين فليس ذلك بصحيح لقوله تعالى ، ولذلك قال تعالى (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) (النساء/141) وذلك هو سبب الصراع السياسي ثم العسكري بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، ففريق المؤمنين يسعون للتمكين في الأرض لإعطاء الحقوق لأهلها ، وفريق الكافرين يسعون للتمكين لتعظيم أنفسهم وثرواتهم ونفوذهم وسلطانهم على حساب الضعفاء والفقراء ، لا سيما وأنهم يكفرون بالبعث والحساب والجزاء ، فيظنون أنهم يفعلون ما يفعلون ولن يحاسبهم أحد .

¹ (تفسير القاسمي

خاتمة سورة الإسراء

اختتمت السورة بنبذة عن نهاية بني إسرائيل كما بدأت بذكرهم ، ونبذة أخرى عن القرآن الذي هو منهج الله المنزل لعباده في الأرض مثلما ذكرت مقدمتها —كذلك— نبذة عن بداية بني إسرائيل الذين آتاهم الله التوراة ، وعن القرآن الكريم أنه يهدي للتي هي أقوم ، لتتولى أمة محمد ﷺ الخلافة بدلا من بني إسرائيل وتقوم على كتاب الله تعالى ، فتقيم حدوده وتطبق شرعه الذي أنزله بعدما حرف بنو إسرائيل قواعد التوراة ومبانيها ، ثم ذكرت جاءت نهاية السورة وخاتمتها بالأمر بالدعاء والصلاة والتوحيد الخالص لله وأخيرا بالأمر بالتكبير ، الذي هو علامة النصر حالما يسود دين الله على الدين كله .

بذلك تكون الخاتمة من جزئين :-

- بني إسرائيل الأرض والإتيان بهم لفيفا
- القرآن وتفاعل أهل العلم به

الجزء الأول للخاتمة

إسكان بني إسرائيل الأرض والإتيان بهم لفيفا

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَرُلْ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرِضْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) (101) هذه الآيات التسع التي أشارت إليها الآية هي التي ورد ذكره في القرآن من الخوارق المادية التي أنزلها الله تعالى لتكون حجة لنبيه موسى على فرعون ، ولكي ينتهي قوم فرعون عن الظلم ويعودوا إلى الله تائبين ، وتمثلت في (العصا، واليد البيضاء) وقد ورد ذكرهما في قوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿طه: 17-24﴾

ومنها آيتا السنين أي سني القحط ونقص من الثمرات»، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 130].

وقد ورد ذكر خمس منها في قوله (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (الأعراف/ 133) .

وقد كانت آية واحدة كافية لتقييم الحجة عليهم فيؤمنوا ، ولكن الله استرسل معهم في الآيات الواحدة تلو الأخرى ، ونلمس من تعدد الآيات حكمة في تنوع طبيعة الابتلاءات ، فالابتلاء بالعصا واليد كان في مستهل الدعوة ليكون علامة إنذار لفرعون خصوصا وملاؤه ، فيهربوا من عصا موسى ، ويستبشروا بيديه البيضاء ، أما آية الطوفان والقحط والجذب ونقص الثمرات فهي تخص أغنياء القوم خصوصا ، وأما آية الجراد والقمل والضفادع والدم ، فإنها تخص جنود فرعون الذي طغوا في البلاد ، ليروا جنود الله وهي تطغي عليهم فتهلك الحرث والزرع وتفسد معاشهم ، وهي مجرد حشرات ، وأخيرا آية فرق البحر لتكون آية خاتمة لفرعون وجنوده فيرتدعوا عن ملاحقة موسى ومن آمن معه ، وكذلك آية لبني إسرائيل ليرون قدرة الله ومعيبته لهم ليحملوا عبء الدعوة بعدما أورثهم الله الأرض من بعدهم .

قال صاحب الظلال (وعلى آية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة ، وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعاً)

كما أن الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام تتجاوز التسع ، وقد حصرها شيخ الأزهر د عبد الرحمن تاج في ست عشرة آية ، ومنها معجزة فلق البحر فرقتين ومرور موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل بينهما على أرض

يابسة حتى وصلوا شاطئ البر الآخر سالمين، ثم غرق فرعون ومن كان معه من كبار جيشه والملا من قومه، وهم الذين كانوا يركضون خلف بني إسرائيل ليقتلوهم ويقضوا عليهم؛ فإنهم تبعوهم في ذلك الطريق، ولكنهم ما كادوا يتوسطونه حتى انطبق عليهم البحر من شقيه فلم ينج منهم أحد.

وكانت **حادثة انفلاق البحر فلقين كالطودين العظيمين** معجزة وحادثة انضمام الفلقين إحداهما إلى الأخرى، وعودة البحر إلى ما كان عليه معجزة أخرى؛ كلتاها معجزة لموسى -عليه الصلاة والسلام-، أمره الله -سبحانه وتعالى- في الأولى بأن يضرب بعصاه فضربه ضربة انفلق بها فلقين، وكان بينهما الطريق اليبس الذي نجى الله به بني إسرائيل من فرعون وبطشه. ثم كانت **المعجزة الثانية بانضمام الفلقين وعودة الماء إلى حالته الأولى** لإغراق فرعون ومن كان معه من جنده وقومه.

ومنها معجزة تنق الجبل فوق بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وتهديدهم بإسقاط الجبل عليهم لتثاقلهم في امتثال أوامر الله تعالى، وتراخيهم في تنفيذ الأحكام التي حملها إليهم رسولهم من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171].

ومن المعجزات التي أكرم الله بها سيدنا موسى منحة له ولبني إسرائيل **معجزة تظليل الغمام عليهم وهم في التيه**، فكان السحاب يسير معهم فوقهم يمنع عنهم لفح الشمس، وقيهم شدة حرها. **ومنها معجزة المن الذي كان يرسله الله عليهم كل صباح من الفجر إلى طلوع الشمس**، وهو مادة بيضاء حلوة كانوا يتغذون بها أجود غذاء، وكانت تغنيهم عن الخبز المعتاد، وكانوا أيضاً يصنعون منها نوعاً من الخبز. وكذلك **معجزة السلوى**: وهو طائر السُماني المعروف أو نوع قريب منه. كان يرسله الله عليهم آخر النهار من كل يوم، فكان لهم من هذا وذاك أطيب غذاء يتجدد لهم كل يوم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِمُوسَى إِسْمَاءَ الْغَمَامِ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 57].

ومن المعجزات التي أكرم الله -سبحانه وتعالى- بها سيدنا موسى وامتن بها على بني إسرائيل **معجزة الحجر وتفجير الماء منه**، فإنهم لما فقدوا الماء وهم في التيه واشتد بهم العطش في الصحراء المحرقة استغاثوا بموسى -عليه السلام-، فسأل ربه أن يسقيهم. فأمره الله -سبحانه وتعالى- أن يضرب الحجر بعصاه فضربه، فتفجر الماء منه عيوناً غزيرة اثني عشرة عيناً للأسباط الاثني عشر، فكان في ذلك ريهم وسقي دوابهم وكفايتهم في وجوه حاجاتهم إلى الماء. وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60].

هذه ست عشرة معجزة من المعجزات التي أكرم الله بها رسوله موسى -عليه السلام-، وهي كثيرة لا تقف عند هذه الست عشرة

وقد قيل أن الآيات التسع ليس المقصود بها الآيات الكونية وحسب، بل هي آيات موجودة في التوراة، والإنجيل والقرآن، وهي التي سأل عنها اليهود النبي ﷺ فأجابهم بها، وزاد عليها خاصة باليهود عدم الاعتداء في السبت، فعن

صَفْوَانَ بْنِ عَسَالٍ قَالَ قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ أَذْهَبَ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَقَالَ صَاحِبُهُ لَا تَقُلْ نَبِيٌّ إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَزْبَعُهُ أَعْيُنٍ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيَّنَّتِ فَقَالَ هُمْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تَمْشُوا فِي بَرِّيٍّ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ وَلَا تَسْخَرُوا وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا تَقْدُوا مُحْصَنَةً وَلَا تُولُوا الْفِرَارَ يَوْمَ الرَّحْفِ وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةُ الْيَهُودِ أَنْ لَا تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ قَالَ فَقَبَّلُوا يَدَهُ وَرَجَلَهُ فَقَالَا نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ قَالَ فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي قَالُوا إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لَا يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يُتَّبِعَنَا الْيَهُودُ¹ .

قال بعض العلماء: إنَّ الموافقات التي نجدتها بين ما ورد في القرآن في هاتين السورتين: (الأنعام والإسراء) وما ورد في التوراة متعلقًا بالأحكام الشرعية وأصول الأخلاق الدينية قد تساعد على الحكم بأن المراد بالآيات في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ إنما هي آيات الأحكام، وليست الآيات الكونية التي هي المعجزات وقوارع العقوبات².

وهذا كما فصلته الآيات من سورة الأنعام جاءت بمثل ما ورد في التوراة وغيرها من الكتب السماوية المقدسة: قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151-153].

ومثل هذا قد جاء مفصلاً في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتََا الْقُرْآنَ حَقَّهُ وَالْمَشْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 23-27].

قوله (..فَاسْأَلْ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا) (101) وفيه ثلاث

مسائل:-

المسألة الأولى: من هو ذلك الشخص المأمور بالسؤال؟

المسألة الثانية: من هو المطلوب سؤاله؟

المسألة الثالثة: ما هو ذلك الشيء المطلوب بالسؤال؟

¹ رواه الترمذي ج9 ص380 رقم 2657 وضعفه الألباني ج6 ص233

² (شيخ الأثر 1954 د عبد الرحمن تاج عين أسنًا للثريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس: مركز التفسير للدراسات القرآنية : الآيات التسع البينات <https://tafsir.net/articles/11082>)

قال الشيخ عبد الرحمن تاج (اختلفت كلمة المفسرين في المسائل الثلاث الأولى ، ولهم في ذلك رأيان :-
الرأي الأول : أنّ المأمور بسؤال بني إسرائيل سؤال تقرير هو سيدنا محمد ﷺ أمره الله - سبحانه وتعالى - أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عهده ، أو الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام ، يقرّرون في جوابه حقيقة ما يعرفونه في كتبهم عن سيدنا موسى ، وما جرى له مع فرعون وقومه ، حينما جاءهم بتلك الآيات البينات، وما ردّ به عليه فرعون من قوله: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورٌ﴾ [الإسراء: 101].
وتقدير الكلام على هذا الرأي هكذا: فاسأل يا محمد بني إسرائيل عنه؛ أي عن موسى، وما كان منه مع آبائهم من بني إسرائيل حين جاءهم وما جرى بينه وبين فرعون وقومه ودعاهم إلى الإيمان به والتصديق برسالته.

الرأي الثاني: أنّ المأمور بالسؤال هو سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام-، أمره الله تعالى أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في مصر يسعون في معاشهم، ويعملون تحت سلطان فرعون وفي دولته.
أمره الله أن يسأله من فرعون؛ أي يطلبهم منه؛ فالسؤال هنا بمعنى الطلب، ومعنى هذا أن يطلب من فرعون أن يخلي سبيلهم ولا يحول بينهم وبين الخروج مع نبيهم موسى ليسيّر بهم إلى حيث يريد من أرض الله كما أمره الله.
وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 104-105].
وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 16-17].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47].
ولقد كان اهتمام موسى بخروج بني إسرائيل من مصر عظيمًا جدًّا ؛ لأنه كان يريد أن يبعدهم من مواطن الكفر والشرّك والفجور، ويخلصهم من العذاب الذي كان فرعون وقومه ينزلونه بهم، وكذلك مما عسى أن ينزل بتلك المواطن من عذاب الله وسخطه¹.

وأيا كان وجه الترجيح بين الرأيين فإن المعنى يتضمنهما ، لأن موسى مكلف بسؤال فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل كما ورد في الآيات
وكذلك ونبي الإسلام محمد ﷺ مكلف بسؤال بني إسرائيل ليحتج بعلمهم على ما حُكي له من أخبار أنبيائهم ، وأن النبي ﷺ و لأنه موكل برسالة التوحيد ، فإن الجهاد في سبيل الله هو الطريق لتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، مثلما سلك موسى هذا الطريق مع فرعون لما استغفرهم .

ويشهد لذلك قوله (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء 197) ، وقوله (فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (يونس 94) ، وقوله (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) (الزخرف 45) ، فلو كان المأمور بالسؤال موسى فإن محمد -عليهما السلام- مأمور بالسؤال من باب الاقتداء به ، وإن كان محمد ﷺ مأمور بالسؤال

¹ (المرجع السابق : <https://tafsir.net/articles/11082>)

مباشرة بمقتضى هذه الآية ، فهو كذلك مطالب بما كُلف به موسى عليه السلام من استنقاذ المستضعفين من براثن الظالمين .

ولذلك قال رسول الله ﷺ لما قُتِل أبو جهل أنه كان (فرعون هذه الأمة) كما في حديث أبي عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا جَهْلٍ وَقَدْ جُرِحَ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ بِسَيْفِي فَلَا يَعْملُ فِيهِ شَيْئًا قِيلَ لِشَرِيكِ فِي الْحَدِيثِ وَكَانَ يَذُبُّ بِسَيْفِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخَذْتُ سَيْفَهُ فَضَرَبْتُهُ بِهِ حَتَّى قَتَلْتُهُ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ قَدْ قُتِلَ أَبُو جَهْلٍ وَرُبَّمَا قَالَ شَرِيكِ قَدْ قَتَلْتُ أَبَا جَهْلٍ قَالَ أَنْتَ رَأَيْتَهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ اللَّهُ مَرَّتَيْنِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَادْهَبْ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَدَهَبَ فَأَتَاهُ وَقَدْ غَيَّرَتِ الشَّمْسُ مِنْهُ شَيْئًا فَأَمَرَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ فَسُجِّحُوا حَتَّى أَلْقُوا فِي الْقَلْبِ قَالَ وَأُتِيَ أَهْلُ الْقَلْبِ لَعْنَةً وَقَالَ (كَانَ هَذَا فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةُ)¹

قوله (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) (102) قائل هذه العبارة موسى ، يشهد على فرعون بعلمه أنه على باطل وأن موسى على الحق ، وأن الآيات التي جاءت من عند الله وليست من قبيل السحر كما يزعم ، وهو يدل على أن فرعون كان عالما بأن الله تعالى هو الذي أنزل الآيات التسع المشار إليها ، ولكنه كان يكفر بذلك حجودا ، فحاجه موسى بعلمه ذاك .

لكن لما رأى موسى عناده هدهد بالهلاك ، ولم يبال بصنيعه معه ، فتلک آخر رسالة للنبي إلى فرعون تضمنت تحذيره من الهلاك إن ظل على عناده .

وهكذا نلمس من هذه الآية درسين تربويين : -

الدرس الأول : أن أهل الباطل يحاربون أهل الحق وهم يعلمون أنهم على باطل وأن من يحاربوهم على الحق الدرس الثاني : أن الخطاب الدعوي وإن كان في الأصل يجمع بين الترهيب والترغيب ، وبين البشارة والندارة ، فإنه أحيانا وفي مراحل الأخيرة يتلون بلون الندارة فحسب ، وذلك عندما يلبس أهل الباطل لباس العناد والاستكبار ، وقد اقتربت المواجهة بينهم وأوشكت على الحصول ، ليقصي أحدهما الآخر عن طريقه ولا بد .

فالخطاب الدعوي يتحول إلى الحسم والتهديد - بعد إقامة الحجة الكاملة - في حالات محددة يقتضيها الموقف ، إذ لا يبدأ الأنبياء أو الدعاة بالوعيد ، بل ببلين الخطاب كما بدأه موسى مع فرعون كما أمره الله فقال له ولهارون في البداية ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. لكن عندما رأى أن اللين لم يزد الطرف الآخر إلا طغياناً تحول الخطاب لإظهار قوة الحق ، وذلك عندما يرى الإصرار على ظلم الآخرين واستضعافهم ، مثل محاولة فرعون استئصال بني إسرائيل وطردهم ، هنا يصبح التهديد بالهلاك الإلهي ضرورة لكسر شوكة الباطل وتثبيت المؤمنين.

¹ رواه أحمد ج8 ص 168 رقم 3633
انظر تحقيق هذه الزيادة (فرعون هذه الأمة) عند أهل الحديث في صيد الفوائد

<https://saaid.org/Doat/esawi/11.htm>

رجاله ثقافت، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.
الراوي : أبو عبيدة | المحدث : شعيب الأرنؤوط | المصدر : تخريج سير أعلام النبلاء الصفحة أو الرقم 1/483 :
التخريج : أخرجه أبو داود (2709) بنحوه، والطبراني في ((الدعاء)) (1078)، والبخاري (2008) بنحوه مطولاً.
انظر تخريج الدرر السنية والحكم على الحديث عندهم ، ولم أر حكماً للابناني علي الحديث

فقد استظهرت الآيات استهزاء فرعون بالآيات واستحقار موسى بقوله ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فجاء رد موسى قاطعا على ذات الصيغة والوزن ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، لبيان أن موقف الداعية ليس موقف ضعف أو انكسار.

والغرض من ذلك نفسي وتربوي ولا شك ، إذ يتضمن تثبيت للفتنة المؤمنة إزاء تهديد فرعون لها ، فلا يظن الطاغية أو المعاند أن لين الداعية عجزٌ أو خوف ، ويشعر المستضعفين بأن الله معهم وناصرهم ، وأن الباطل مخزول مهزوم ، وتلك هي الصدمة الأخيرة التي يوجهها أهل الحق قبل جهاد الباطل ، لعلهم يستيقظون ، مثلما يفعل رسل رسول الله ﷺ قبل جهادهم الملوك الظالمين ، فيخبرونهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب .

قوله (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَضْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا) (103) ، فما كان من فرعون إلا أن حاول استفزازهم بعد أن اضطهرهم للهجرة من مصر والسير ليلا بعيدا عن بطش فرعون ، ولكنه لم يكتف بذلك بل طاردهم من الأرض ليقضي عليهم ، ولكن الله خيب سعيه فأغرقه ومن معه .

قال ابن عاشور (أضمر المشركون إخراج النبي ﷺ والمسلمين من مكة، فمثلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر)¹ ونظير ذلك في سيرة النبي ﷺ قوله تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء:76].

قوله (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ...) (104) لما نال فرعون جزاؤه في الدنيا بالغرق ، آلت كنوزه وثرواته للمستضعفين المتبعين لموسى عليه السلام من بني إسرائيل، قال تعالى (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الدخان:59)

كذلك لما نال صناديد الكفر من قريش جزاؤهم في بدر بالقتل ، آلت غنائم المشركين للنبي ﷺ وأصحابه بعدما انقضت الغزوة وما تلاها من غزوات ، حتى أورث الله صحابة رسول الله ﷺ الأرض ومن حولها ، يقول صاحب الظلال (عندما يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيل أهل الحق من الأرض ويبيدهم - وكذلك يفكر الطغاة دائما - وعندئذ تحقق على الطاغية كلمة الله ، وتجري سنته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين).

قال ابن كثير (وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سَنَّةٌ مِمَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) [الإسراء: 76 ، 77] ؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها غنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم)²

¹ التحرير والتنوير ج14 ص 179² تفسير ابن كثير ج5 ص 125

قوله (..فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)(104) قيل هي إشارة إلى حشرهم بعد البعث ، يقول الإمام البقاعي أي (بعثناكم وإياهم محتلطين ، لا حكم لأحد على آخر ، ولا دفع لأحد عن آخر على غير الحالة التي كانت في الدنيا ، ثم ميزنا بعضكم عن بعض)¹.

وذهب آخرون إلى أن وعد الآخرة يعني ظهور علاماتها الكبرى ، قال ابن عباس (ووعده الآخرة عيسى ابن مريم)²، فذهب بعض المفسرين المعاصرين (مثل الشيخ متولي الشعراوي وبعض العلماء) إلى تفسير "وعد الآخرة" بالإفساد الثاني لبني إسرائيل³ ، وأشار إلى تجمع اليهود واختلاطهم من شتى بلدان العالم ليعودوا إلى أرض فلسطين في العصر الحديث تمهيداً لوعد الآخرة ونهاية إفسادهم.

قال الشعراوي (والجاء بهم لفيفاً إنما يعني أن يجمعهم في وطن قومي لتأتي لهم الضربة القاصمة)⁴ وقال الشعراوي (واللفيف هو الجمع غير المتجانس الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما أن الله سبحانه وتعالى قد قضى أن يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين . . يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد أن يجمعهم في مكان واحد . لأنهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التي يعيشون فيها لاقتضى ذلك أن يجارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهم من كل دولة إلى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن أن يجارهم المسلمون ، وأن يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة)⁵.

وأكد هذا المعنى الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي فقال (فسيجتمع بنو إسرائيل كلهم في الشام، وقد بدأ هذا وشاهدناه وحصل منه في زماننا هجرات كثيرة لليهود، فقد جاء يهود الاتحاد السوفيتي، ثم جاء بعدهم يهود الفلاشا من أفريقيا، وما زالوا يجتمعون، والآن يخططون لجلاء اليهود من أوروبا وأمريكا ليجمعوا في هذا المكان بعد أن اجتمع فيه اليهود من المغرب واليهود من المشرق)⁶ ، وأكد أن هذا هو الحشر الثاني كما حصل الحشر الأول في قوله (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) [الحشر:2].

قال الماوردي (فإذا جاء وعد الآخرة) فيه ثلاثة أقاويل :-
أحدها : وعد الإقامة وهي الكرة الآخرة ، قاله مقاتل .
الثاني : وعد الكرة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام .
الثالث : نزول عيسى عليه السلام من السماء ، قاله قتادة⁷ .

¹ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج4 ص 434

² انظر ابن جرير الطبري ج13 ص 174 ، تفسير ابن كثير ج3 ص 492 ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج4 ص 349 ، وانظر إلى تفسير الألوسي والنيسابوري والبنغوي

³ تفسير الشعراوي ج1 ص 5334

⁴ تفسير الشعراوي ج1 ص 4072

⁵ تفسير الشعراوي ج1 ص 170

⁶ دروس الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي درس 30 ص 17 تفريغ موقع الشبكة الإسلامية

⁷ التكت والعيون ج3 ص 278

الجزء الثاني للخاتمة القرآن وتفاعل أهل العلم به

قال تعالى (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (105) وَفَرَأَيْنَا فَتَرْنَاهُ لِقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَجِرُونَ لِالَّذِقَانِ يَبْكَوْنَ وَيَرِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)

ومن الإشارات اللطيفة، أن نرى الحديث عن القرآن في سورة الإسراء ممتد من أولها حتى ختامها ، ففي خاتمة سورة الإسراء بنجد سجود أهل العلم بالكتاب مستشعرين حلاوة القرآن ويكون من خشية الله ، وهذا الحديث تجد أن بداية سورة الكهف قد استهلكت به ، فنجد حمد الله على نعمة القرآن، هذه النعمة العظيمة التي بدأت سورة الكهف بشكر ربنا عليها (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)¹.

قوله (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (جَاءَ لِيُنْذِرَ الْكَافِرِينَ) كتاب الله حق مبين، منزل على نبي الهدى ليحقق الله به الحق ويُطِلَّ الباطل. وما كان القرآن يوماً سِفْراً يُقْتَنَى ليزين الرفوف، بل نزل ليكون منهجاً عملياً يستوعب الحياة كلها؛ تَمَثَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ في واقعه، وعاش به أصحابه وقومهم، والتزموا أحكامه صدقاً وعدلاً، فاستحقوا أن يكونوا حملة هذا النور ورجاله ، فبالحق التزموا أحكامه ، وكانوا أهلاً لذلك.

قال البيضاوي أي (وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل على الرسول ﷺ إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه)² ، فكتاب الله نزل بالحق فلم يطله التحريف ، قال تعالى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت 42) ، ولما نزل نزل متضمناً للعقائد الصحيحة والأحكام العادلة ، فهي الحق .

التعبير بـ " أنزلناه " بين جهة الفاعل وهو الله عز وجل الذي أنزله بالحق، والتعبير بـ " نزل " بين حال المنزل نفسه بأنه وصل بالحق والتمام إلى الأرض على قلب النبي ﷺ من غير شائبة باطل.

ويقول د فاضل السامرائي تكرر الحق في الآية (فمعنى "الحق" الأول غير الحق الثاني، ففي قوله (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ) الحق هنا يعود إلى الحكمة الإلهية والوقيت المناسب والضرورة الملحة لنزول المنهج والإصلاح، فالاجتماع البشري كان بحاجة ماسة لهذا الهدي في ذلك التوقيت بالذات، فالتنزيل من حيث التوقيت والحكمة هو "الحق الأول".

¹ مع تصريف <https://kalemtayeb.com/safahat/item/8960>

² (تفسير البيضاوي ج2 ص 455 ، تفسير أبي السعود ج4 ص 230 ، تفسير الألوسي ج11 ص 124

وفي قوله (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) الحق هنا يعود إلى المضمون ذاته؛ أي أن ما اشتمل عليه القرآن من العقائد، والأحكام، والتشريعات، والقصص هو "الحق الخالص" المطابق للواقع والحقيقة، وهو "الحق الثاني"¹.

قوله (..وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (105) أي ما كلف النبي ﷺ ولا أصحابه إلا بالبشارة والنذارة لقومهم ، فليسوا مسيطرين عليهم ولا مسيطرين .

قوله (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (106) أي أن علة نزول القرآن مفرقا بحسب الوقائع أن يكون تطبيقه أيسر على البشر ، ولذلك لم ينزل جملة واحدة علي الناس ، بينما بنو إسرائيل نزلت عليهم التوراة جملة واحدة لأنهم تخطوا مرحلة بناء الدولة قبل أن تنزل التوراة بعدما ورثوا كنوز فرعون ، فكان من لازم أن تنزل التوراة مكتملة الأحكام الشرعية لأن الدولة لا تحكم إلا بتشريعات كاملة ، بينما سيرة رسول الله ﷺ بدأت قبل تكوين الدولة في المدينة بقرابة ثلاثة عشر سنة ، فكان التدرج في التشريع يناسب التدرج الذي حصل في سيرة النبي ﷺ وأصحابه ، حيث هاجر الصحابة مرتين مرة للحبشة ومرة للمدينة وكل ذلك ولم تنزل بعد الأحكام العملية التشريعية غير الصلاة والزكاة ، فلما تكونت الدولة نزلت باقي الأحكام العملية مثل الصوم والحج والجهاد والحجاب والحدود والقصاص... الخ .

وهكذا نزلت آيات القرآن الآية تلو الأخرى بحسب زمان الناس ، فلم تنزل آية بغير حق ، تقول أمنا عائشة رضي الله عنها (أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةُ أَلْعَبُ "بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ" ، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ)² ، بهذا عاش الناس زمانهم بالقرآن ، والوحي يتنزل في كل حادثة ليعلّمهم ماذا يفعلون ؟ وكيف يتصرفون ؟ وعن ماذا يكفون ؟ ولماذا يتحركون ؟ فنزل مفرقا بحسب النوازل والأحداث ، كل ذلك على مكث ، أي سنوات كثيرة تنزل خلالها آيات القرآن الآية تلو الأخرى بحسب ترتيب الأحداث وتغير الزمان والأحوال ، وهكذا يكون نزول القرآن مقتربا بأحداث السيرة النبوية ، فمن أراد أن يتدبر هذه الآيات فليتبدر سيرة النبي ﷺ العطرة ، فذلك أيسر له على الفهم والعمل به .

وتشير الآية إلى أدب تلقي القرآن ، فكما أنه نزل على مكث خلال فترة طالت عشرين سنة ليكون أسهل في الاستيعاب والتدبر ، فالواجب كذلك أن يُتلقي القرآن بذات الطريق ليكون محققا ذات الغاية ويصل بالناس إلى مرحلة الاستيعاب والتدبر ، ولا يكون ذلك إلا بترتيبه ترتيبا ، وقراءته على مهل ، بحيث تكون تلاوته متزامنة مع تطبيقه ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات؛ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)³.

¹ د فاضل السامرائي : الفرق بين (وبالحق أنزلناه) و(وبالحق نزل)

<https://www.youtube.com/watch?v=MEyz55jKw0Y>

² رواه البخاري ج15 ص 394 رقم 4609

³ رواه ابن جرير بإسنادين أحدهما رواه: ابن أبي شيبه، وأحمد في ((المسند))، وابن سعد في ((الطبقات))، كلهم من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ انظر: ((تفسير الطبري)) (80/1 - شاکر)، ((المصنف)) (460/10)، ((المسند)) (410/5)، ((الطبقات)) (172/6).

ولكي يكون القرآن منهجا تطبيقا لا بد من فهمه ، ويكون ذلك بقراءته مسترسلا ، وتدبره عند التلاوة ، أي (لتقرأه على الناس على ثُؤْدَةٍ، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك)¹ ، والمعنى (على ثُؤْدَةٍ وترسُل ليتدبروا معناه)² ، فعَنْ قَتَادَةَ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ (كَانَ يَمُدُّ صَوْتَهُ مَدًّا)³ .

أما من يعجل في قراءة القرآن بهدف قراءة أكبر كم منه في أقل وقت ، فهذا تقل الاستفادة منه ، حيث (يُكْرَهُ أَنْ يُهَدَّ كَهْدَ الشَّعْرِ)⁴ ، فعن ابن عمر يقول (لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدثنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن ثم قال : لقد رأيت رجلا يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه ينشره نثر الدقل)⁵ .

وعلي ذلك فإنه يكره أن يُقرأ القرآن كله في أقل من ثلاثة أيام قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ (لَمْ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ)⁶ ، أي أن الماهر بالقرآن له أن يختمه كل ثلاث أيام فيقرأ السبع الطوال في يوم وإلى سورة العنكبوت في اليوم الثاني ويختتم في الثالث على أقصى تقدير ، وليس ذلك لأحد إلا لمن هو ماهر به ، وإلا انقلبت النتائج إلى ضدها ، ألا ترى أن العسل إذا تغذيت منه بما يزيد عن حاجة الجسد أضره .

والقدر الموصي به هو أن تكون ختمة القرآن كل شهر أو كل عشرة أيام أو أسبوع لمن يملك القوة والشباب والوقت لفعل ذلك ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي أَحْشَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْكَ الزَّمَانُ وَأَنْ تَمَلَّ فَأَقْرَأَهُ فِي شَهْرٍ فَقُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمِيعَ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي قَالَ فَأَقْرَأَهُ فِي عَشْرَةِ قُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمِيعَ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي قَالَ فَأَقْرَأَهُ فِي سَبْعٍ قُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمِيعَ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي فَأَبَى)⁷ .

قوله (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ..) (107) لقن الله نبيه ﷺ الجواب المناسب لمن ظنوا أن النبي ﷺ يلح عليهم الاستجابة له بأن يؤمنوا ليستنصر بهم ، والجواب أن النبي ﷺ لا يبالي بإيمانهم ، آمنوا أو لم يؤمنوا حتى يستنصر بهم ، فإذا كانوا يظنون أنه يستنصر بهم ، فهو يستنصر بربه ، وكفى بالله هاديا ونصيرا ، فالصلة بينه وبين ربه مباشرة ، ومعينة الله له لا تتركه ، وإنما اهتمامه وحرصه على إيمانهم لأجل أن يكون سببا في نجاتهم من عذاب الله ، أما وظيفة النبي ﷺ فإنها تنتهي عند حد البلاغ ، فالمؤمنون يستنصرون بالحق ، وليس الحق يستنصر بهم ، قال الرازي (اعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وإيمانهم وامتناعهم منه وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم)⁸ .

¹ تفسير الطبري ج 17 ص 575

² ابن الجوزي : زاد المسير ج 4 ص 199

³ رواه ابن ماجه ج 4 ص 254 ق 1343

⁴ صحيح البخاري ج 15 ص 461

⁵ رواه الحاكم في المستدرک ج 1 ص 91 رقم 101

⁶ رواه ابن ماجه ج 4 ص 247 رقم 1337

⁷ رواه ابن ماجه ج 4 ص 247 رقم 1337

⁸ تفسير الرازي ج 10 ص 148

قوله (... إِنَّ الَّذِينَ أَوْثُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونَ وَيَرْبِدُهُمْ خُشُوعًا) (109) ونظير ذلك في قوله تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) [المائدة : 83] ، ولذلك نجد أن أهل العلم بالكتب السابقة الذين حظوا بما لم يحرف منها إذا تليت عليهم آيات الرحمن يخرون سجدا ليكون لأنهم صادفوا عند سماع آيات القرآن ما يوافق علمهم السابق بالوحي المنزل من الله في التوراة والإنجيل ، فلما عرفوا فيه الحق ، اتبعوه دون تردد ، وكانت هيئتهم الخشوع والخضوع ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ .. ذكر منهم (وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ)¹ ، فالغرض من العلم بالكتاب وهو الاتباع والتطبيق لأحكامه وشرعه .

وقد وصف القرآن حالتهم الإيمانية وهم يستمعون لآيات الله ، بأنهم مصدقون بكل آية ، وهم في حال من التسبيح والحمد والتكبير ، فعَنْ خُذَيْفَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ (صَلَّى فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ رَحِمَةٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ عَذَابٍ اسْتَجَارَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ سَبَّحَ)²

كما وصف هيئتهم في الصلاة أو عند سماع التلاوة بأنهم في خشوع ، ودلل على ذلك بأنهم يخرون سجدا ولحاهم قد التصقت بالأرض .



قال ابن تيمية (فإن الخور انخفاض الوجه والرأس وهو أعلى ما في الانسان وأفضله وهو قد خلق رفيعا منتصباً فإذا خفضه لا سيما بالسجود كان ذلك غاية ذله ولهذا لم يصلح السجود إلا لله ، فمن سجد لغيره فهو مشرك ، ومن لم يسجد له فهو مستكبر عن عبادته ، وكلاهما كافر من أهل النار قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)³).

كما وصف درجة خشوعهم بالبكاء ، يقول النبي ﷺ (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)⁴ ، وهذه الحالة وإن لم يصل إليها المستمع لكتاب الله ، فعليه أن يستحضرها ، فإن استحضار الخشوع يعينه على تدبر القرآن وفهمه ، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ قَدِمَ عَلَيْنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ مَرْحَبًا بِابْنِ أَخِي بَلَعْنِي أَنْكَ حَسَنُ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

(1) رواه البخاري ج10 ص 202 رقم 2789

(2) رواه ابن ماجه ج4 ص 253 رقم 1342

(3) كُتِبَ وَرِسَالَتِ وَفَتَاوَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي الْفَقْهِ ج23 ص 145

(4) رواه الترمذي ج6 ص 190 رقم 1563 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج4 ص 139 رقم 1639

ﷺ يَقُولُ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا وَتَعَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا¹، والحديث معناه صحيح ، وبعضه ما روي عن ابن أبي مليكة قال جلسنا إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الحجر فقال ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا لو تعلموا العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره ولبكى حتى ينقطع صوته²

والذي يعين على تدبر القرآن تحسين الصوت به ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ)³، أي لم يحسن صوته به لان التطريب به ادعى لقبوله ووقعه في القلوب لكن شرطه أن لا يزيد ولا ينقص حرفاً⁴، وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأبي موسى لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ⁵.

قوله (قُلْ اذْعُوا لِلَّهِ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (110) هذه الآية دليل على أن الإنسان وجميع المكلفين مجبولون على معرفة الإله الحق ، فهو الذي يُدعى بأحسن الأسماء والصفات ، وكل ما ليس بحسن فلا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى ، وهكذا يعرف الإنسان ربه ، فله الأسماء الحسنى⁶

إن التضرع إلى الله بأسمائه الحسنى هو أحد أنجع أساليب الدعوة المؤثرة. فعندما يرى غير المسلم عبادة المسلم وخضوعه لربه، لاسيما في مواطن الدعاء والحمد بأحسن الأسماء، يتحرك لديه الفضول، وتتوق نفسه لمعرفة هذا الدين عند رؤيته يصلي ويقرأ القرآن. هذا الإعجاب يكون بوابتهم نحو الإسلام؛ لأن الدعاء يعرف الخلق بخالقهم وأسمائه ، ويبرز لهم عظمة صفاته العُلا، وتنزهه سبحانه عن كل عيب ونقص.

فالدعاء هو العبادة ، يقول النبي ﷺ (إن الدعاء هو العبادة)⁷، (فهذا دعاء المسألة : والدعاء هاهنا بمعنى التسمية ؛ والمعنى سمو الله أو سمو الرحمن ، وليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب)⁸.



(1) رواه ابن ماجه ج4 ص 235 رقم 1327
(2) رواه الحاكم في المستدرک ، وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 162 رقم 3328
(3) رواه البخاري ج23 ص 55 رقم 6973
(4) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 640
(5) رواه مسلم ج4 ص 208 رقم 1322
(6) منهج السلف في فهم الأسماء الحسنى : ج35 ص 261
(7) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 249 رقم 714 وصححه الألباني
(8) منهج السلف في فهم الأسماء الحسنى : ج35 ص 261

والمقصود هو التوجه إلى الله تعالى بالدعاء والتوسل له في قضاء الحاجات ، والإلحاح في الدعاء فإن الله يحب ذلك ، قال رسول الله ﷺ (وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ)¹ ، وقال ﷺ (وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ)² .

قوله (...وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (110) هذه الآية تبين الظروف الحالكة التي نزلت فيها سورة الإسراء ، والمرحلة الدعوية التي كانت تحيط بالنبي ﷺ ، ولا يزال بين قومه مستضعفا ، لا يستطيع أن يجهر بقراءة القرآن ، ويريد أن يسمع أصحابه ويعلمهم القرآن ، ورغم ذلك أمر أن يستمر في دعوته بالحكمة ودون حاجة لأن يصطدم مع الباطل ، فلا حاجة لأن يجهر بالقراءة ، ولا أن يخافت بها فلا يسمعه أحد ، وإنما تكون دعوته قصدا بين بين ، وذلك كله من باب الأخذ بالأسباب ، مع التوكل على الله تعالى خالق الأسباب ومفعلا ومبطلها .



عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا) قَالَ نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) أَيِ بَقْرَاءَتِكَ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ (وَلَا تُخَافِتُ بِهَا) عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ (وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)³ ، وفي رواية (أَسْمِعُهُمْ وَلَا تَجْهَرُ حَتَّى يَأْخُذُوا عَنْكَ الْقُرْآنَ)⁴ .

قوله (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا) (111) ابتدأت السورة بالتسبيح واختتمت بالحمد والتكبير ، فالحمد على نعمة التوحيد وكفى بها نعمة ، أن يختص الله بالألوهية والملك لا شريك له ، له العزة ، فعن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ آيَةُ الْعِزِّ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا.. الآية كُلُّهَا)⁵ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التمجيد؟ قلت : (لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة فهو الذي يستحق جنس الحمد)⁶

⁽¹⁾ رواه البخاري ج 14 ص 171 رقم 1168

⁽²⁾ رواه مسلم ج 7 ص 498 رقم 2755

⁽³⁾ رواه البخاري ج 14 ص 341 رقم 4353

⁽⁴⁾ رواه البخاري ج 23 ص 8 رقم 6936

⁽⁵⁾ رواه أحمد ج 31 ص 233 رقم 15081 وضعفه الألباني : وقال

رواه أحمد (439 / 3) والواحد في " تفسيره " (2 / 192 / 1) عن رشدين بن سعد عن زيان بن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه مرفوعا . قلت : وهذا سند فيه ضعف ، زيان بن فائد متكلم فيه من قبل حفظه ، وقد يحسن حديثه . وقال الحافظ : " ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته " . ورشدين بن سعد ضعيف أيضا . وقد تابعه ابن لهيعة عند أحمد وهو ضعيف كذلك . وفي " الفيز " : " قال الحافظ العراقي : وسنده ضعيف . وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني من طريقين ، في أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف . وفي الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه ، وقد رمز المؤلف لحسنه " .

⁽⁶⁾ (الكشف ج 3 ص 493

قوله (الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) (111) تضمنت الخاتمة تنزيهه سبحانه عن الشريك والولد ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سِمَعِهِ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)¹ .

قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) (111) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكَزْبَاءُ رِدَائِي ، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أُلْقِيَهُ فِي النَّارِ)² .

قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) (111) فقوله (وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) أي (لَمْ يُخَالِفْ أَحَدًا)³ قال أبو حيان (أي لا ذل يوجد في حقه فيكون له ولي ينتصر به منه ، فالذل والولي متغايان)⁴، ولذلك سميت هذه الآية بآية العزة)⁵ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمد قل توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبرا)⁶، قال الشوكاني (أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء ما ينوبه مع التمسك بقاعدة التوكل وعرفه أن الحي الذي لا يموت ، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون) ، ولذلك قيل (لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق)⁷ .

قوله (وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا) (111) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةً أُسْرِي فِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ)⁸ .

وعن كعب بن عجرة قال : (معقبات لا يخيب قائلهن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة)⁹ .

¹ (رواه البخاري ج22 ص 371 رقم 6830

² (رواه أحمد ج15 ص 119 رقم 7078 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 79 رقم 541

³ (صحيح البخاري ج14 ص 314 معلقا

⁴ (البحر المحيط ج7 ص 421

⁵ (رواه الطبراني في المعجم الكبير مرفوعا ج20 ص 192 رقم 17187

⁶ (رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد ج1 ص 689 رقم 1876

⁷ (فيض القدير ج5 ص 591

⁸ (رواه الترمذي ج11 ص 365 رقم 3384 وحسنه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 160 رقم 2755

⁹ (رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 218 رقم 622 وصححه الألباني

الفهرس

2	تمهيد : -
4	مقدمة سورة الإسراء وافتتاحيتها
24	المحور الأول
24	القرآن يهدي إلى الأقوم
25	المسألة الأولى : القرآن يقوم الحياة بوجه عام
26	المسألة الثانية : القرآن يقوم حياة المسلم معنويا بالرضا بالقدر وعدم العجلة
31	المسألة الثالثة : القرآن يقوم الحياة المادية للإنسان
39	المحور الثاني
39	الوصايا الربانية
66	المحور الثالث
66	منهج القرآن في شرح عقيدة التوحيد
67	المسألة الأولى : شرح معنى التوحيد باستبعاد تصور غيره
70	المسألة الثانية : الدعوة للنظر في توحيد المخلوقات لله
71	المسألة الثالثة : نفور الكفار من عقيدة التوحيد استكبارا
74	المسألة الرابعة : نفور الكفار من شخص النبي حسدا
78	المسألة الخامسة : نفور الكفار من اليوم الآخر تحللا من المسئولية
81	المسألة السادسة : إحسان القول للكفار في مقام الدعوة واجب
82	المسألة السابعة : محاجة المشركين في عقيدتهم
87	المحور الرابع
87	الخوف من لوازم الإيمان
116	المحور الخامس
116	الثبات على الإيمان
117	الدرس الأول
117	الثبات من الله
122	الدرس الثاني
122	وسائل التثبيت
133	الدرس الثالث
133	الثبات بعوامل خارجية (إعجاز القرآن الكافرين)
138	المحور السادس
138	مجادلة الرسول في أحقيته بالنبوة ، وإفحامهم بالحجة
143	خاتمة سورة الإسراء